# أصول التشيّع

## عرض ودراسة

تأليف

السيد هاشم معروف الحسني

دار التعارف للمطبوعات

# أصول التشيع

مصورات
مكتبة الصدوق

جميع الطبع محفوظة

١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

دار التعارف للمطبوعات :

الإدارة والمعرض ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين ـ

تلفـــون : ٠١/٢٧١٩٠٧ ـ ٠١/٢٧١٩٠٨ ـ ٠٣/٨٢٣٦٢٠

ص .ب :٨٦٠١/ ١١ـ٦٤٣/ ١١ـفاكس :٢٧١٩٠٨(٠٠٩٦١١)

# السيد هاشم معروف الحسني
# سيرة نقية، وفكر نقي...

نقاء سيرته، ونقاء فكره حقيقتان تواكبان اسمه: حياً وميتاً، حاضراً وغائباً. . .

ولد السيد هاشم معروف الحسني عام ١٩١٩م في قرية جناتا (قضاء صور ـ لبنان الجنوبي) وفي بيت من بيوت الصلاح والتقوى في جبل عامل، وفي رعاية والده السيد معروف، ذلك الرجل الوقور وقار المؤمن، الوديع وداعة الناس البسطاء، الطيب كطيبة الأرض التي كانت تعطيه من خيرها الوفير بقدر ما يعطيها من جهده الجاهد، وصبره المحتسب، وبركة يديه الخيّرتين. . في ظل هذه المزايا الكريمة لوالده السيد معروف، نشأ السيد هاشم نشأة كريمة أكسبته منذ الفتوّة وقار الرجال، ووداعة المؤمنين، وطيبة الناس الطيّبين كأرضهم جبل عامل. . في ظل هذه المزايا بالذات تمرّس السيد هاشم بأخلاق التواضع والصدق وعفّة اليد واللسان والضمير وببساطة العيش رغم أنه عاش فتوّته وشبابه في بيت ميسور الحال موفور النعمة. .

ويشهد الذين عايشوه أو عاصروه في النجف الأشرف وهو يطلب علم الدين والشريعة هناك، إن هذه الأخلاق نفسها، وهذه العفة نفسها، وهذه

البساطة الطيبة نفسها، ظلت من مميزاته المرموقة التي كانت تكسبه احترام اساتذته وزملائه وأصدقائه وتلامذته، بل كانت تمنحه حبهم جميعاً.

ونستطيع القول جازمين بأن هذه المميزات التي كانت تزداد ترسّخاً في شخصية السيد هاشم، طوال أعوام الدراسة في النجف الأشرف، هي أساس ما عُرف به أيام طلب العلم هناك من مثابرة مدهشة على الدرس والمدارسة، ومن انكباب نادر المثال على الكتاب لا تلهيه عنه مغريات المجالس العامرة، يعقدها أيام العطل الاسبوعية، زملاؤه وأصدقاؤه ترفيهاً لنفوسهم من عناء الدرس والتدريس... هذا لا يعني أن السيد هاشم كان زمّيتاً، أو انطوائياً، أو متحرّجاً من مجالس الأنس البريئة، أو كان كزَ المزاج لا تطيب له مؤانسة الأصدقاء والزُّملاء.. بل كان أمره على عكس ذلك. كان ألوفاً سريع الإلفة طيب المؤالفة، تطرب نفسه للقاء الأصدقاء، يهتزُّ جسده كله سروراً ومرحاً للفكاهة اللاذعة الناقدة ويضحك لها مِلْء صدره، بل كثيراً ما كان هو يبادر بها ويرسلها عفوية ضاحكة محببة.. غير أنه لم يَدَعْ لنفسه أن تسترسل في الاستمتاع بهذا كله، كيلاً يطغى على استمتاعه الروحي بتحصيل المعرفة والعلم.. لذا كان حريصاً على أن يقيم التوازن بين هذا وذاك في حياته اليومية، وكان ناجحاً جدّاً في إقامة هذا التوازن بالفعل...

السيد هاشم، طالب العلم، كان نموذجاً محترماً للطالب المنظَّم التفكير والعمل.. كان تنظيم عمله اليومي يتناسب مع نَسَق تفكيره الدقيق التنظيم.. فإنه بالرغم من تعدُّد عمله اليومي، كمياً ونوعياً، كان يبدو صافي الذهن، هادئ الأعصاب، متهلّل الوجه، فكأنه يعمل عملاً واحداً سهلاً.. مرجع هذه الظاهرة فيه هو قدرته الفائقة على تنظيم فكره وعمله.. هذه القدرة كانت له عوناً على إنجاز أعماله اليومية كاملة ومتقنة دون أن ترهقه

ذهنياً ولا جسدياً. . بهذا القدر من حسن تصريفه الأمور كانت له الطاقة المدهشة في أن يحضر في اليوم الواحد أكثر من حلقة دراسية، وأكثر من حلقة مذاكرة، وأن يمارس التدريس لأكثر من حلقة وكتاب. . غير أن الأهم من كل ذلك أنه كان يتعامل مع زملائه وتلامذته كأنه هو المستفيد دائماً منهم في حين كان هو يفيد أكثر مما يستفيد. . من هنا كان السيد هاشم نموذجاً في التواضع بقدر ما كان نموذجاً في تنظيم عمله وتفكيره. .

كل أخلاقه ومزاياه هذه سواء ما اكتسبه في نشأته برعاية والده السيد معروف، أم ما ترسَّخ فيه منها خلال طلبه العلم بالنَّجف الأشرف، هي جميعاً أخذت تبرز وتتوهّج، أكثر فأكثر، منذ انتهت مرحلة طلب العلم، وعاد إلى جبل عامل ليمارس مهمّته كرجل دين. . في مرحلته الجديدة تغيرت كل الظروف السابقة، وجاءت ظروف مختلفة جداً. . وتبدلت شروط الحياة وشروط العمل، بل تبدَّلت حتى شروط التفكير. . بمعنى أن شخصيته الإنسانية أصبحت عرضة لأن تتكوّن من جديد بصيغة جديدة. وصار من الممكن والمحتمل أن تهتزّ شخصية طالب العلم حين ينتقل فوراً إلى مرحلة عليه أن يواجه فيها الحياة والناس والأشياء والقضايا بوجه جديد، وبشخصية جديدة، بمواقف جديدة، بعادات جديدة، بمزاج جديد الخ، الخ. . .

وهنا الامتحان الكبير، العسير، الشاق. . . هنا التحوُّل من شخصية طالب العلم إلى شخصية رجل الدين بكل ما تحتمل شخصية رجل الدين من صفات وصيغ عيش وتفكير، ومن أشكال تعامل، مع الناس، مع الواقع الجديد. . . إنه التحول الصعب. فكيف إذن واجه السيد هاشم ظروفه الجديدة، واقعه الجديد. . . هل اهتزت شخصيته الطالبية النموذجية أمام شخصية رجل الدين التي كان عليه أن يتقمّصها بسرعة دون اختلال؟

أسئلة كثيرة من هذا النوع تحتشد في الذهن. . مع أن سيرة السيد هاشم النقية، وفكره النقي، يقدمان لنا الجواب عن كل هذه الأسئلة بارتياح دون مشقة. . فقد بقيا على نقائهما دون انكسار. . وبقي السيد هاشم الطالب النموذجي، هو نفسه السيد هاشم العالم رجل الدين المرتجى. . بل أصبح أكثر نموذجية، أي أكثر توهجاً، أي أكثر حضوراً في ظروفه الجديدة منه في ظروفه السابقة كطالب علم. . .

كل المزايا التي عرفناها في السيد هاشم طالب العلم في النجف الأشرف، أثبتت حضورها الأبهى في العلامة السيد هاشم رجل الدين في جبل عامل:

أخلاق التواضع والصدق وعفة اليد واللسان والضمير وبساطة العيش رغم وَفْرة أسباب العيش لديه. . كل هذه الأخلاق والصفات فيه، برزت عنده بصيغتها الجديدة منذ بدأ حياته الجديدة كرجل دين.

لكن هذه الأخلاق والصفات ذاتها اتخذت صيغتها الجديدة مسيّجة بسياج حصين منيع من الورع بأعمق معانيه وأكثرها شمولية، إنه الورع الذي يصون صاحبه لا من مقاربة المحرّمات الدينية التعبُّدية وحدها، بل يصونه ـ أولاً وآخراً ـ من مقاربة المحرّمات التعامليّة بخاصة: دينية، واجتماعية، وإنسانية ووطنية. . إن هذا النوع التعاملي من الورع، هو ما يضع الفارق الحاسم بين الورع العادي والاستثنائي، أو بين الورع السطحي والعمقي، أو بين الورع الزائف والحقيقي. .

ورع العلاّمة السيد هاشم معروف كان ورعاً ذا طبيعة شمولية، أولاً، وكان ـ إلى ذلك ـ ورعاً استثنائياً وعُمقياً وحقيقياً. . نقول هذا لا اعتباطاً ولا امتداحاً. . وإنما نقوله اعتقاداً واستناداً إلى الواقع والشاهد والملموس من سيرته النقية. . فنحن نعرف من سيرته هذه أنه:

**أولاً**: كان له من صدق إيمانه الديني حصانة قوية وراسخة تمنع عنه الوقوع في شرك المغريات الآثمة مهما تكن عليه من قوة الإغراء وسحره.. وهذا هو الورع الديني..

**ثانياً**: كان له من إدراكه السليم وحدسه الصائب ما يعصمه من كلا الشَّرّين: شر العزلة المطلقة عن الناس دون تمييز بعضهم من بعض، وشر الاندماج المطلق بالناس دون الحيطة والحذر من بعضهم دون بعض. بفضل هذه العصمة أمكنه اجتناب أهل الشر منهم، مع الإفادة من صلته بالخيّرين فيهم.. وهذا الورع الاجتماعي.

**ثالثاً**: كان من سماحة القلب ونبل العاطفة ما يضعه قريباً من الناس الضعفاء والبؤساء والمعذّبين.. بفضل هذا القرب الحميم استطاع أن يبلْسم بعض الجراح قدر ما لديه من الممكنات.. وهذا هو الورع الإنساني..

**رابعاً**: كان له من شرف العقل ونزاهة الضمير ما يبعده عن أهل الشبهات الذين لا يتورّعون عن بيع الوطن والمواطنين لقاء مكاسب شخصية.. بفضل هذا الشرف والنزاهة فيه كان قادراً أن يمتنع عن الانزلاق إلى المنحدرات الموبوءة.. وهذا هو الورع الوطني..

دخل العلاّمة السيد هاشم معروف الحسني عالم الوظيفة كقاضٍ في المحاكم الشرعية الجعفرية في لبنان.. لماذا فعل ذلك؟

نقول واثقين إنه لم يدخل عالم الوظيفة هذه إلا عن ضرورة دفعته إلى ذلك.. هذه الضرورة لا يستطيع أن يدركها ويدرك قدرها إلا من عرف ظروف العيش التي يعانيها رجال الدين في جبل عامل، خصوصاً منهم أهل العفّة والتواضع وصدق القول والعمل.. هؤلاء يعزّ عليهم أن تضطرهم ظروف العيش أحياناً إلى الخروج ـ ولو مقدار شعرة ـ عن أخلاقية العفة والتواضع والصدق.. من هذا الوجه المشروع اضطر السيد هاشم أن

يتجنّب حالة الخروج عن أخلاقيته الأصيلة فدخل عالم الوظيفة كارهاً لا مختاراً. . لكنه فعل حسناً. . لقد أثبت أن الوظيفة ليست شرّاً بذاتها، وإنما هي تتشرَّف بمن يصاحبها بشرفه، ويلطّخها بالدنس من يلصق بها دنس يده وضميره. . لقد شرّفها السيد هاشم بالفعل: شرّفها بنزاهة يده وشرّف ضميره، وشرّفها بورعه الصارم. . وبسيرته النقية.

ولقد أثبت السيد هاشم أيضاً خطأ الزعم أن الغَرَقَ في حياة الناس أو حياة الوظيفة يلغي فرص النشاط الفكري. أي يلغي ممكنات العمل في مجالات الفكر والعلم. .

إن سيرة السيد هاشم وفكره يقولان: لا . . بل إن الاتصال بالناس، مهما يكن واسعاً وعميقاً يكن باعثاً لنشاط العقل، ومصدراً لاغتناء الفكر، ومُلهماً للعمل والإبداع. . فقد برهن السيد هاشم، عملياً، أن فرص الإنتاج العقلي أكثر ما تكون توفّراً حين يكون العالم والمفكّر بين الناس يتعامل معهم ويتعرف احتياجات عقولهم، ويتفهّم قضاياهم ومشكلات حياتهم. . برهن على ذلك بنشاطه الخصب منذ أخذت تتعدّد وتتشابك علاقاته بالناس، ثم منذ أخذت مهمات القضاء الشرعي تزدحم وتتكاثر عليه في المحكمة وفي البيت على حد سواء.

وبعد، فليس أقوى دلالة على السيد هاشم معروف الحسني من مؤلفاته العلمية والفكرية. مؤلفاته وحدها تقول لكم أية سيرة نقيّة، وأي فكر نقيّ، ترك لنا فقيدنا الكبير السيد هاشم معروف الحسني.

# أُصول التشيع

في هذا الكتاب عرض لأُصول التشيع والإسلام بأدلتها العقلية والنقلية وآراء الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم ورد لشبه الملاحدة من الماديين وغيرهم كما يتعرض لأكثر المسائل التي كانت مسرحاً للجدل والنقاش والتفسيق والتكفير في مطلع العصر العباسي كمسألة القضاء والقدر والصفات والعصمة والإمامة والبعث بجميع مراحله عند الأديان، والنعيم والعقاب إلى جانب لمحات خاطفة عن الأئمة الإثني عشر، وأدلة الأحكام عند الشيعة والسنة إلى غير ذلك من المواضيع معتمداً في جميع مواضيعه على أوثق المصادر الإسلامية وغيرها.

**هاشم معروف الحسني**

# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله أئمة الهدى الدعاة إلى الحق والهدى وطاعة الله وعلى أصحاب رسول الله الذين اتبعوا سبيله وعملوا بما جاء به من عند الله العزيز الحكيم ورحمته وبركاته

لقد وجدت خلال دراستي للتصوف وأحوال الصوفية ومصادر التصوف بين محتويات بعض الكتب الإسلامية التي تعنى بشؤون التصوف من الدسائس والافتراءات أفكاراً وآراء تنسب إلى الشيعة تعبر عن أسوأ أنواع الحقد والعداء وتوحي بتخطيط مدروس ومتفق عليه لإخراج الشيعة عن حظيرة الإسلام وإعطائهم صفة لا تلتقي مع الإسلام ولا مع غيره من الأديان، وكان لهذه الظاهرة أثرها السيِّئ في نفسي، بالرغم من أن التهم المشينة للشيعة لم تكن بالجديد عليَّ ولا على غيري منذ القرون الأولى، ولا يزال المحدثون من مؤلفي السنَّة يجترونها، ويتحدثون عنها في مؤلفاتهم لقاء مبالغ من الأموال تغدقها عليهم بعض الجهات الحاقدة بدون حساب، ولكن الصورة الأخيرة التي استخلصتها خلال دراستي للتصوف ومصادره التي تجعل الشيعة أسوأ حالاً من اليهودية وغيرها من الديانات لم أتصورها، وإلى القراء بعض الأمثلة على ذلك: فقد قال عبد الكريم

الجيلاني في كتابه القنية لطالبي الحق أحد أقطابهم: أن من أحب الروافض أي الشيعة فقد أحب اليهود لأنهم من أقرب الناس إليهم. ومضى يعدد وجهات التقارب والتشابه بين الفريقين، وقال: لقد قال اليهود: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود، وقال الشيعة: لا تصلح إلا لعلي وأولاده، وقال اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الدجال وينزل من السماء. وقال الشيعة: لا جهاد حتى يخرج المهدي من نسل علي وينادي المنادي من السماء، واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الروافض، واليهود ينحرفون عن جهة القبلة في صلاتهم، وكذلك الشيعة، واليهود يسدلون أثوابهم في الصلاة وكذلك الروافض، واليهود يستحلون دم كل مسلم، وكذلك الروافض، واليهود لا يرون على النساء المطلقات عدة، وكذلك الروافض، واليهود لا يرون في الطلاق الثلاث ما يمنع من رجوع الزوج، والروافض يجوزون رجوع المطلق ثلاثاً لزوجته بدون أن تنكح زوجاً غيره، ويقولون بالإضافة إلى كل ذلك بالحلول والاتحاد والتناسخ إلى غير ذلك من الافتراءات على الشيعة التي لا وجود لها إلا في مخيلة الحاقدين عليهم من أعداء الشيعة والإسلام كالجيلاني وابن تيمية والجبهان وأمثال هؤلاء المشوهين في نفوسهم وتفكيرهم وإسلامهم، فالحلول والاتحاد والتناسخ والتشبيه والتجسيم وما إلى ذلك مما لا يجوز عليه سبحانه ولم يظهر إلا في أوساط بعض الأشاعرة والظاهرية وعامة الصوفية الذين ينتمون إلى المذاهب السنية، وأصحاب هذه المقالات كلهم من الكافرين بنظر الشيعة وأئمة الشيعة، وقد ألف علماء الشيعة منذ أقدم عصورهم حتى اليوم مئات الكتب حول هذه المواضيع وكلهم متفقون على تكفير الحلوليين والاتحاديين والقائلين بوحدة الوجود والمجسمة والمجبرة وغير ذلك مما لا يجوز عليه سبحانه.

كما وإن كتبهم الفقهية التي لا تحصى تعيد استقبال الكعبة في الصلاة

واعتداد المطلقة بثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر وعدم جواز الرجوع إليها بعد الطلاق الثالث حتى تنكح زوجاً غيره كما نص على ذلك القرآن واحترام دم المسلم وماله وعرضه بمجرد اعترافه بالوحدانية ونبوة محمد بن عبد الله من الضرورات الفقهية، والمنكر لشيء من ذلك بحكم الكافرين والحاقدين المرتدين عن الإسلام.

لذلك ولغيره مما وقفت عليه أخيراً مما ينسبه الحاقدون على الشيعة رأيت أن أُعيد النظر فيما كنت قد كتبته سابقاً عن معتقدات الشيعة فرجعت إلى الكتاب المذكور فغيرت فيه وبدلت وألغيت بعض مواضيعه وأضفت إليه نحواً من سبعين صفحة وقفت فيها طويلاً مع الملاحدة والماديين وعرضت جانباً من معتقدات الأُمم وأصحاب الأديان في البعث والمعاد والجنة والنار وما يتصل بهذه المواضيع. هذا بالإضافة إلى بعض المواضيع في الإمامة والصفات وغيرها بنحو أصبح الكتاب بمجموعه وكأنه جديد لم يخرج من المطبعة من قبل وقد سميته أُصول التشيع وهذا الاسم لا يختلف عن الأول إلا بالصيغة والشكل، وأرجو أن يكون كافياً لرد عدوان أُولئك الذين يلصقون التهم والأراجيف جزافاً وبلا وازع من ضمير أو إحساس بالمسؤولية ومنه سبحانه أستمد العون والسداد إنه قريب مجيب.

# مقدمة الطبعة الثانية

لقد كان من أبرز الدوافع لتأليف هذا الكتاب في حينه تلك التهم القاسية التي ألصقها المؤلفون من مستشرقين وشرقيين في الفرق والمعتقدات بالشيعة الإمامية وحاولت فيه الرد بهذا الاسلوب الذي هو أقرب إلى العرض والتبسيط على كل من حاول ويحاول الدس والتشويش وإلصاق البدع والخرافات بهم زوراً وبهتاناً.

بهذا الدافع عرضت معتقدات الشيعة الإمامية في أُصول الإسلام وغيرها التي نص على بعضها وألمح إلى البعض الآخر كتاب الله الكريم وأكدتها سنة نبيه العظيمﷺ بالإضافة إلى لمحات خاطفة عن تاريخ الأئمة الإثني عشر وأدلة الأحكام عند السنة والشيعة وغير ذلك من المواضيع التي لو ألم بها القارئ، لعرف أن الشيعة يقفون مع كتاب الله وسنة نبيه جنباً إلى جنب ويحتضنون ولاء أهل بيته الكرام وآراءهم بالمهج والأرواح، في حين أنهم تحملوا في سبيل ذلك من أعدائهم أسوأ أنواع التعذيب والتنكيل، وقذفوهم بالتهم والأباطيل ليطفئوا شعلة الحق. التي تجسدت في أقوالهم وآرائهم في مختلف المواضيع ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الحاقدون.

# مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

**والصلاة والسلام على محمد وآله الأطهار**

ليس للشيعة الإمامية عقيدة تختلف عما جاء به القرآن الكريم، ولا رأي في أصول الإسلام يخالف الضرورة من الدين، ولقد كتب علماؤهم وأكثروا عن عقائدهم في مختلف المناسبات، وأبطلوا جميع الشبه التي تخالف نصوص القرآن والسنة، وأعلنوا آراءهم في جميع المواضيع الإسلامية في الفروع والأُصول بصراحة لا تقبل التأويل والتشكيك، ومع ذلك فالكتّاب وبخاصة المستشرقين منهم إذا كتبوا عن الإسلام والمعتقدات يتعمدون الإساءة الى الشيعة ويلصقون بهم عيوب بعض الفرق التي تسترت بالولاء لأهل البيت عليهم السلام ويحملونهم أوزارها زوراً وبهتاناً.

ومن هؤلاء المستشرق (رونلدسن) الذي وضع كتاباً عن عقائد الشيعة أسماه عقيدة الشيعة الإمامية، ويظهر من الكتاب المذكور أن إقامته في العراق لم تتجاوز بضعة أيام معدودات صادفت مواسم الزيارات المتعارفة للنجف وكربلاء فاستغل تلك الحشود ودوّن مشاهداته وألصقها بالعقيدة الشيعية، في حين أن الطبقات العامة كثيراً ما تتعدى في أعمالها حدود العقيدة الإساسية عند جميع الأمم، ففي تلك اللمحة الخاطفة بين هاتين

المدينتين، وضع قسماً من كتابه، ووضع القسم الأكبر منه في المشهد الرضوي في إيران، بعد أن أقام بها ستة عشر عاماً قضاها في البحث والتنقيب عن معتقدات الشيعة على حد زعمه، وأكثر ما يعتمد على كتابي المجلسي رحمه الله بحار الأنوار وحياة القلوب، وعلى بعض الكتب التي لا يعتبرها الكثير من علماء الشيعة، ولا يعتمدون على رواياتها ومؤلفيها بالإضافة إلى جملة من المصادر، أصحابها منهم مسلمون من مذاهب شتى ومنهم غير مسلمين. لذلك جاء كتابه مثالاً للحشد والتلفيق والتشويش لعقائد فرقة من فرق المسلمين لا تقل عن أربعماية وعشرين مليوناً تنتشر في جميع أنحاء العالم، ما زالت تستمد عقائدها وتعاليمها من الرسول الأعظم والعترة الطاهرة منذ وجدت بذرة التشيع في فجر الإسلام إلى يومنا هذا، ومن استعرض الكتاب واطّلع على محتوياته لا يرتاب في أن المؤلف قد حاول الدس وإيقاع الفتنة بين المسلمين بشتى الأساليب وفي الوقت ذاته يحاول إظهارهم كأمة مختلفة في تفكيرها وجميع شؤونها لا تصلح لغير الاستغلال والاستثمار.

وحسبك شاهداً على ذلك ما ذكره في صفحة (٢٥٧) من كتابه، نقلاً عن كتاب سماه قاموس الإسلام، قال: «وللشيعة عيد في الثامن عشر من ذي الحجة، يضعون فيه ثلاثة تماثيل من العجين يملأون بطونها من العسل، وهي تمثل أبا بكر وعمر وعثمان، ثم يطعنونها بالمدى فيسيل منها العسل! تمثيلاً لأولئك الخلفاء الغاصبين ويسمى هذا العيد بعيد الغدير، وهو كما يقولون يوم نصب محمد علياً وصياً له في غدير خم وهو منزل بين مكة والمدينة».

إن نقله لهذه الاسطورة عن كتاب قاموس الإسلام، أكبر شاهد على ما ندعيه من الدس على الشيعة الإمامية، وبعث روح البغضاء والتفرقة بين المسلمين.

إن الشيعة يحتفلون في بعض العواصم الشيعية بذكرى هذا اليوم فيقف الخطيب والشاعر مرددين فضل علي وجهاده في سبيل الدعوة الإسلامية، وفضل من ساهم في بناء هذا الدين الإنساني الخالد من صحابة الرسول وغيرهم ممن آمنوا بالإسلام وأخلصوا في تطبيق مبادئه المقدسة وتعاليمه السامية.

ولقد أقام المؤلف ستة عشر عاماً في العواصم الشيعية وكانت أكثر إقامته في المشهد الرضوي، والشيعة في إيران أحرص من غيرهم على التمسك بعقائد الشيعة، ولو فرض وجود ذلك عند الشيعة، لكانت إيران في طليعة من يقوم بتلك التقاليد، فكيف خفي ذلك على المؤلف ولم يجعله من جملة مشاهداته في هذه المدة الطويلة والتجأ إلى نقله عن كتاب قاموس الإسلام؟ وعلى تقدير وجود شيء من هذا النوع قبل مئات السنين عند بعض المذاهب التي تنتمي إلى التشيع فلا صلة له بالعقائد التي تدين بها الإمامية، فما هو المسوغ لذكره وإعادته حياً في زمان قد تحرر من الأوهام والعادات الفاسدة التي كانت وليدة ظروف معينة؟

أجل إن المسوغ لذلك هو بعث هذه الروح السامة في نفوس المسلمين ليستغل أخصامهم ما ينتج عنها من نزاع وتناحر.

وإليك مثلاً آخر مما جاء في كتابه، زاعماً بأنه من جملة عقائد الشيعة اعتمد فيه على مشاهداته في كربلاء في الأيام المخصوصة لزيارة الحسين عليه السلام على حد زعمه.

قال: «إذا مات الشيعي فهو عظيم الحظ إن وضعت قلادة من الطين حول رقبته وخاتم من الطين في سبابته اليمنى، ومعضد من الطين حول كل من ذراعيه، وصرة من التراب الذي يكنس من القبر في يده اليمنى».

لقد قرأت هذا وأكثر منه حول التربة التي تصنع في مدينة كربلاء في

كتاب المؤلف، وأقمت في جامعة النجف خمسة عشر عاماً، وزرت كربلاء أكثر من خمسين مرة خلالها، ولم أسمع بما كتبه المؤلف مدة أقامتي في العراق، ولا أثر لذلك عند الشيعة ولا هو موجود في كتبهم، وكل ما في الأمر أن جماعة من سكان كربلاء يأخذون التراب بعد تجفيفه وتماسكه لأجل السجود عليه، ويستحسن عند الشيعة لهذه الغاية، لأنه من تراب أرض تبضع فيها لحم الحسين في سبيل الحق والعدالة والحرية، ويصح السجود عند الشيعة عليه وعلى غيره من التراب والأحجار والنبات، كما تنص على ذلك عشرات الكتب الشيعية.

وإليك مثلاً ثالثاً مما كتبه حول وفاة الحسن عليه السلام بعد أن سرد جملة من الأساطير لم تذكر في كتب التاريخ المعتمدة عند المسلمين.

قال: «وكان الحسن كلما سقي السم يذهب إلى قبر جده ويحتك بحجر من أحجار القبر فيذهب عنه السم، والشيعة تعد ذلك معجزة للحسن، وبعد هذا اضطربت أعصاب الحسن فقال لأصحابه إن صحته منذ سنوات عديدة لم تكن على ما يرام في المدينة، فقرر الذهاب إلى الموصل، وكان من أسباب ذلك رغبته في الابتعاد عن زوجته التي كان يخافها وصادف أن كان في الموصل رجل أعمى يكره الحسن فسمم رأس عكازته وجاءه يوماً يطلب صدقة، وكان الحسن جالساً متربعاً وإحدى رجليه على الأرض، فوضع الأعمى رأس عصاه على رجل الحسن وداسها بثقله وأعلن الأطباء أن العصا كانت مسمومة فسقوه بعض الأدوية ليشفى من ذلك».

وأحياناً ينقل المؤلف عن أئمة الشيعة أُموراً لا وجود لها في تاريخ الشيعة ولا في تاريخ غيرهم من المسلمين، ويعتمد في ذلك على بعض المستشرقين الذين يكتبون بما يوحيه إليهم الاستعمار وسماسرته، ولو كان المؤلف يحاول أن يأخذ صورة صحيحة عن الشيعة وعقائدهم لتم له ذلك

بأقل من الزمن الذي قضاه في المشهد الرضوي على شرط أن يتصل بعلماء الشيعة في إيران والعراق وغيرهما من الأقطار التي تضم الملايين من الشيعة، ولو فعل ذلك بإخلاص وتجرد لعرف أن تلك الكمية الهائلة من الخرافات والآراء الفاسدة لا يتعرف عليها الشيعة ولا صلة لها بعقائدهم.

وفي الوقت ذاته يأتي كتابه مثلاً كريماً للنزاهة والإخلاص والتجرد لخدمة الحقيقة والواقع.

لهذا ولغيره مما يحاك حول الشيعة من الافتراءات والدسائس بقصد التشنيع عليهم وضعت هذا الكتاب الذي يصور عقائد الشيعة الإمامية المستوحاة من كتاب الله الكريم وسنة نبيه واعتمدت على أوثق المصادر الشيعية وأغناها في المواضيع التي تناولها هذا الكتاب.

وأعترف بأني لست بأول من كتب حول هذا الموضوع، فلقد سبقني إليه عشرات الكتاب، ولكني لا أعرف كتاباً كان بهذا الموضوع بخصوصه، ولأمحصه التمحيص الذي يجب أن يكون، وأبادر إلى الاعتراف بأني قد أخطئ كما يخطئ أي إنسان غيري وأخضع للنقد والحساب إذا كانا بدافع الإخلاص للعلم وإحقاق الحق، ومنه سبحانه أستمد العون والتوفيق.

**المؤلف**

# تاريخ التشيع

الشيعة في اللغة هم الأتباع والأنصار، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، وهو من المشايعة والمتابعة وفي العرف العام أصبح التشيع علماً على من تولى علياً وبنيه وأقر بإمامتهم.

ولقد أكثر الكتاب في بدء التشيع لعلي عليه السلام، فبين من يقول أن التشيع تكوّن بعد وفاة الرسول، ومال آخرون إلى أن الفكرة تكونت يوم مقتل الخليفة الثالث عثمان، ويذهب البعض من الكتاب إلى أنها تكونت أيام فتنة طلحة والزبير في البصرة، ورجح فريق بأن التشيع نشأ بعد علم الجماعة واتسع نتيجة للهجوم الموجه على العلويين في عهد معاوية ومن جاء بعده إلى غير ذلك من الأقوال. وبعد أن بينا المعنى المراد من هذا اللفظ والذي أصبح علماً عليه، لم يبق مجال للريب في أن فكرة التشيع قد تكونت قبل هذه الأزمنة التي حددها أكثر الكتاب وأنها رافقت فجر الإسلام يوم كان النبي صلى الله عليه وآله يغذي بأقواله فكرة التشيع لعلي عليه السلام، ويمكنها في أذهان المسلمين ويأمر بها في مواطن كثيرة على اختلاف المناسبات.

وأول ما بدأ بها في مكة المكرمة، يوم الله نزل عليه: وأنذر عشيرتك الأقربين. فجمع النبي عند ذلك بني هاشم وأنذرهم كما أمره ربه ثم قال:

أيكم يؤازرني ليكون أخي ووارثي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي؟ فلم يجبه أحد إلى ما أراد غير علي عليه السلام. فقال هذا أخي ووارثي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي. فكانت هذه الحادثة البذرة الأولى التي بذرها في تكوين فكرة التشيع لعلي عليه السلام، واستمر طيلة حياته الشريفة يغذيها بأقواله وأفعاله ويمكنها في نفوس المسلمين إلى أن كانت حجة الوداع في السنة العاشرة من هجرته، أمره الله سبحانه بأن يعلن استخلافه من بعده ونزلت الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

وقد نص جماعة من المفسرين منهم الرازي في تفسيره أنها نزلت في فضل علي ابن أبي طالب، ولما نزلت أخذ رسول الله بيد علي عليه السلام وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه.

فلقيه عمر بن الخطاب وقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس، والبراء بن عازب، ومحمد بن علي عليهما السلام.

ففي ذلك اليوم، وفي تلك الصحراء وقف النبي خطيباً في حشد من المسلمين، لم يتفق أن تيسر له قبل ذلك، ضم الأعيان والرؤساء ووجوه المسلمين من مختلف الجهات وأعلن استخلافه في تلك الصحراء المقفرة قبل أن يتفرق الناس ويأخذ كل منهم طريقه إلى بلده فتكامل نمو تلك الفكرة التي كان يحرص على غرسها بين المسلمين، منذ بدأ يدعو الناس إلى عبادة ربه الكريم والتحرر من عبادة الأصنام ونبذ الشهوات والأهواء.

وقبل الدخول في الناحية التي نريد بحثها، لا بد من بيان وجهة نظر الطائفة الشيعية في الخلافة الإسلامية، التي هي الأساس في تكوين عقيدة التشيع، وهي النقطة الوحيدة التي يرتكز عليها النزاع القائم بين المسلمين

قديماً وحديثاً، ولا نريد أن نستوعب الموضوع من جميع نواحيه، ففي كتب الشيعة التي تعد بالمئات كفاية لمن أراد أن يتبسط في الموضوع ويستوعبه من جميع نواحيه لاسيما إذا كان متحرراً من النزعات والأحقاد الموروثة وكان باستطاعته أن يحيط بجميع العوامل والاعتبارات التي صبغت الخلافة الإسلامية بألوانها، وتركتها مسرحاً لآراء الباحثين وبالتالي غنيمة لمن يريد أن يجني لنفسه من وراء هذا التناحر اشهى ما لذ له وطاب.

# لمحات من الخلافة بعد وفاة الرسول ومواقف الشيعة منها

كانت الخلافة الإسلامية ولا تزال تشغل تفكير الملايين من المسلمين منذ أن انتقل الرسول إلى ربه حتى الزمن الذي نعيش فيه، وستبقى جزءاً من حياتهم إلى حيث يشاء الله.

وللشيعة رأي فيها يرتكز على طبيعة المبادئ الإسلامية والتشريعات المستوحاة من الكتاب والسنة.

فالباحث في تاريخ الدعوة ومبادئها يرى أن الإسلام قد أعلن حرباً لا هوادة فيها على التفوق السلالي والعنصري والقبلية، ونادى بإلغاء هذه الفوارق في مواطن كثيرة، وجعل ميزان التفاضل منحصراً في التقوى والأعمال الصالحة، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، الناس لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وكان كل همه تطبيق مبادئه على العالم بأسره ليجمع بني الإنسان تحت لواء واحد وفي صعيد واحد، الإيمان بالله والإقرار برسالته المقدسة الداعية إلى الإخاء والمساواة، والتضحية في سبيل الحق، والعمل لخير الإنسان، ليحرر الأرواح من طغيان المادة، ويطهر القلوب من سيطرة الشهوات.

وبذلك استطاع أن ينشر ألويته على الآفاق ويقطع تلك المسافات البعيدة الواسعة في سنوات معدودات وأصبحت الدنيا على اتساعها تضيق عن همته وتعتز بمبادئه، ولم يكن من همه أن ينشر على العالم نفوذاً سياسياً، ولا أن يضم إلى البقعة التي وجد فيها بقعة أخرى من بقاع الدنيا، لتكون له دولة ذات حدود واسعة تستمد هيبتها مما تدخره من عتاد، وما تحشده من كتائب وأجناد، إنما الذي كان يهدف إليه ويهمه، هو الإيمان برسالته، لأنها وحدها السلاح القاطع الذي يستطيع المسلمون بواسطتها بسط سلطانهم على الدنيا الضالة، لأنها سلاح من عند الله سبحانه، غرس نواتها محمد ﷺ في إبان دعوته في قلوب حفنة من المؤمنين، وغذاها بجهاده المتواصل حتى مكنها من نفوسهم على مدى الأعوام، فلم تهن روحه لقوي متحكم ولم يشتر منهم أمنه وراحته بعطية يلقيها إلى شهواتهم، بل أذاب من روحه الطاهرة ليهدي العصاة وعرض نفسه لأقسى ما يتصور من الأذى، ليحرر الإنسان من عبادة الشهوات والأهواء، ساومه المشركون ليكون له السلطان عليهم ويرجع عن دعوته بعد أن فشلوا في أساليب التعذيب التي لجأوا إليها معه ومع المؤمنين من أتباعه فرجعوا خائبين خاسرين وقال لعمه كلمته الخالدة: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر. فلم يكن يفكر أن يمتلك الرقاب والبقاع لتصبح تحت سلطانه، ولا لتهتف له وتصفق بل كان يفكر ويخطط لتصبح العقول والأرواح مملوكة لتعاليمه، أسيرة لمبادئ القرآن.

تلك المبادئ التي أراد الله لها البقاء، وكتب على الإنسان أن يتخذها السبيل إلى معاشه ومعاده، واحتاط لها مؤسسها الحيطة الكاملة، التي تساعد على حفظها واتصالها بالقلوب والنفوس، كي لا تصبح عرضة للأخطار ومسرحاً للشهوات والأهواء، فوضعها بيد أمين لازمه من طفولته فرباه كما يريده لأمته وأمضى معه طوال حياته يستلهم من سيرته وسنته وقرآنه ما لم يتيسر

لأحد سواه ولم يترك الأمر للأمة لتختار لنفسها من ترتضيه لإدارة شؤونها ونشر تعاليم الإسلام لاسيما وأن الإمام يحتل مركز النبي ويجب أن تتوفر فيه أكثر مواهب النبي وصفاته، وأن يكون أفضل الرعية من جميع نواحيه، ولو اخلصت الشعوب في اختيارها وتجردت من النزعات والأهواء لما استطاعت أن تحيط بتلك المواهب التي يجب أن تتوفر في الحافظ للشريعة والقيم على شؤونِ الأمة، والمكلف بتنفيذ الأحكام وتطبيق المبادئ.

وإذا وقع الاختيار على غير الكفء تصبح تلك المبادئ في معرض الخطر وتكون مهددة بالزوال، لاسيما أنها كانت يوم وفاة الرسول ﷺ، بعيدة عن نفوس الكثيرين ممن دخلوا في الإسلام وغريبة عما توارثوه من أسلافهم من العادات والتقاليد التي امتزجت بطبيعتهم وأصبحت جزءاً من حياتهم فما أقربهم من الانقلاب على الأوضاع الجديدة إذا وجدوا الفرصة لذلك، لهذا ولغيره كان لا بد للحافظ لتلك المبادئ أن يؤمن الخلف من بعده، ولا يتركه لاختيار الشعب الذي يندفع مع أهوائه ومصالحه وشهواته، ويكثر منه الخطأ في أكثر الأوقات، ولقد كانت الظروف المحيطة بالإسلام في العام الذي انتقل به النبي ﷺ إلى ربه تشكل خطراً على الإسلام أشبه بالظروف التي أحاطت به يوم بدأ يدعو الناس إلى عبادة الله، فلقد ظهر مسيلمة الكذاب والأسود العنسي، والنبي لا يزال حياً، والقبائل العربية لم يكن إسلامها بشكل واحد، فالكثير منها أسلم اندفاعاً مع التيار الإسلامي الجديد، ونرى في بعض الأسر القرشية من أعلنَ الإسلام وأضمر من ورائه شركه وحقده، كما ذكر جماعة من المؤرخين عن أبي سفيان زعيم الأسرة الأموية، فقد دخل الإسلام عام الفتح، وأمَّن النبي عليه الصلاة والسلام كل من دخل بيته، وأفاض عليه من عفوه وكرمه فوق ما يتصوره إنسان من إنسان، ومع ذلك فقد دخل المسجد يوم بويع الخليفة الثالث وهو يحسب أنه خال من غير أسرة الخليفة وحاشيته وقال: تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة،

فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من جنة ولا نار، ولا حساب ولا عقاب؛ وحاول مرات عديدة إيقاع الفتنة بين المسلمين كان أبرزها يوم عرض نفسه على علي عليه السلام يمنيه النصر إن هو أعلن حرباً على الصديق بعد أن بايعه الكثير من الناس، ولكن علياً الحريص على مبادئ الإسلام لم يفته غرض أبي سفيان، فقال له: والله إنك ما أردت بها إلا الفتنة، وإنك طالما بغيت للإسلام شراً. وأمثاله كثيرون كانوا على استعداد للاندفاع في وجه الدعوة حين تساعد الظروف على ذلك، وتاريخ حروب الردة أكبر شاهد على ما ندعيه، في حين أن الدولتين الرومانية والفارسية كانتا تناصبان الإسلام أشد العداء، وقد بدأهما النبي صلى الله عليه وآله الحرب في حياته، فجهز جيشاً إلى الرومان قتل فيه جمع من أعيان المسلمين؛ منهم القواد الثلاثة جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وزيد بن حارثة. وقبيل وفاته كان يجهز جيشاً من المسلمين ضم الوجوه من صحابة النبي بقيادة أسامة بن زيد، وتوفي وهو يشدد القول على من يتخلف عن هذا الجيش، هذا بالإضافة إلى الأخطار التي كانت تهدد دعوته في داخل عاصمته وما حولها عن طريق المنافقين الذين تستروا بالإسلام بعد أن عجزوا عن مقاومة تلك الدعوة بقوة السلاح فأخذوا يعملون في جو من السرية للإطاحة برسالة محمد ولو عن طريق اغتياله كما حاولوا ذلك أكثر من مرة. ولولا أن القرآن الكريم كان يفضحهم في محاولاتهم لتم لهم ما يريدون، وحسبك شاهداً على ذلك سورة براءة وحدها التي أنزلها الله على رسوله بهذه المناسبات، وسميت بالفاضحة لأنها فضحتهم وكشفت عن واقع أمرهم، وإذا كانت الظروف المحيطة بالإسلام بهذا الشكل المخيف، فهل يكون من الحكمة أن يترك النبي أمته ومبادئه والأخطار محدقة بدعوته في البلاد وخارجها بدون خلف له يكون أقدر أتباعه وأقواهم على تحمل المسؤوليات، وأنفذهم بصيرة وأعلمهم بتطبيق تلك المبادئ التي أرادها الله أن تكون دستوراً يرجع إليها الإنسان في

دنياه وآخرته، حاشا لله وهو اللطيف بعباده، العليم بما أحاط بهم من بلاء، والخبير بما فطر عليه الإنسان من أهواء وشهوات، أن يترك الأمر فوضى والأمة تتقاذفها الميول والأغراض، ويرحل نبيه عن دنياه بدون أن يعين للناس إماماً أميناً على شريعته، حريصاً على تمكين تلك المبادئ المقدسة في النفوس. بعد أن بلغها الرسول، وتحمل في سبيلها أقصى ما يتصور من الألم والعذاب.

وهذه الاعتبارات ليست وحدها هي الدليل على وجوب نصب الإمام الذي يخلف النبي بعد وفاته، وإنما يعتمدون في ذلك على أدلة كثيرة، ومن جملتها الأدلة التي تقضي بوجوب إرسال الأنبياء، ومنها قاعدة اللطف، لأن نصب الإمام لطف من الله في حق عباده لأنه يقربهم من الطاعة بإرشادهم إليها، ويبعدهم عن المعصية بالنهي عنها والتخويف من عواقبها، واللطف واجب منه سبحانه بمقتضى رأفته وعطفه على عباده فيكون تعيين الإمام واجباً، ولهم على ذلك أدلة أخرى ذكرها علماء الأمامية في جميع كتبهم التي تعرضت لبحث الإمامة.

والإمام المنصوب خلفاً لصاحب الرسالة عند الشيعة الإمامية هو علي عليه السلام، ويستدلون على ذلك ببعض الآيات الكريمة الواردة في الكتاب، وبطائفة من الأحاديث الصحيحة بلغت حد التواتر ورواها الفريقان من السنة والشيعة، بعضها يدل بظاهره وبعضها نص فيما يذهب إليه الإمامية من كونه صاحب الحق الشرعي.

إن فكرة التشيع ليست وليدة التطورات السياسية كما يذهب إلى ذلك صاحب كتاب عقيدة الشيعة، حيث يرجح أن هناك دسائس خفية كان لها اليد الطولى في دعوة الحق الإلهي، وأن عبد الله بن سبأ تنقل في البلاد الإسلامية إلى أن استقر أخيراً في مصر، وفيها قام بدور رئيسي في المؤامرة

لمصلحة علي، وأعلن أن من تقدمه من الخلفاء كان غاصباً لحقه الشرعي.

ونحن بدورنا نعتقد بأن الباحث المجرد ينتهي به البحث لا محالة إلى أن دعوى الحق الشرعي لا صلة لها بجميع التطورات السياسية التي حدثت بعد موت النبي ﷺ إلى الأزمنة الأخيرة، وإنما كانت وليدة النصوص الكثيرة، بالإضافة إلى اجتباء النبي إياه على جميع طبقات المسلمين واختصاصه به في خلواته، وإسناد المهمات الكبار إليه كالقيادة والإستخلاف في موضعه وحنوه وعطفه البالغين عليه، حتى أصبح حبه بنظر المسلمين إيماناً، وبغضه نفاقاً، ولقد قال أبو سعيد الخدري: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله إلا ببغض علي بن أبي طالب.

لذلك فقد توقف جمع من أعيان المسلمين عن بيعة أبي بكر وتمسكوا بالنصوص الكثيرة على خلافة علي عليه السلام، ومن هؤلاء جميع بني هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب، ومن غيرهم الزبير والمقداد وأبو ذر وسلمان وخزيمة ذو الشهادتين وهاشم بن عتبة وحجر بن عدي وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم، ومنهم شاعر النبي حسان بن ثابت الذي يقول:

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخم واسمع بالنبي مناديا
وقال فمن مولاكم ووليكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا ... ومالك منا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا علي فإنني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

وهؤلاء قالوا بهذه المقالة، قبل أن يكون لعبد الله بن سبأ ذكر في تاريخ الإسلام، وقبل وجوده المزعوم بأكثر من عشرين عاماً، وهناك من ينكر أصل وجوده ويدعي أنه من الشخصيات الوهمية، كما يذهب إلى ذلك جماعة من الكتاب وتؤكده الدراسات العلمية[1].

---

(١) أُنظر عبد الله بن سبأ للسيد مرتضى العسكري.

# أمثلة في النصوص التي تشير إلى استخلاف علي عليه السلام

إن الشيعة كما ذكرنا يدعون النصوص الكثيرة على استخلاف علي عليه السلام من الكتاب والسنة ونحن نذكر طائفة من الأحاديث التي تكاد أن تكون صريحة فما ندعيه، ونذكر أولاً بعض الآيات الكريمة التي يعتمدون عليها في مباحث الإمامة.

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾.

لقد اتفق المحدثون والمفسرون من العامة والخاصة أنها نزلت في علي عليه السلام حين تصدق بخاتمه على المسكين وهو راكع في صلاته، وجاء في كتاب كشف الحق للعلامة، أجمعوا على نزولها بعلي، وهو مذكور في الصحاح الستة، وفي كتاب الحق اليقين للسيد عبد الله شبَّر اتفاق المفسرين والمحدثين أنها نزلت في علي عليه السلام وممن نص على أن الآية نزلت في علي عليه السلام من المفسرين الرازي والسيوطي والزمخشري والبيضاوي والسدي ومجاهد والحسن البصري وغيرهم. وفي المراجعات للسيد عبد الحسين

شرف الدين عن القوشجي، في شرح التجريد إجماع المفسرين على نزولها بعلي عليه السلام، وفي الباب الثامن عشر من غاية المرام، أحاديث كثيرة من طريق السنة أنها نزلت في علي عليه السلام، وجاء في المراجعات عن تفسير الإمام أبي إسحاق النيسابوري الثعلبي في تفسيره الكبير، بالإسناد إلى أبي ذر الغفاري قال: سمعت رسول الله بهاتين وإلاَّ صُمّتا ورأيته بهاتين وإلاَّ عُمّيتا يقول علي قائد البررة، وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله. إني صليت مع رسول الله ذات يوم، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً، وكان علي راكعاً فأومأ بخنصره إليه. وكان يتختم بها، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، ثم ذكر أبو ذر ما كان من رسول الله من التضرع والدعاء وقال فوالله: ما استتم رسول الله كلامه حتى هبط عليه الأمين جبرائيل بهذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

ويكاد المتتبع لكتب الحديث والتفسير يقطع في أنها نزلت بعلي في تلك المناسبة.

فالآية الكريمة تثبت الولاية لعلي عليه السلام لعدم وجود هذه الصفات في غيره، ولأنها جعلت الولاية لمن تصدق وهو راكع بعد أن سأل النبي ربه أن يجعل له وزيراً من أهله، كما جعل ذلك لموسى بن عمران عليه السلام، والولاية المجعولة في المقام هي من نوع ولاية الله ورسوله، وإن كانت تصدق على الناصر والمحب وغيرهما لغة، إلاَّ أنهما غير منحصرين بمن ذكرت له الآية هذه الأوصاف، بل هما عامان لجميع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

فحصر الولاية في الثلاثة كما هو المستفاد من إدارة الحصر، يقتضي كون الولاية للجميع بمعنى واحد، وهي أحقية التصرف والسلطنة العامة فيما يتعلق بشأن الدين والدنيا.

ومجمع القول في فقه الآية هو أن الله سبحانه قد جعل الولاية لله وللرسول، ولمن تصدق في حال ركوعه ولازم الحصر المستفاد من أداته هو كون الولاية للجميع بمعنى واحد، وحملها على غير هذا المعنى لا يتفق والحصر المذكور لثبوتها والحال ذلك لجميع المؤمنين فلا تبقى فائدة في الحصر المذكور.

والإيمان في الآية الكريمة، ليس علة في ثبوت الولاية لعلي عليه السلام، حتى تكون الولاية لكل من اتصف بالإيمان كما هو الحال في جميع علل التشريع، كما قد يتوهم من ذكر هذه الأوصاف في الآية الكريمة، إذ لو كان علة لثبتت الولاية لكل من اتصف بالإيمان، وينتج من ذلك التفكيك بين ولاية الله والرسول وولاية المؤمنين المتصدقين في ركوعهم.

ذلك لأن الظاهر من الآية الكريمة أن الإيمان فيها كان للإشارة إلى الموضوع الخارجي، فهي كسائر القضايا الخارجية التي يكون الوصف فيها معرفاً عن الموضوع ومشيراً إليه، لأن الولاية التي ثبتت للذين آمنوا هي من سنخ ولاية الله والرسول، ولا شبهة في عدم مدخلية الإيمان في ثبوت الولاية لهما، فالقضية في المقام أشبه ما تكون بقولنا هذا الجالس يجب إكرامه، وهذا العالم يجب تعظيمه فليس الوصف في هاتين القضيتين علة للحكم، وإلا لوجب إكرام كل جالس وتعظيم كل عالم، وإنما أُتي بهما للإشارة إلى الموضوع الخارجي، وتمييزه عن غيره من بقية الأفراد، وهكذا الكلام بالنسبة إلى بقية الأوصاف التي اشتملت عليها الآية الكريمة، فولاية الوصي عين ولاية النبي ولا بد أن يكون سببها شيء آخر وراء هذه الصفات التي يتصف بها الكثير من الناس، وهو ما أحاطت به العظمة الإلهية من أسرار نفسية، وفضائل قد احتشدت في صاحب هذا الإمتياز الإلهي لا يشاركه فيها أحد من أفراد الأمة. فالآية بهذا الأُسلوب أشبه ما تكون بالنص

الصريح على توليته أمر الأمة بالشكل الذي ثبت للنبي من قبله.

ولا ينافي ذلك الإتيان بصيغة الجمع في الصفات التي تعرف عن صاحب هذا الامتياز، كما ورد في الآية الكريمة حيث قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ لأن ذلك قد ورد كثيراً في كلام العرب، وفي القرآن الكريم أيضاً للتفخيم والتعظيم، كما ذكر ذلك في مجمع البيان، وفي كتاب الحق اليقين أن لفظ الجمع إما لتعظيم أو لشمول ذلك لسائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وقد ورد التعبير عن المفرد بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾: ففي المراجعات لقد اجتمع المؤرخون والمفسرون أن القائل نعيم بن مسعود الأشجعي وحده وأطلق الله سبحانه عليه لفظ الناس وهو مفرد.

وحاصل النكتة في التعبير عن الواحد بلفظ الناس، هو أن أبا سفيان أعطى نعيم بن مسعود عشراً من الإبل على أن يخوف المسلمين من المشركين، فكره أكثر المسلمين الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله بسبب إرجافه، وخرج النبي صلى الله عليه وآله في سبعين فارساً من المسلمين ورجعوا سالمين، فنزلت الآية في مقام الثناء والمدح لمن خرج مع النبي، وجاء التعبير بلفظ الجمع لأنه أبلغ في مقام الثناء عليهم من لفظ المفرد الذي لا يكون له أثر في النفوس غالباً، وفي المراجعات أن التعبير عن المفرد بصيغة الجمع ورد في هذه الآية أيضاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾. ونقل عن المحدثين وأهل الأخبار والمفسرين أن الذي بسط يده رجل واحد من بني محارب وقيل من بني النضير.

وذكر الزمخشري في كشافه كما نقل عنه في المراجعات، أن النكتة في التعبير بلفظ الجمع هو ترغيب الناس بذلك العمل، والاهتمام بشأن الفقراء

والإحسان إليهم، ليرغب الناس في مثله بعد أن استحق صاحبه ذلك الجزاء الرفيع والمنزلة العالية.

ومهما يكن الأمر فالآية الكريمة بعد الاتفاق على نزولها في علي عليه السلام كما أجمعت عليه الأحاديث الصحيحة من طريق أهل السنّة والشيعة، واشتمالها على كلمة الحصر التي يستفاد منها نفي الولاية عن غير الثلاثة المذكورين فيها، تدل دلالة لا تقبل الريب على أن الولاية المجعولة لعلي هي من سنخ ولاية الله والرسول لأن الولاية ببقية معانيها لا تنحصر في الثلاثة كما دلت على ذلك الآيات الكثيرة.

ولقد أضاف إليها علماؤنا جملة من الآيات الدالة على ولايته أمر الأمة بعد النبي، بملاحظة ما ورد من الأحاديث في تفسيرها وأسباب نزولها.

منها قوله تعالى في سورة المائدة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾.

فلقد ذكر جماعة من المفسرين منهم الطبرسي في مجمع البيان عن تفسير العياشي، بإسناده عن ابن عباس وجابر بن عبد الله أنهما قالا: أمر الله محمداً صلى الله عليه وآله أن ينصب علياً إماماً للناس من بعده فتخوف رسول الله أن يقولوا حابى ابن عمه، ويطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه هذه الآية، فقام بتوليته أمر الأمة يوم غدير خم. قال في مجمع البيان وهذا الخبر بعينه قد حدثناه السيد أبو الحمد، عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني، بإسناده عن ابن عمير، في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفصيل والتأويل. وفي مجمع البيان ما لفظه: وقد أورد هذا الخبر بعينه أبو اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي في تفسيره، مرفوعاً إلى ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في علي عليه السلام، وأمر النبي أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله بيد علي عليه السلام، وقال من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه، وقد اشتهرت

الرواية عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام أن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله إليه هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه، والمقصود منها أنك إذا تركت تبليغ ما أنزل إليك من ربك وكتمته، كأنك لم تبلغ شيئاً من رسالات ربك.

ومما لا ريب فيه أن الآية الكريمة، بعد ملاحظة ما ورد في تفسيرها وأسباب نزولها، كما ورد من طرق الشيعة وغيرهم، تدل دلالة واضحة أن الله سبحانه أمر نبيه أن يعين خلفاً له يقوم بالأمر من بعده، ولم يترك دينه الذي يساير الحياة ويعيش مع الزمن، بدون حافظ لمبادئه عليم بأسراره وغوامضه، لا ينجرف مع أهوائه ولا مع ميوله ونزعاته، لا تغريه عظمة السلطان ولا ترهبه سطوة الحاكم.

والآية الكريمة وإن لم تشتمل على ذكر علي وخلافته باللفظ الصريح إلا أن الحافظين لأسباب نزول آيات الكتاب من صحابة النبي وأئمة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وجعلهم ملجأ للأمة وسبيلاً إلى النجاة من الهلكة، ذكروا السبب في نزولها وأوضحوا المراد منها.

ولما هدده الله سبحانه بقوله: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس، لم يجد بداً من إصدار ذلك البلاغ العام بعد رجوعه من الحجة الأخيرة في حشد من المسلمين وعلى مفترق الطرق قبل أن يتفرق الناس ويذهب كل إلى وطنه.

وهناك آيات كثيرة يستدل بها الشيعة على أن النبي قد استخلف علياً بأمر من ربه بملاحظة ما ورد في تفسيرها وأسباب نزولها من طريق إخوانهم أهل السنة ومن طريق أئمتهم الذين لا ينطقون إلا بلسان جدهم الأعظم صاحب الرسالة.

ونحن في كتابنا هذا نكتفي بهاتين الآيتين، ونمر ببعض الأحاديث المتفق على صحتها عند الفريقين، لنرى مقدار دلالتها على ما يدعيه الشيعة.

ففي الحق اليقين عن أحمد بن حنبل في مسنده، أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ جمع النبيﷺ من أهل بيته ثلاثين فأكلوا وشربوا ثلاثاً، ثم قال: من يقضي عني ديني ومواعيدي ويكون خليفتي وهو معي في الجنة؟ فقال علي عليه السلام أنا يا رسول الله! فقالﷺ أنت. قال ورواه الثعلبي في تفسيره بعد ثلاث مرات، في كل مرة يسكت القوم غير علي عليه السلام، وذكر في حاشية الكتاب المذكور هذه الرواية عن كتاب كنز العمال جلد ٦ صفحة ٣٩٧، وتاريخ الطبري جلد ٢ صفحة ٢١٧ وكامل ابن الأثير جلد ٢ صفحة ٣٤ وفي شرح النهج عن أبي جعفر الاسكافي أنه قال: وروي في الخبر الصحيح أنه كلفه، يريد بذلك أن النبي كلف علياً في بدء الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة، أن يصنع له طعاماً، وأن يدعو له بني عبد المطلب، فصنع له الطعام ودعاهم له فخرجوا ذلك اليوم ولم ينذرهم لكلمة قالها عمه أبو لهب فكلفه اليوم الثاني أن يصنع مثل ذلك الطعام ويدعو قومه ثانية، فصنعه ودعاهم فأكلوا، ثم كلمهم ودعاهم إلى الدين، ودعاه معهم لأنه من بني عبد المطلب، ثم ضمن لمن يؤازره منهم وينصره على دعوته أن يجعله أخاه في الدين ووصيه بعد موته وخليفته من بعده، فأمسكوا كلهم وأجابه هو وحده، وقال أنا أنصرك على ما جئت به، وأؤازرك وأبايعك، فقال لهم لما رأى منهم الخذلان ومنه النصر، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة، هذا أخي ووصيي وخليفتي من بعدي فقاموا يسخرون ويضحكون، ويقولون لأبي طالب أطع إبنك فلقد أمره عليك. وفي مجمع البيان قال واشتهرت القصة عند الخاص والعام، ثم ذكر القصة التي نقلناها، وفي المجمع روي عن أبي رافع هذه القصة وأنه جمعهم في الشعب وصنع لهم رجل شاة فأكلوا بأجمعهم، وسقاهم عساً فشربوا كلهم، ثم قال:

إن الله أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم عشيرتي ورهطي، وأن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة، فأيكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثي ووزيري ووصيي، ويكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، فسكت القوم فقال ليقومن قائمكم ثم لتندمن، ثم أعاد الكلام ثلاث مرات، فقام علي فبايعه وأجابه، ونقل جماعة الحديث المذكور بما يقرب مما ذكرناه عن عدد كبير من أعيان المفسرين والمحدثين من إخواننا أهل السنة.

وفي الحديث الشريف دلالة على أن النبي ﷺ قد هيأ علياً لهذا المنصب منذ بدأ يدعو الناس إلى عبادة الله، وإذا أضفنا اشتهار الحديث إلى اتفاق المفسرين للآية الكريمة يحصل لنا الاطمئنان بصدور ذلك عن النبي ﷺ واختلاف بعض الرواة في بعض نواحي القصة المذكورة، لا يضر في المقام بعد اتفاقهم على الناحية التي نتحدث عنها.

ومن النصوص المتفق عليها بين الفريقين قوله ﷺ أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، رواه مسلم والبخاري والترمذي وغيرهم واعترف ابن حجر وغيره بصحته. وقد ورد هذا الحديث بمناسبات كثيرة، منها أن رسول الله خرج في غزوة تبوك، وخرج الناس معه فقال له علي أخرج معك يا رسول الله؟ قال لا فبكى علي عليه السلام، فقال له رسول الله أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي.

وقد روى الحديث جماعة غيرهم من أعيان المحدثين بتفاوت لا يضر بالمقصود، منهم الإمام أحمد بن حنبل في كتاب مناقب علي عليه السلام، والطبراني وابن عساكر في تاريخه والبارودي وابن عدي، واشتمل على كيفية المؤاخاة وفي آخره قال علي يا رسول الله ذهب روحي وانقطع ظهري

حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيري، فإن كان هذا من سخط علي فلك العتبى والكرامة، فقال رسول الله ﷺ والذي بعثني بالحق ما أخرتك إلا لنفسي، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وأنت أخي ووارثي.

وفي غاية المرام قال الباب العشرون قول النبي لعلي عليه السلام: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي من طريق العامة وفيه مائة حديث، ثم استطرد في ذكرها بأسانيدها الموجودة في كتبهم وصحاحهم، إلى أن قال الثالث والأربعون بعد أن ذكر سند الحديث المتصل بأنس لما كان يوم المباهلة آخى النبي بين المهاجرين وعلي واقف يراه ويعرف مكانه، فلم يؤاخ بينه وبين أحد، وانصرف علي باكي العين، فافتقده النبي وقال ما فعل أبو الحسن؟ قالوا انصرف باكي العين يا رسول الله فقال النبي لبلال إذهب وأتني به، فمضى بلال إلى علي عليه السلام وقد دخل منزله وفاطمة تقول ما يبكيك يا أبا الحسن؟ لا أبكى الله عينك، قال يا فاطمة آخى النبي بين أصحابه وأنا واقف لم يؤاخ بيني وبين أحد، قالت لعله ادخرك لنفسه، ثم استدعاه بلال فأتى النبي ﷺ فقال له إنما ادخرتك لنفسي، ألا يسرك أن تكون أخا نبيك، قال بلى يا رسول الله، أنى لي بذلك، فأخذ بيده وأرقاه المنبر ثم قال اللهم هذا مني وأنا منه، ألا إنه مني بمنزلة هارون من موسى، ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه، قال فانصرف علي قرير العين فاتبعه عمر بن الخطاب فقال بخ بخ يا أبا الحسن أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، وهذه الزيادة موجودة في الحديث الحادي والأربعين، وفي بعضها كما في غاية المرام لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي، وفي حديث السبعين كما في الكتاب المذكور، أنت بابي الذي منه أوتى وخليفتي من بعدي.

ومجمل القول أن الحديث المذكور على اختلاف طرقه وكثرة أسانيده،

قد اعترف بصحته الأعلام من الفريقين ورويته الصحاح وغيرها، وإذا لاحظنا متن الحديث، وصدوره من النبي في مختلف المناسبات واشتماله على الفقرات المختلفة من قوله ﷺ أنت خليفتي، ومن كنت مولاه فعلي مولاه، وعلي وليكم بعدي، وأمثال ذلك من الفقرات التي تدل على أنه في مقام جعل الولاية العامة له من بعده، وأن الحديث الشريف لم يكن حينما خرج في غزوة تبوك خاصة لينصرف إلى استخلافه على المدينة ما دام النبي غائباً عنها في غزوته تلك، كما استخلف موسى أخاه هارون حينما ذهب لمناجاة ربه كما رجح جماعة من محدثي السنة. والسر في ذلك هو أن الحديث قاله النبي لمناسبات كثيرة وعقبه بقوله أنت خليفتي، وأمثالها مما يدل على الخلافة العامة واستثناء النبوة، كما جاء في الحديث، ظاهر في أن جميع المنازل التي كانت لهارون من موسى هي لعلي عليه السلام بكاملها ومن منازل هارون كونه. خليفة لموسى كما حكاه الله سبحانه في كتابه حيث قال: اخلفني في قومي، وبعد أن كانت الخلافة ثابتة لهارون لا بد وأن نقول بثبوتها لعلي بعد النبي، وإلا كان من اللازم استثناؤها كما استثنى النبوة لأي إنسان من بعده، وقضية الاستثناء تقتضي العموم في المستثنى منه، كما وأن استثناء النبوة بعد وفاته من تلك المنزلة التي أعطاها النبي ﷺ لعلي عليه السلام يدل على أن الثابت لهارون ثابت لعلي في جميع الأزمنة، حتى بعد وفاة الرسول، وإلا لم يكن للاستثناء معنى محصلاً لأن العام الإفرادي لا بد وأن يستتبع عموماً زمانياً، إما بالتنصيص كما إذا قال القائل أكرم العلماء في كل زمان، أو بالإطلاق بمعونة مقدمات الحكمة؛ فإذا ورد الخاص، وأخرج فرداً من العام، في زمان خاص أو جميع الأزمنة، يبقى العام على حجيته وظهوره في أفراد العام، وما نحن فيه قوله ﷺ «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» قضية لها عمومها الزماني والافرادي، ولولا الاستثناء لثبتت لعلي عليه السلام بمقتضاها جميع المنازل التي كانت لهارون من أخيه موسى في

جميع الأزمنة حتى بعد وفاته ولكن استثناء النبوة من بعده يعين المراد من العام، ويكشف عن ظهوره في جميع الأفراد، ويسقط عن الظهور في الفرد الخارج عنه وهو النبوة، ويبقى حجة في كل ما كان لهارون من موسى من الوزارة والخلافة ووجوب طاعته في حياة النبي وبعدها حيث كان العام ظاهراً في جميع ما كان لهارون حتى النبوة.

فحديث المنزلة بعد التأمل فيه، وفهمه فهماً صحيحاً يكفي لإثبات الوصية والخلافة، لاسيما وأنه لم يصدر منه ﷺ لمناسبة واحدة بل صدر منه بمناسبات كثيرة، وفي بعضها كان يعقبه بما يرفع الالتباس والتشويش، ويكشف لهم بكل صراحة عن مقصوده، كقوله أنت ولي الأمر من بعدي وأمثال ذلك كما قدمنا.

ومن جملة النصوص الصريحة فيما تدعيه الإمامة ما ذكره شارح النهج بسند ينتهي إلى زيد بن أرقم، إن رسول الله ﷺ قال ألا أدلكم على ما أن تسالمتم عليه لم تهلكوا: إن وليكم الله، وإن إمامكم علي بن أبي طالب، فناصحوه وصدقوه فإن جبرائيل أخبرني بذلك، والرواية محكوم بصحتها بين علماء الحديث، وهي صريحة في إمامة علي وكونه ولياً من بعده، ولذا أمر النبي أن يناصحوه ويصدقوه، ولا معنى للمناصحة والتصديق إذا لم يكن له عليهم ولاية الإطاعة والمناصحة، فالنبي بعد أن أعلن أنه إمامهم أمرهم بمناصحته وتصديقه فيما يقول، ويحكم في رعيته، ولو كان إماماً في العلم والفتوى كما يذهب إلى ذلك في شرح النهج في مقام تأويل الحديث المذكور لم يكن لأمر النبي أُمته بمناصحته معنى معقولاً يتناسب مع بلاغته وسمو تفكيره، وكأن صاحب النهج رأى أن هذا التأويل لا يتفق وظاهر الحديث المذكور، لذلك ذكر وجهاً آخر للتخلص مما يذهب إليه شيوخ المعتزلة، من شرعية الخلافة على النهج الذي وقعت عليه فقال ما حاصله

أن الإمامة كانت لعلي بمقتضى هذا الحديث وغيره، ولكنه أقرها في غيره وتنازل عنها لمن تقدمه في الحكم ولذلك توليناهم وقلنا بصحة خلافتهم، إلى غير ذلك من التمحلات التي اضطرتهم إليها أمثال هذه الأحاديث الصريحة فيما تدعيه الشيعة.

وإذا كانت الإمامة لعلي عليه السلام بالجعل الإلهي كما هو المفروض في هذه الأحاديث، وأن الله سبحانه أمر جبريل بأن يخبر النبي بذلك كما جاء في هذا الحديث فكيف يسوغ لعلي أن يتنازل لغيره ويقرهم على ولاية أمر الأمة، وهل خفيت المصلحة عنه سبحانه وأدركها علي عليه السلام حتى تنازل عما جعله الله له وأعطاه إياه، ومتى ثبت أنه تنازل عن حقه وأقر غيره مختاراً غير مكره؟ ولقد فرضت عليه ظروف الإسلام في تلك الفترة من الزمن أن يعمل وإياهم صفاً واحداً دفعاً للأخطار التي أحدقت بالإسلام في ذلك الظرف العصيب. وللنبي صلى الله عليه وآله مواقف كثيرة نص فيها على ولاية علي عليه السلام من بعده كان يتعمدها لأدنى مناسبة تقتضي ذلك.

# حديث الغدير

وأكثر مواقفه اشتهاراً وانتشاراً بين المسلمين، ذلك البلاغ العام الذي أذاعه على الجماهير التي رافقته بعد رجوعه من حجة الوداع، في بقعة تسمى الغدير قبل أن تتفرق الجماهير التي حجت في تلك السنة.

وقبل أن يتفرق ذلك الملأ، نزل في تلك الصحراء وحط فيها أثقاله، فصنع له المسلمون منبراً من اقتاب الإبل، واجتمعوا حوله، فقام فيهم خطيباً، يعدد نعم الله على عباده، ثم استجوبهم فاعترفوا له بالولاية وأنه أولى بهم من أنفسهم ثم أخذ بيد علي عليه السلام ورفعها إليه حتى بان بياض ابطيه، وجعل له الولاية العامة التي جعلها الله له.

وذكر في غاية المرام الحادث المذكور بتسعة وثمانين حديثاً من طريق العامة. وفي جميعها يقول النبي صلى الله عليه وآله فوق المنبر وهو آخذ بيد علي عليه السلام، من كنت مولاه فعلي مولاه، وفي بعضها زيادة على ذلك، علي خليفتي من بعدي. وجاء في أكثر المرويات أنه نزلت الآية على النبي صلى الله عليه وآله. وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، وهو في غدير خم وقت القيلولة في شدة الحر، بحيث لو وضع اللحم على الأرض لشوي، فأمر باجتماع الناس وعملوا له منبراً

من أحجار فقام عليه خطيباً ثم قال: أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا بلى يا رسول الله! فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.

وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب قال له: بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ويدعي جماعة من المحدثين أن الحديث من نوع المتواتر وقد رواه في الصواعق وفي المستدرك للحاكم، وفي كنز العمال، ومسند أحمد، وخصائص النسائي، والمواقف وشرحها وشرح التجريد للقوشجي، والسيرة الحلبية، وغير ذلك من كتب الحديث والتاريخ.

وفي المراجعات أن الطبراني أخرج الحديث بسند مجمع على صحته عن زيد بن أرقم ذكر خطبة النبي ﷺ وفي آخرها قوله، أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

وإن المتتبع فيما كتبه نقلة الحديث في هذا الموضوع، يقطع بصحته لكثرة رواته وكثرة من كتب فيه، وفي كتاب الحق اليقين، عن ابن المعالي الجويني، أنه كان يتعجب ويقول: شاهدت مجلداً ببغداد في يد صحاف فيه روايات هذا الخبر مكتوباً عليه: المجلد الثاني والعشرون من طرق من كنت مولاه فعلي مولاه، ويتلوه المجلد التاسع والعشرون.

فالحديث المذكور من أصح الأحاديث سنداً وأشهرها رواية والاختلاف في متنه لا يضر بالمقصود.. لأن كل من رواه ذكر فيه الفقرات التي استدل بها الإمامية على خلافة علي عليه السلام.

وقف النبي ﷺ في حرارة الشمس والوحي يهدد رسالته وينذره إن هو تأخر عن أداء ما بقي منها، ويبعث في نفسه الأمن والاطمئنان مما كان يحاذر ويخشى من قومه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

وصعد النبي المنبر وبيده علي يرفعه حيث يراه الجمع بكامله وقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فكلهم استعجل الجواب وقال نعم يا رسول الله! فاسترسل في حديثه يقول من كنت مولاه فعلي مولاه.

وقد دلنا القرآن الكريم على أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأن له الصلاحية الواسعة في إدارة شؤونهم ويملك من أُمورهم فوق ما يملكون. حيث يقول: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وبعد أن أقروا له بذلك جعله لعلي من بعده، بقوله من كنت مولاه فهذا علي مولاه، فلم يفهم من هذه الفقرة بعد أن استنطقهم وأقروا بالولاية العامة، إلا أن تلك الولاية التي ثبتت له بنص القرآن هي بعينها لعلي من بعده بنفس الاسلوب واللغة التي ثبتت ولايته العامة بها.

ولولا الآية الكريمة لما فهمنا من النبوة إلا القيام بوظائف الدين الراجعة إلى عالم الآخرة، ولم يكن لها هذا المعنى الواسع. فالولاية العامة من هذه الصيغة هي أقرب ما يفهمه المسلمون منها لأنهم فهموا ذلك منها من قبل، ولأنها لغة القرآن التي ألفتها نفوسهم وامتزجت بأرواحهم، ولذا لم يكن أحد يشتبه عليه المراد من هذه الفقرات يوم ذاك.

وفي كثير من روايات الغدير: أن النبي ﷺ أفرد خيمة لعلي عليه السلام ودخل عليه المسلمون أفواجاً يبايعونه بالإمارة والولاية.

أما غير هذا المعنى من المعاني التي يتحملها هذا اللفظ، كالصديق والوارث والمحب والناصر والسيد والمالك وغير ذلك من المحتملات لا يمكن أن يكون هو المراد في هذا المقام بعد ملاحظة ما أحاط به من المناسبات والملابسات.

هذا بالإضافة إلى أنه ليس لبيان هذه المعاني أهمية تستدعي موقف النبي في حرارة الشمس، ليخطب في أصحابه فوق الرمال الملتهبة والوحي ينذر بالعقاب إن لم يبلغ المسلمين في ذلك الوقت بالذات.

ومتى كان المسلمون يشكون في صداقة علي وصحبته للرسول وكونه ناصراً لدين الله لكي يقف النبي ويعلن للناس هذا الإعلان العام. وأي مناسبة بين أحد هذه المعاني وبين قوله ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأقرارهم له بذلك.

ولقد ذكر الرواة أن علياً عليه السلام جمع الناس في رحلة الكوفة أيام خلافته وفيهم بقية من أصحاب الرسول، ثم قال: أنشد الله كل امرئ مسلم سمع من رسول الله يوم غدير خم ما سمع إلا قام، فقام ثلاثون صحابياً منهم إثنا عشر بدرياً فشهدوا بحديث الغدير سماعاً من رسول الله.

أتراه فعل ذلك ليثبت أحد هذه الاحتمالات من قول الرسول وكلهم حتى من نازعه الخلافة يعترف له بأوثق الصلات بالرسول وأمتن الولاء، وأعظم الأثر في تكوين الإسلام وخدمة النبي والدين.

وأخيراً فإن الصيغة التي استعملها النبي صلى الله عليه وآله في النص على ولاية علي من بعده، هي من أوضح الصيغ التي يمكن أن يتأذى بها هذا المعنى إذا نظرنا إليها بعين الإخلاص والتجرد عن الأهواء.

وليس غيرها بأوضح منها دلالة على ما تدعيه الشيعة الإمامية.

ولو فرض أن النبي أتى بغيرها لم تنسد في وجه المفرقين أبواب الاحتمالات والتأويلات لتصرفهم عما يراد منها ولو إلى أبعد الاحتمالات.

على أن الحديث قد اشتمل كما في بعض الروايات على قوله علي خليفتي من بعدي، وكثير من الورايات التي صدرت منه بحسب المناسبات الخاصة، وردت بهذه العبارة أيضاً.

ولكن إخواننا بين منكر لها وبين من تأول مفادها بما ليس بمراد لصاحب الرسالة. وإذا أردنا أن نفتح باب التأويل والتلاعب في الأحاديث لا يبقى شيء إلا ويجوز فيه ذلك فتبطل حجية الظواهر الكاشفة عن مراد المتكلم ويؤدي ذلك إلى محق اللغة وعدم إمكان التفاهم.

هذه صورة مجملة عن الخلافة الإسلامية عند الإمامية، والأدلة كما تدل على أن الفكرة تكونت يوم افتتح النبيﷺ رسالته تدل على ما تدعيه الشيعة من أنها حق إلهي، كما كانت النبوة من قبل، غايته أن النبي يتولى إصدار هذا البيان ويبلغه لأمته. ولم يكن حرص النبيﷺ على انتقال الحق من بعده لعلي احتكاراً لهذا المنصب في ذريته لأنه زوج ابنته وأب لأولادها كما يميل إلى ذلك في عقيدة الشيعة. ذلك لأنه لا يعتمد في فكرته هذه على غير الحدس وقياس النبوة على غيرها من المناصب التي تجوز فيها الوراثة والاستئثار، وقد خفي عليه أن الإسلام قد أعلن حرباً لا هوادة فيها على هذه النواحي. بل كان ذلك منه بأمر من الله تطبيقاً لمبدأ تقديم الأصلح على غيره والأرجح على المرجوح ومعرفة الأصلح والأرجح لا تتيسر في الغالب إلا عن طريق العالم بالسرائر والخبير بما تخفيه الأنفس وما يضمره الغد. والأمة مهما بلغت من الرقي والحضارة لا يمكن أن تصل إلى هذه الغاية كما نشاهد في أرقى الأمم اليوم وقبل اليوم، تلك الأمم التي أصيبت بأسوأ أنواع النكسات والصدمات نتيجة لسوء تصرف الحاكمين واستئثارهم بخيرات الشعوب ومقدرات الأمم.

فالكفاءة والمقدرة على إدارة شؤون الأمة، وتطبيق مبادئ الإسلام تطبيقاً يضمن العدل العام والحرية والمساواة، كما يريد الله سبحانه هذه الصفات وغيرها بعد أن تجمعت في علي عليه السلام اختاره الله للخلافة بعد نبيه، ولم يطالب بها على أساس القرابة كما يذهب إلى ذلك العقاد في كتابه عبقرية الإمام.

قال وكيف ينازع القوم بهذه الحجة، مع أن في المسلمين عمه العباس، وهو أقرب منه للنبي ﷺ وقد بلغ من السن مرتبة تخوله أن يقف في صف من تقدم للخلافة، إن علياً لم يعتمد في إثبات حقه في الخلافة على قرابته من الرسول: وهو الخبير بأن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا توزن بميزان القرابة.

ولا يؤتم فيها برأي الأفراد والجماعات، ويعلم أيضاً بأن النبي لم يكن في يوم من الأيام يصور الإسلام للعرب، وللناس عامة، بصورة السيادة الهاشمية. هذا بالإضافة إلى أن نفس مبادئ الإسلام تأبى ذلك لأنها تقوم على أساس المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم للخلق، ولو كان عبداً أسود، وأكرمهم على الله أشدهم تمسكاً بتعاليمه مهما كان عنصره، كل ذلك لم يغب عن بال علي عليه السلام، ولا انتهج غير هذه الخطة في جميع أدوار حياته وحديث القرابة كان إلزاماً لأخصامه الذين اتخذوه سلاحاً في إقصاء خصومهم الأنصار عن الخلافة، لأنهم والنبي ﷺ من شجرة واحدة، ولما بلغت حجتهم هذه علياً عليه السلام كان من المفروض عليه أن يحتج على المهاجرين بالمنطق الذي احتجوا به على الأنصار، وتغلبوا به على الموقف فقال لما بلغه ذلك:

لقد احتجوا بالشجرة وتركوا الثمرة وهي حجة لا بد منها في هذا الموقف ولا يجوز غيرها لأنها سلاحهم الوحيد ومنطقهم الذي شق لهم الطريق إلى الخلافة ولقد استرسل العقاد في حديثه إلى أن قال:

إن أحق الناس أن يفطن إلى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا أن وراثة الخلافة في بني هاشم حكم من أحكام الله: لكان أعجب شيء أن يموت النبي وليس له عقب من الذكور وأن يختم القرآن وليس فيه

نص صريح على أحد من أهل البيت وغير ذلك من الحجج التي لا تتناسب مع عبقرية العقاد وتحرره في دراسته.

إن الشيعة الإمامية هم الذين يدعون أن الخلافة الإسلامية حكم من أحكام الله، وضرورة من ضرورات المذهب، ولا رأي للأمة فيها.. ولكنهم لا يقولون ذلك على أساس القراية والنسب حتى تكون في أعقاب النبي وإنما يقولون بذلك على أساس اختيار الأصلح والأفضل من أي أسرة كان وبأي لون اتصف، لأنه يقوم مقام النبي في حفظ الشريعة وتطبيق مبادئ الإسلام، فيجب أن تتوفر فيه أفضل الصفات وأكمل المواهب، وليس باستطاعة الإنسان أن يدرك ما يستره الغيب، وما ينتج من النفوس عند صراع الشهوات والأهواء والكفيل بذلك هو الله سبحانه، وقد اختار لعباده علياً لأنه الأصلح والأفضل كما يعترف بذلك أكثر المسلمين.

هذا هو الذي تبنى عليه نظرية الحق الإلهي وأصحاب هذه النظرية ليسوا من الغلاة كما يذهب إلى ذلك العقاد وإنما هم الشيعة الإمامية.

الظاهر أن اسم الغلاة يتسع عند العقاد وغيره، لكل من أحب أهل البيت، وأحسن ما يمكن أن نعتذر به للعقاد وغيره ممن يلصقون بالشيعة عيوب غيرهم هو الجهل بعقائد الشيعة، ولو أنهم وقفوا عند جهلهم لوجدنا السبيل إلى معذرتهم واضحاً لا لبس فيه، ولكنهم حملوا الإمامية أوزار غيرهم من الفرق الضالة. وما زال علماء الشيعة يكتبون دفاعاً عن حقهم، ويناشدون إخوانهم المسلمين الرجوع إلى كتب الشيعة أنفسهم حرصاً منهم على وحدة الإسلام، ورغبة منهم في الوقوف صفاً واحداً في وجه العدو المشترك. وأرجو أن يكون كتابي هذا رداً لكل عدوان من هذا النوع.

# أُصول الإسلام
# عند الشيعة الإمامية

أُصول الإسلام عند الشيعة الإمامية أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد. وعلى هذه الأربعة تقوم دعامة الإسلام، وبها يكون الإنسان مسلماً إذا أقر بها لسانه، ولا يجب التفتيش عن خفايا نفسه، فالإقرار باللسان يكشف عن موافقة الجنان في الغالب، ويكفي للحكم بإسلام المقر ما لم يعلم من حاله عدم التصديق بواحد منها.

وعلى ذلك علماء الطائفة الشيعية، وأحاديث أئمتهم بذلك بلغت حد الاستفاضة وعند أكثرهم لا بد من معرفة هذه الأركان بالأدلة العقلية.

التوحيد ـ لقد أجمع العلماء على وجوب معرفة الله سبحانه وصفاته الثبوتية والسلبية، وما يصح عليه ويمتنع منه بواسطة الدليل، وهكذا الحال في بقية أصول الإسلام، كما وأنه لا يصح الاعتماد في إثباتها على النقل المستفاد من الكتاب والسنة لأن إثبات الأُصول بالكتاب والسنة يتوقف على ثبوت هذين الأمرين، وثبوتهما إنما يكون بعد فرض ثبوت النبوة، وهي تتوقف على ثبوت الواجب، فلو افترضنا أن إثبات الواجب والنبوات بطريق النقل، بالكتاب والسنة يلزم الدور الباطل وكون الشيء علة لنفسه، إلا أن

يشتمل الكتاب والسنة على أحد الأدلة العقلية فيصح الاستدلال بهما لدليل العقل لا من حيث كونه كتاباً منزلاً من عند الله.

ولم يترك القرآن الكريم ناحية من النواحي التي تلفت نظر الإنسان إلى وجود الخالق المدبر إلا ونبه عليها وعرضها عرضاً ينسجم مع أُسلوبه وبلاغته بالمنطق السليم المقنع الذي يعتمد على الأسباب والمسببات وعلى البديهيات التي تنسجم مع الفطرة والعقل كما يبدو ذلك من آياته الكثيرة التي جاءت لتلفت نظر الإنسان إلى تنظيم الكون بسماواته وكواكبه وبحاره وجباله وسهوله وما بين ذلك من كائنات لها خصائصها وميزاتها وما إلى ذلك من الموجودات بما لا يدع مجالاً للريب والتردد في أن هذا الكون العظيم العجيب بكل ما فيه من الذرة إلى أعظم الكائنات والموجودات لا يمكن أن يوجد تلقائياً أو صدفة بدون موجد مدبر. ولكي لا يذهب الإنسان بعيداً إلى بقية الكائنات فقد أرشده إلى التأمل في خلقه ونشأته وتركيبه، ذلك لأن السماء بكواكبها وأجرامها وعجائبها والبحار ومحتوياتها وكائناتها الحية والأرض بما فيها من أصناف المخلوقات والنباتات كل هذه الكائنات ليست بأعظم ولا بأدل على وجود الخالق المدبر.

وعلام نتلمس البراهين الفلسفية على وجود الله سبحانه ووحدانيته وهذا الكون زاخر بصنوف الآيات والبراهين على وجوده وهي تدعو إلى الإيمان والقناعة بيسر وسهولة لا تشوبهما أوهام الفلاسفة ولا غموض الفلسفة وعناؤها.

ولعل من الخير للإنسان أن لا يسرف في البحث عن كنه الله تعالى وحقيقته لأن ذلك مما يستحيل على العقول إدراكه والتوصل إليه مهما اتسعت آفاقها وتعاظم وعيها، ومتى كلفها الإنسان فوق وسعها وأرهقها يزجها في متاهات لا تحمد نتائجها.

وحيث كان الله سبحانه منزهاً عن حدود الزمان والمكان وعن قيود الزمان والمكان استحال على العقل تصوره وإدراكه، وكيف يتاح له ذلك وهو عاجز عن إدراك كنه مخلوقاته واكتشاف ما فيها من ألغاز وأسرار الحياة والروح والعقل وحتى كثير من دقائق المرئيات وجلائها.

بل إن كل ما استطاع أن يتوصل إليه البشر من معرفة الله عز وجل إنما جاء عن التفكير في كائناته وآيات صنعه وعجائب مخلوقاته فاستدلوا بها على وجوده وبقاياتها وتنظيمها على حكمته وانسجامها وتنسيقها على وحدانيته، ومن أجل ذلك جاء التحذير والترهيب عن التفكير في ذات الله تعالى كما تؤكد ذلك النصوص الكثيرة عن النبي ﷺ والأئمة الأطهار من ذريته، ومن ذلك ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: إياكم والتفكر في الله ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمة الله فانظروا إلى عظيم خلقه.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: من نظر في الله كيف هو وأين هو فقد هلك. إلى غير ذلك من المرويات الكثيرة التي تحذر من الاسترسال والاعتماد المطلق على العقل في معزل عن الكون وما فيه من الكائنات وعجائب المخلوقات.

وما ذاك إلا لأن الآيات والكائنات أدل على موجدها وأصدق في الدلالة عليه من غيرها، ذلك لأن كل موجود اتصف بغاية خاصة وفائدة ملحوظة كالكتاب المؤلف والقصر المشيد والجهاز الخاص المعد لبعض الأغراض والأهداف فإنه يدل دلالة واضحة وسليمة على أن موجده وصانعه ذو عقل سليم وقصد نبيل عرف الغاية من صنعه فأوجده لأجلها، وكلما تمتنت الصلة وتكشفت غاية الموجد وحكمته في صنعه يتضاعف اليقين بحكمته وقصده مما أوجد وإن لم نر الموجد أو يخبرها عنه مخبر، وتلك حالة طبيعية ليس بإمكان أحد أن يتنكر لها أو يتجرد عنها، فكيف يتابع هذا

الكون العظيم بعناصره المختلفة وآياته الباهرة وسماواته المتعالية وما ازدانت به من شمس وقمر وكواكب وما حوته الأرض من صنوف الأحياء البشرية والحيوانية والنباتية وأنواع الجمادات وما تجلت به من آيات القدرة والإبداع والانسجام ودقة النظام وحكمة التدبير وسمو الغاية، وبلا شك فإن كل واحدة من هذه الآيات توجب اليقين الجازم بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً ومدبراً حكيماً خلقه بقدرته وأنشأه بإرادته وقصده، وأنا لا أُريد من ذلك أن أستعرض جميع الآيات الكونية وإنما الذي أُريده الإشارة إلى الإنسان نفسه باعتباره أسمى وأروع مظاهر القدرة الإلهية وإبداعها الفذ لتميزه على سائر المخلوقات بخصائصه ومواهبه الجسمية والفكرية تلك الخصائص والمواهب التي ما برح العلماء يستجلون غوامضها ويحاولون استكشاف أسرارها منذ عشرات القرون ومع ذلك فلم ينتهوا إلى شيء بالقياس إلى البقية الباقية من أسرارها.

أتحسب أنك جرم صغير     وفيك انطوى العالم الأكبر

لذا فإن الله سبحانه قد أرشد الإنسان إلى التأمل والتفكير في خلقه ونشأته وتكوينه لأن في ذلك ما يغنيه عن التأمل في غيرها ويوفر عليه عناء البحث والتأمل العميق في بقية الكائنات التي تعجز عن إدراكها واستيعابها إمكانيات الإنسان.

# أطوار الجنين

يستهل الجنين حياته الأولى باقتران نطفة الرجل بما يسمونه بويضة الأُنثى، وبعد اقترانهما يدخل الجنين في طوره الأول وحسبما يقرر العلم أن البويضة الملقحة سرعان ما تنقسم إلى خليتين ثم تتكاثر حتى تصل إلى ملايين الخلايا لتكون المواد الأولية لصياغة الجنين وتكوينه، ومنها يقطع الجنين مراحل التطور شهراً بعد شهر حتى يتكامل خلقه ونموه، ففي الشهر الأول ينمو ويكبر خمسين ضعفاً عن بدء تكوينه يوم كان بويضة مخصبة كذرة الرمل.

وقد واكبت العناية الإلهية الجنين وأحاطته بصنوف الرعاية فحضنته بكيس الأمنيون وهو كيس يضم سائلاً يغمر الجنين ليعطيه دفئاً ملائماً لا يتغير باختلاف الجو ودرجات حرارته، ويقيه في الوقت نفسه شر الصدمات التي قد تصيب الأم. وفي نهاية الشهر الثاني يصبح حجم الجنين كبيضة الدجاجة تقريباً وفي نهاية الشهر الثالث يتخلق الجنين وتبدو عليه الصفات البشرية، وفي خلال الشهر الرابع تتجلى به الفروق الجنسية، وفي نهاية السادس يظهر له الحاجبان والأهداب، وفي نهاية الشهر السابع يصفو جلده أكثر من ذي قبل ويظهر عليه الشعر الدقيق، وفي خلال الشهر التاسع يكتمل نموه ويصبح مؤهلاً لخروجه إلى عالم النور.

وحينما يولد الطفل يبدأ بالتنفس واستنشاق الهواء، وإذا تأملت خلق الجنين وجدت آيات القدرة والإبداع تطالعك في جميع خصائصه وجوانبه.

من ذلك أن الله عز وجل ابتدعه من نطفة دقيقة لا يكاد الطرف يدركها بحيث لو اجتمعت نطف البشر الأحياء في العالم كله لوسعتهم جوزة صغيرة، ثم أودع كل نطفة سماتها البدنية وخصائصها الموروثة مما تسبب في اختلاف البشر في الصور والأجناس والخصائص نتيجة لاختلاف صفاتهم الموروثة.

فكيف اختلف البشر وتمايزوا كلهم من نطفة واحدة لا يتميز بعضها عن بعض وكيف احتشدت عوامل الوراثة في نطف الملايين من البشر فحفظت لكل إنسان سماته الخاصة به وخلاله الموروثة، وكيف اتحدت خلايا الجنين في أطوارها ونتائجها؟ فاستحال بعضها لحماً وبعضها أعصاباً وبعضها أوردة وشرايين، وغدا بعضها عيناً باصرة أو لساناً ناطقاً أو أُذناً واعية وكلها من مادة واحدة.

وكيف اتفقت عناصر أبدان البشر في تركيبها من لحم ودم وأعصاب وما إلى ذلك من المواد الموجودة في كل إنسان، ومع ذلك فقد اختلفوا في ألوانهم وسماتهم ومواهبهم وطبائعهم، فكان منهم الأبيض والأسود والجميل والقبيح والذكي والبليد والكريم والبخيل وما إلى ذلك من الصفات والمواهب التي لا يتفق اشتراك شخصين اثنين في أكثرها فضلاً عن جميعها.

وفي هذا الاختلاف من الحكم والمصالح ما تعجز العقول والأفهام عن إدراك الكثير منها، وهكذا تجلت حكمة الله عز وجل في حياتية الإنسان وجمال تصوره إذ أودع فيه من أسراره ما جعله آية فريدة لا يمكن للفكر مهما بلغ من السمو والكمال أن يتخيل صورة أبدع ولا أكمل منه في جميع ما فيه من صور ومواهب.

وكثيراً ما يدهش الإنسان وتبهره المكتشفات العلمية والأجهزة المخترعة على اختلافها لروعة ابتكارها ودقة تصميمها وسمو أهدافها، ولو فكر الإنسان في نفسه وما تنطوي عليه من صنوف الأجهزة والجوارح وما تتصف به من سمو الإبداع ودقة التصميم وما تؤديه من الوظائف والأعمال لأصابَهُ ما يشبه الذهول والدهشة، ولم يعد يرى لتلك الأجهزة والمخترعات قيمة تستحق الوقوف عندها والتأمل التعميق فيها بجانب القوى والمواهب الموجودة في الإنسان بالإضافة إلى تكوينه والمراحل التي مر بها إلى أن يصبح إنساناً، أفلا يكفي الجاحدين ذلك كله دليل على وجود الصانع المدبر والخالق المبدع وصدق الله حيث يقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

إلى كثير من الآيات الكريمة التي تعرضت لأكثر النواحي في خلق الإنسان وتكوينه ومواهبه التي لا تحصى منذ وجوده في أرحام الأمهات نطفة وعلقة ومضغة وعظاماً وإنساناً كاملاً مؤلفاً من مئات الأجزاء وآلاف الشرايين والعروق لكل واحد منها مهمة يؤديها بأمانة وإتقان إلا إذا اصطدم بما يحول بينه وبين أدائها فيختل توازنه حينذاك.

هذا بالإضافة إلى سمعه وبصره ونطقه وإحساسه وما ينفعل به من الحالات المختلفة بسبب ما فيه من الأجهزة التي تؤدي غايتها ويقوم كل منها بدوره، كتحليل الطعام إلى عناصر مختلفة تتوزع على الجسم ليأخذ كل عضو منه حسب حاجته، وتوزيع الدم من مكانه الرئيسي، وهو القلب إلى

جميع أنحاء الجسم بواسطة الشرايين التي لا يحصى عددها، ثم يرجع إلى القلب بواسطة الأوردة ومرور الهواء الجديد الذي يجلبه التنفس لإصلاح الدم بعد فساده.

ومرة أخرى يوجه القرآن نظر الإنسان إلى خلق الذكر والأنثى من جميع الكائنات الحية، فيقول ومن كل خلقنا زوجين لعلكم تذكرون، وفي آية ثانية: فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً إلى غير ذلك من الآيات الكبيرة التي تؤكد أن جميع ما في الكون من حيوان ونبات وإنسان أوجد الله منه الذكر والأنثى لأن الحياة لا تنتظم بدون ذلك في جميع المخلوقات على السواء فهل من الممكن أن تكون الصدفة هي التي أوجدت هذا الازدواج.

ولو تجاوزنا حدود العقل وافترضنا أن الكون وجد اتفاقاً وبلا فاعل مريد، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين الإنسان، فهل الممكن أن تتكرر الصدفة بوجود كائن آخر وآخر وآخر إلى ملايين الملايين يماثله في الشكل ويختلف عنه أشد الاختلاف في الغرائز والمواهب والإدراك وأكثر الإحالات. هذا بالإضافة إلى أن حدوث الكون بما فيه صدفة كما يدعي الجاحدون لا يحتم بقاؤه ودوامه محتفظاً بتناسقه ونظامه فلماذا انتظم الكون بعد فرض وجوده صدفة ولم يعره التبعثر والانحلال وتعمه الفوضى كأن تشرق الشمس من المغرب أو تغيب في المشرق ويبزغ القمر تارة بدراً وأخرى مباشرة هلالاً ويصير الليل نهاراً والنهار ليلاً ويلد الإنسان حيواناً والحيوان إنساناً إلى غير ذلك من المصادفات التي تلزم القائلين بأنه لم يوجد بإرادة حكيم قادر مدبر.

وجاء في كتاب أضواء على الأرض والفضاء أنه يوجد في القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور تضع الانثى منه بيضها في أشهر الشتاء

حيث تتلبد الثلوج تضعه في جيب من جلدها في الطرف الأعلى من رجلها، ويبقى فيه البيض إلى أن يفرخ ويكبر الفرخ ويشتد ويصبح بإمكانه مقاومة الصقيع فعندها تتركه وشأنه، فهل هذا الجيب وهذا التدبير وجدا صدفة كما زعم الجاحدون؟ بدون إرادة حكيم مدبر ولماذا وجد في رجلها ولم يوجد في ظهرها أو محل آخر؟ والسلام على علي بن أبي طالب عليه السلام القائل: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وصدق من قال:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

هذه الحقيقة يدركها الإنسان بفطرته السليمة البعيدة عن الأوهام والشبه التي لا ترتكز على أساس من العلم والمنطق. وقد عبر عن هذا الواقع البدوي وهو ينكر على الجاحدين بقوله: البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، أفلا يدلان على اللطيف الخبير؟ ومهما يكن الحال فالأدلة على وجود الخالق المدبر أكثر من أن تحصى وقد عرض قسماً منها القرآن بمختلف الأساليب لأنه يخاطب أقواماً ينكرون وآخرين يشركون، وأقواماً يعبدون الشمس والقمر وما صنعته أيديهم من الأحجار والأخشاب، وقلما تخلو سورة من البراهين على وجوده ووحدانيته.

هذا بالإضافة إلى الأدلة العقلية التي استدل بها المتكلمون والفلاسفة، ولا بد وأن نشير إلى بعضها بالبيان التالي:

وهو أن نسبة الوجود إلى الماهية إما أن يكون ضرورياً كنسبة الجاذبية والحركة إلى الأرض، وإما أن يكون ممتنعاً كنسبة السكون لها، وإما أن لا يكون شيء منهما، والأول هو الواجب والثاني هو الممتنع، والثالث هو الممكن لذاته، ومن أحكامه ان ذاته لا تقتضي وجوداً ولا عدماً، إذ لو اقتضت الوجود لكان واجباً ولو اقتضت العدم لكان ممتنعاً ومن أمثلة ذلك هذا العالم، فإنه بلحاظ ذاته لا مرجح لوجوده على عدمه، ولا بد له من سبب

لوجوده ولعدمه خارج عن حقيقته وماهيته، وهذا السبب لا يخلو في مقام التصور عن أن يكون واجباً بذاته، أو ممكناً، فإن كان واجباً فهو الله سبحانه وإن كان ممكناً فلا بد له من سبب أيضاً فلا بد وأن ينتهي إلى كون السبب الأخير واجباً بذاته وهو ما لا يحتاج في وجوده إلى سبب آخر، والا يلزم تسلسل العلل إلى ما لا نهاية له، أو الدور الباطل وهو تقدم الشيء على نفسه.

بيان ذلك أن علة الممكن إن كانت ممكنة وكان سببها ممكن يلزم تقدم الشيء على نفسه لأن كونها علة يقتضي تقدمها عليه ومن حيث كونها ممكنة وهو علتها يقتضي تأخرها عنه، وإن كانت علتها غيره وهي ممكنة فتلك العلة تحتاج إلى علة وهكذا وهو التسلسل الباطل، ويبقى علينا أن نفترض سؤالاً آخر قد يعترض تفكير الإنسان الساذج المفطور على التساؤل والتطلع إلى حقائق الأشياء، هو أنه إذا كان وجود العالم باعتباره ممكناً مقتضياً لوجود الله سبحانه، فمن أوجد الله. وبقليل من التفكير يدرك الإنسان أن هذا النوع من التساؤل من مخلفات عهد الطفولة الذي لا يقتنع إلا بالمحسوسات، أما الذين يتجاوزون هذه المرحلة ويعملون تفكيرهم يدركون أن النتيجة الحتمية لكونه تعالى الموجد لكل لشيء أنه خالق غير مخلوق، ولا يمكن أن يكون محتاجاً في وجوده إلى سبب، لأنه لو قلنا أن كل كائن لا بد وأن يستمد وجوده من غيره حتى الله سبحانه يلزم أن لا يوجد شيء أبداً، لأن وجود الشيء يحتاج إلى سبب موجد، وقبل وجوده لا يوجد ذلك الشيء والسبب أيضاً يحتاج إلى موجد، فلا بد وأن تنتهي إلى السبب الأخير الموجود بذاته ولو افترضنا أن السبب الأخير لا بد له من سبب، يلزم عدم وجوده لعدم سببه، ويلزم عدم وجود كل ما هو سابق عليه، مثلاً لو افترضنا أن النقد لا يمكن أن نأخذه من شخص إلا إذا أخذه هو من شخص آخر، بحيث لا يوجد منه فرد غير مأخوذ من فرد آخر يلزم أن لا يوجد شيء يسمى نقداً، وهكذا الحال بالنسبة إلى جميع الكائنات والموجودات.

# مع الماديين

لعل شبهة الماديين من أبرز الشبه وأكثرها شيوعاً بين الملاحدة الذين يزعمون أن العالم بشكله الرائع ونظامه الدقيق الرتيب إنما هو من صنع المادة وحدها وليس وراءها خالق ومدبر قد أوجد كل شيء بحكمته وإرادته وإن الحياة في نظرهم ليست إلا مجموعة من القوانين الطبيعية والكيماوية وليس وراء نشأة الإنسان وغيره من الكائنات غاية أو تدبير بل إن كل ما في الوجود ليس إلا نتيجة لاجتماع ذرات أجزائه عن طريق المصادفة. وأضاف إلى ذلك (بيرتراند راسل) وهو يلخص النظرية المادية أضاف يقول: وجميع ما قام به الإنسان عبر الأجيال من أعمال فذة وما اتصف به من ذكاء وإخلاص مصيره الفناء المرتبط بنهاية المجموعة الشمسية، وسيدفن جميع ما حققه الإنسان من نصر وما بناه من صروح المدنية تحت أنقاض هذا الكون، وأضاف أن هذه الأمور جميعها حقائق لا تقوى فلسفة من الفلسفات على إنكارها.

وملخص رأي الماديين هو أن الحياة تنشأ وتتولد تلقائياً من المواد الجامدة وهذا من أسوأ أخطائهم لأن المادة إن كانت مشتملة على الحياة لكي تتولد منها الأحياء وتعطي الحياة لغيرها فمن الذي أوجد فيها الحياة، وإذا كانت فاقدة لها فكيف يتولد الحي ممن لا حياة فيه؟

وقد جاء في كتاب الله يتجلى في عصر العلم إن (رسل تشارلز) قال: جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحي قد باءت بخذلان وفشل ذريعين، كما جاء في الكتاب المذكور صفحة ٥٢ أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم لأنها لا تقوم على أساس المنطق والإقناع.

هذا بالإضافة إلى أن المادة المزعومة أإما أن تكون لا شيء أو شيئا، وعلى تقديره إما أن تكون ناشئة بذاتها وإما أن تكون قديمة أزلية، وإما أن يكون لها خالق وموجد، والفرض الأول على تقديره يلزمه أن يكون العدم أصلاً للوجود وهو من المحالات التي لا يمكن تصورها، وكونها شيئاً حاصلاً بذاته من المحالات أيضاً لاستحالة حدوث الشيء من غير محدث، وكذا احتمال كونها قديمة أزلية لأن المادة متغيرة والمتغير لا بد وأن يكون حادثاً. وقد أثبت العلم استحالة قدم المادة وأزليتها حيث إن قوانين الديناميكا الحرارية تنص على أن عناصر الكون تستنفد طاقاتها الحرارية تدريجاً وأنها ستؤول بعد طول الوقت إلى درجة الصفر فتنعدم حينذاك الطاقة وتستحيل معها الحياة فوجود الكون زاخراً مزدهراً بألوان الحياة دليل على حدوثه وانتفاء أزليته فيتعين أن يكون للمادة وجميع ما في الكون مُنشئاً وخالقاً وهو الله سبحانه.

ومن مناقضات الماديين أنهم قد اعترفوا بحرمان المادة من العقل والحياة ثم أعطوها صفات الخالق ونسبوا إليها ما لا يجوز على غيره، وكيف استطاعت المادة أن تمنح البشر عقلاً راجحة وألباباً نيرة وهي عديمة العقل ومن المعلوم أن الفاقد للشيء لا يمكنه أن يعطيه، والمعطي للشيء لا

يتصور فيه أن يكون فاقداً له، ومع اعترافهم أيضاً بأن المادة جامدة لا حياة فيها فكيف تكون أصلاً للوجود وتعطي الحياة لغيرها من الأعشاب والأشجار والطيور والأسماك والحيوان والإنسان وما إلى ذلك من أنواع الموجودات الحية.

وجاء في مجلة عالم الفكر الكويتية أن بعض العلماء أحصى ما يقارب المليون من نوع الحيوانات المختلفة وحوالي ربع مليون نوع من النبات ولكل نوع من العوالم أصنافه ولكل صنف أفراده ولكل فرد ملامحه وخصائصه التي لا يشارك بها غيره في الغالب، وهل من الممكن أن يكون السبب الأول والأخير لكل هذه الكائنات المختلفة المتنوعة ما يسمونه بالمادة الجامدة أو الصدفة كما يزعم الجاحدون. وقال الدكتور (رسل تشارلز آرتست): أن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلية الحية[1].

وجاء في صفحة ٥٢ من كتاب الله يتجلى في عصر العلم في معرض رده على الماديين أن الإيمان بالدين تدعمه الاكتشافات العلمية وقد أيدت العلوم فعلاً كثيراً من النبوءات التي جاءت بها الكتب المقدسة، ولا شك أن العلوم سوف تكشف في المستقبل عن صحة كثير من الأمور الأخرى التي وردت في تلك الكتب والتي لم يصل إليها علمنا بعد. فعلم الفلك مثلاً يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد أن هذا الكون أزلي ليس له بداية أو أبدي ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغيير وفي هذا الرأي يلتقي العلم بالدين، والعلوم

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، ص٧٩.

بحكم طبيعتها المادية أعجز من أن تبحث عن الله بطرقها المادية أو أن تدرك كنه ذاته تعالى، ولكن ملاحظة عجائب هذا الكون قد دعت كثيراً من علماء الفلك الأمناء إلى الاعتقاد بأنه لا بد وأن يكون لهذا الكون باتساعه الفسيح ونظامه المعجز مدبر لا نراه ولا نستطيع أن ندرك كنهه.

وقد ذهب بعض الماديين كما جاء في أصول العقيدة للسيد الصدر أن جرثومة الحياة هبطت إلى الأرض على نيزك من نيازك الفضاء ومنها تولدت الكائنات الحية وانتشرت فيها الحياة.

ويبدو من أقوال الماديين وشطحاتهم أنهم يرسلون آراءهم ولا يفكرون بما يترتب عليها من النتائج التي تدينهم وتبعث على السخرية وتلزمهم بما يفرون منه، وإذا كانت جرثومة الحياة قد هبطت إلى الأرض على كوكب من كواكب الفضاء، فمن أوجد الحياة في مستقرها الأول؟ ومن لوازم الاعتراف بوجودها في الفضاء أن يكون لها موجد كما هو الحال بالنسبة لغيرها من الممكنات التي لا توجد إلا بموجد. ومن الذي سخر النيزك لأن يتحمل تلك الرحلة إلى الأرض حاملاً لها تلك الهدية وهو لا يملك الإدراك والاختيار وإذا كانت رحلته عن طريق الصدفة والاتفاق، فكيف استمرت تلك الصدفة ودامت الحياة فيها بذلك الإتقان والتدبير المحكمين. إلى غير ذلك من اللوازم التي لا يمكن لعاقل أن يلتزم بها.

وكما يجب الاعتقاد بوجوده يجب الاعتقاد بوحدانيته، وأنه لا شريك له في خلقه وتدبيره ولا تصح العبادة لغيره. ومن أشرك بعبادة ربه فقد أصبح في عداد المشركين.

قال سبحانه: ولا تشرك بعبادة ربك أحداً، ولقد قال علي عليه السلام في وصية لولده الحسن عليه السلام، واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه.

هذا بالإضافة إلى أنه لو فرضنا تعدد الواجب لزم كونه مركباً لأن كل متماثلين لا بد وأن يكون كل منهما مركباً من جزأين على أقل التقادير ولا بد وأن يشتركا في جزء يحصل به التماثل، ويختص كل منهما بجزء يميزه عن الآخر وبدون ذلك لا يصدق التعدد، فلو كان الواجب اثنين مثلاً لزم أن يشتركا في الوجوب ويختص كل منهما بما يميزه عن الآخر فيكون كل منهما مركباً كما هو المفروض.

والواجب لا يمكن أن يكون مركباً ولا محدوداً، ولو كانا اثنين لا بد وأن يحد أحدهما الآخر وفرض تعدد الواجب مناقضة صريحة، لأن التعدد يقتضي كون الواجب متناهياً محدوداً، وغير متناهي، ذلك لأنه لو افترضنا أن الواجب اثنان لا بد وأن يكون بينهما حد كما ذكر وذلك الحد غيرهما وكونه غيرهما يقتضي أن يكون بينه وبينهما حد، وهو غير الثلاثة الأول وهكذا يقال بالنسبة إلى الحد الثالث والرابع وإلى ما لا نهاية له.

وقد فرضنا كونه متناهياً كما هو اللازم من التعدد وهذا الوجه مأخوذ من كلام الإمام الرضا عليه السلام في حديث رواه عنه الكليني في المجلد الأول من الكافي.

ويعتقد الشيعة أن الواجب لا يحويه حيز ولا جهة من الجهات، والمراد بالحيز هو المحل الذي يحل فيه المتحيز، والجهة هي ما يمكن مقابلتها والإشارة إليها ممن كان في الجهة الأخرى، وقد بينا أن الواجب هو الموجود بنفسه من غير أن يفتقر في وجوده إلى شيء آخر ولو كان له محل أو جهة لكان مفتقراً في وجوده إليهما ولكان محدوداً، وهو خلاف المفروض، ولذا نقول بأنه ليس بجسم، إذ لو كان جسماً لكان له أبعاد ثلاثة، طول وعرض وعمق، وكلما كان كذلك كان محتاجاً إلى المكان ولو احتاج إلى المكان لخلى منه المكان الآخر، ولازم ذلك كونه محدوداً، وهو

سبحانه مع كل شيء وخارج عن كل شيء لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان.

ويعتقد الشيعة أن الواجب لا يرى ولا يتغير حيث إن وجوده لم يكن لسبب من الأسباب وهو عين ذاته ومن هو كذلك يستحيل عليه التغير، لأن التغير هو زوال الحالة الأولى، وتبدلها بحالة غيرها، وهذا لا يكون إلا بزوال سببها وحدوث سبب للحالة الثانية، وهذا غير معقول في الواجب إذ ليس وجوده شيئاً آخر وراء ذاته وقد اثبتنا أنها ليست وليدة سبب من الأسباب، والقديم لا سبب لوجوده وإلا خرج عن كونه قديماً، وفرض التغير يتنافى مع كونه قديماً، وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى أكثر من فهم معنى الواجب تقدس اسمه.

وكما لا يتغير لا تدركه الأبصار ولا يشار إليه بالحواس، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأن المرئي بالبصر لا بد وأن يكون في جهة تخالف جهة الرائي، وقد عرفت أن الواجب هو الموجود بذاته ليس جسماً ولا حالاً في جسم، ولا في جهة خاصة لا يحويه مكان، ولا يكون مقابلاً لجهة ومع هذه التقادير يستحيل أن يرى للزوم كون المرئي في جهة ومكان، ولا بد من مسافة بين الرائي والمرئي فإن رآه كله كان مركباً محدوداً، وإن رأى بعضه كان مبعضاً متحيزاً وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

# المحدثون والأشاعرة

والمجوزون لرؤيته جماعة من محدثي السنة حيث وصفوه بصفات مخلوقاته فقالوا بأن له يداً وعيناً ورجلاً وغير ذلك وأسرف بعضهم فقال بأنه ينزل في كل ليلة من ليالي الجمع إلى سماء أهل الدنيا، ويقول هل من تائب هل من مستغفر؟ إلى غير ذلك مما هو موجود في كتب الفرق والمعتقدات، وقال الأشاعرة بأنه يرى يوم القيامة كما يرى القمر ليلة غامة، وقد خالفوا في ذلك نصوص القرآن الدالة على امتناع رؤيته. قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ وهي واردة في مقام تعظيمه وتنزيهه عن أن تحيط به الأبصار، وقال سبحانه مخاطباً لنبيه موسى عليه السلام «لن تراني» وكلمة لن تدل على النفي المؤبد، وإذا امتنع على موسى أن يراه امتنع في حق غيره وقال حكاية عن قوم موسى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

ولو كان هذا ممكناً لما وصفهم بالظلم الموجب للعقاب إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الصريحة في عدم إمكان ذلك.

هذا بالإضافة إلى المرويات الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام التي تؤكد استحالة رؤيته وتندد بأنصار هذه المقالة، فمن ذلك ما رواه في أصول

الكافي عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدث أن أدخله على الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته في ذلك فأذن لي فأدخلته عليه، فسأله عن الحلال والحرام، حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرة إنا روينا أن الله قسم الرؤية والكلام بين النبيين فجعل الكلام لموسى والرؤية لمحمد صلى الله عليه وآله فقال الإمام عليه السلام: فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الإنس والجن في أنه لا تدركه الأبصار، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء، أليس هو محمد صلى الله عليه وآله قال بلى. قال كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله، بأمر الله ويقول لهم عن الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ثم يقول لهم إني رأيت الله بعيني وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر؟ أما تستحون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بشيء حتى قالوا يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه! قال له أبو قرة فإنه تعالى يقول ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فقال الإمام عليه السلام: إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ يريد بذلك ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله وما رأت عيناه. ثم أخبر بما رأى فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وآيات الله غير الله. ولقد قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ فإذا رأته الأبصار فقد أحيط به علماً، قال أبو قرة: أفنكذب الروايات؟ قال الإمام عليه السلام إذا كانت الرواية مخالفة للكتاب كذبتها.

والأحاديث الواردة عن أئمة الشيعة على نفي الرؤية كثيرة جداً. وما ورد في القرآن الكريم ما يدل بظاهره على الرؤية أو التجسيم لا بد من التصرف فيها بنحو من أنحاء التجوز الشائع في كلام العرب، ومن نفى عنه التجسيم كبعض الأشاعرة والمحدثين وادعى رؤيته في الدنيا والآخرة كما يزعمون فقد ناقض نفسه بنفسه وكان كمن أنكر النتيجة بعد أن سلم بمقدماتها.

# الواجب لا يحل بغيره
# ولا يتحد مع غيره

ويعتقد الشيعة أن الواجب لا يحل بغيره ولا يتحد مع غيره: والمراد من الحلول أن يكون موجوداً في محل على نحو يكون قائماً فيه، والمراد من الاتحاد صيرورة الشيئين أو الأكثر واحداً، وهذا لا يمكن أن يكون بالنسبة إلى الواجب، لما ذكرناه من أن الواجب هو الموجود بنفسه ولا يفتقر في وجوده إلى الغير، وما كان كذلك لا بد وأن يكون غير متناه، وإلا لزم كونه محتاجاً إلى المكان، وإذا لم يكن متناهياً فلا يتصور فيه الحلول، لأن الحلول يلزمه أن يكون محدوداً، وإذا فرض كونه محدوداً كان متناهياً. وأيضاً الحال يفتقر إلى محل يحل فيه، وإذا افتقر إلى المحل كان ممكناً، والمفروض كونه واجباً، هذا بالإضافة إلى أن الحلول في مكان يستلزم الخلو من المكان الآخر وهو سبحانه موجود في كل مكان.

واتحاده مع غيره على أن يكون هو وذلك الغير شيئاً واحداً محال أيضاً، ويترتب عليه ما ذكرناه من اللوازم الباطلة التي لا يمكن تصورها فضلاً عن التصديق بها وفكرة الاتحاد قد غزت المسلمين عن طريق المسيحيين القائلين باتحاد الناسوت باللاهوت كما ذهب إلى ذلك بعض

الكتاب والواقع أن ما يسميه المسيحيون باتحاد الناسوت باللاهوت دخل على المسيحية عن طريق التصوف الصيني الذي سبق المسيحية بمئات السنين.

والحلول والاتحاد هما المرحلة الأخيرة من مراحل التصوف وقد اشتهر أبو زيد البسطامي والجنيد والشبل بالقول بالاتحاد، كما اشتهر الحسين بن منصور المعروف بالحلاج بالحلول وعلى أساسه قتل سنة ٣٠٩ وينسب القول به محمد بن نصير النميري وجماعة من الغلاة الذين ظهروا في عصر الإمام الحسن العسكري(ع)، وقد تبرأ منهم وكفرهم وأمر أصحابه بالبراءة منهم ومطاردتهم كما كفرهم علماء الشيعة في مختلف العصور.

ويكاد الفرق بين الحلول والاتحاد أن يكون اعتيادياً ذلك لأن الاتحاد يرجع في واقعه إلى اتحاد المخلوق مع الخالق، كما يرجع الحلول إلى أن الخالق قد حل في المخلوق واتحد معه في نهاية الأمر، ويختلفان عن وحدة الوجود التي ذهب إليها محي الدين المعروف بابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هجرية لأنه يعني بوحدة الوجود أن الوجود بكل ما فيه من الموجودات المتعددة حقيقة واحدة وهي الله سبحانه وما تراه العين من الأشياء في عالم الحس هو عبارة عن صور وصفات وأسماء جوهرها واحد، فالجماد والنبات والحيوان والإنسان وكل وجود هو الله لا غير، وإلى غير ذلك من أقوال الصوفية وشطحاتهم التي لا تقرها الأديان ولا تتفق مع العلم والمنطق في شيء، وكانت أهدافهم من وراء تلك الشطحات تشويه الإسلام وأصوله بعد أن عجزوا عن مقاومة الزحف الإسلامي الذي اكتسح بلادهم بما فيها من دول ومعتقدات بتعاليمه السهلة السمحة في بضع سنوات معدودات.

# صفات الخالق

تنقسم الصفات إلى ثبوتية وسلبية، فالثبوتية هي التي تثبت له ما يليق بذاته كالقدرة والعلم والكلام والسميع البصير وما إلى ذلك من صفاته وخصائصه، وأما السلبية فهي التي تنفي ما لا يليق بذاته كالقدم والبقاء والوحدانية، فإن معنى كونه قديماً أنه لا أول له ومعنى بقائه أنه لا آخر له، ومعنى وحدانيته أنه لا ند ولا شريك له.

# القدرة

والمراد من صفة القدرة الثابتة لذاته هو كونه قادراً على الفعل وعلى عدمه، أي أنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، أي لا شيء من الفعل والترك ضروري للفاعل كما ذهب لذلك المتكلمون وأهل الأديان، وأضافوا إلى ذلك أن الله سبحانه قد أوجد الكون على نظامه الحالي وترتيبه بمشيئته، ولو لم يشأ لم يكن ولم يوجد.

وقال الفلاسفة: إن إيجاد الكون من لوازم ذات الله سبحانه بنحو يستحيل انفكاكه عنه وعدم إيجاده بحال من الأحوال، أي أن مشيئته للفعل من لوازم ذاته التي لا تنفك عنها، لأن الفعل فيض منه والفيض كالعلم من صفات الكمال، وعدمه نقص كالجهل والله سبحانه منزه عن الجهل والنقصان.

وقد رد المتكلمون على الفلاسفة الذين اعتبروا المشيئة من لوازم ذاته بما حاصله أن مشيئة الله إذا كانت من لوازم ذاته لم تكن مقدورة له ولم يكن مختاراً فيما يصدر وصدر عنه من الخلق والتدبير وأن جميع ما صدر عنه يلزم أن يكون قد صدر عنه قهراً ومن اللوازم الطبيعية لذاته كحرارة النار وبرودة الماء ونحو ذلك كما يلزمهم أن يلتزموا بقدم العالم لأن فعله من لوازم ذاته على حد زعمهم وذاته سبحانه قديمة فأفعاله لا بد وأن تكون قديمة تبعاً لذاته لاستحالة تخلف الأثر عن المؤثر والمعلول عن علته.

وأجاب الفلاسفة بما حاصله بأن كلمة القادر لا تعني أكثر من أن الفعل المقدور يصدر عن الفاعل بإرادته واختياره سواء أكان مقارناً لوجود الفاعل في الزمان أو متأخراً عنه، وما دام الكون صادراً عن مشيئة الله سبحانه فيتصف الله بالقدرة كما وأنه لا يلزم من كون مشيئة الله ملازمة لذاته أن يكون الله غير مختار في فعله ويصدر عنه الفعل قهراً، كما تصدر الحرارة عن النار على حد تعبيرهم لأن تبعية المشيئة للذات وكونها من لوازمها لا يمنع من كون الخلق والتدبير وكل أفعاله تصدر بإرادته واختياره أي أنه لا بد وأن يختار الخلق والتدبير لأن اختياره فيض منه والفيض كمال وعدمه نقصان والله منزه عنه.

وهل تعم قدرته جميع الأشياء والمقدورات حسنة كانت أو قبيحة أو أنها لا تشمل غير الحسن، أما القبيح فلا يقدر عليه، فقد جاء عن الأشاعرة والإمامية وأكثر المعتزلة أن جميع الأشياء الحسن منها والقبيح داخل تحت قدرته لأن المقتضى للقدرة هي ذاته تعالى ونسبتها لكل منهما واحدة، غير أن الأشاعرة يدعون بأن الله لا يقبح منه شيء وكل ما يفعله يصبح حسناً ولو كان قبيحاً بنظر الناس.

وفي مقابل رأي الأشاعرة ذهب الإمامية وأكثر المعتزلة إلى أن لله داعياً إلى فعل الحسن ولا صارف له عنه، ولا داعي له لفعل القبيح وفي الوقت ذاته له صارف عنه، في حين قدرته عليه، ومع وجود القدرة والداعي يجب الفعل، ومع عدم الداعي لا يجب عليه، وعلى أساس ذلك يكون فعل القبيح بالنسبة إليه ممكناً بالذات لقدرته عليه وممتنعاً بالعرض لعدم الداعي إليه.

وقال النظام أحد أقطاب المعتزلة: إن الله لا يقدر على القبيح، لأنه مع العلم بقبح الفعل يكون فعله سفهاً، ومع الجهل بقبحه يكون نقصاً وكلاهما محال عليه سبحانه. وكلامه هذا لا يدل على أكثر من أن القبيح لا يصدر منه سبحانه ولا ملازمة بين ذلك وبين عدم قدرته عليه.

# التجسيم والتشبيه

من المتفق عليه بين الشيعة الإمامية منذ تأسيس التشيع في فجر الإسلام وحتى عصرنا الحالي، وسيبقى من صلب المعتقدات الشيعية، أن الله سبحانه ليس بجسم ولا بجوهر ولا عرض ولا في جهة أو زمان ومكان ولا يتحد بغيره أو يحل في شيء من مخلوقاته، ذلك لأنه لو كان جسماً لكان حادثاً مفتقراً إلى حيز ومكان يحويه ويحل فيه، ولو كان في مكان أو جهة لخلت منه بقية الأمكنة والجهات ولزوم كون المكان الذي حواه والجهة التي هو فيها قديمان مع العلم بأنه لا قديم غيره وكل ما في الكون حادث من فيضه، هذا بالإضافة إلى أنه من لوازم التجسيم افتقاره إلى الغير كما بينا في الفصول السابقة.

ولو كان عرضاً لكان قائماً بغيره ومحتاجاً لسواه كما هو الشأن في غيره من الأعراض والماهيات التي يتوقف وجودها على غيرها.

قال الظاهرية أتباع داوود الظاهري المتوفى سنة ٢٧٠، وغيرهم من الحنابلة والكرامية ومن يجمعهم اسم المشبهة كالصوفية من حيث إنهم شبهوا الخالق بالمخلوق بما في ذلك أكثر الفرق الإسلامية، قالوا: أن الله جسم ولكنهم اختلفوا في تركيبه وشكله ومكانه فمنهم القائل بأنه مركب من

لحم ودم وأنه على صورة شاب أمرد، وأضاف إلى ذلك جماعة من صوفية القرن الثالث أنه يمشي في الشوارع والأسواق ويلتقيه الناس ولا يعرفونه، وقال بعض المشبهة من الحنابلة أنه على صورة شيخ أشمط، وأضاف إلى ذلك بعضهم بأن طوله سبعة أشبار بشبر نفسه وأنه يجلس على العرش ويئط من تحته أطيطا، أي يحن إليه حنيناً وأنه يزيدعن عرشه من كل ناحية أربعة أصابع وينتقل من مكان إلى مكان، وقال بعضهم: إنه يسكن على العرش من الجهة العليا ليشرف على خلقه، وأضاف إلى ذلك بعضهم بأنه يركب حماراً وينزل عن عرشه في كل ليلة جمعة وينادي هل من تائب؟ فأتوب عليه؟ هل من مستغفر لأغفر له.

وقال داوود الظاهري وأتباعه من المجسمة: إن الله بعد طوفان نوح بكى على الناس حتى رمدت عيناه فعادته الملائكة من مرضه هذا الذي استمر به زمناً طويلا.

ولعل المشبهة والمجسمة من أهل السنة قد أخذوا فكرة التجسيم والتشبيه من ظواهر بعض الآيات ومن الأحاديث التي رواها أبو هريرة وأمثاله من الكذبة على رسول الله ﷺ ودونها محدثو السنة كالبخاري وأمثاله في مجاميعهم من غير تدبر لمضامينها ولا تحقيق في أسانيدها.

ومن المعلوم أن السنة أنفسهم يلتزمون بتأويل القرآن في كثير من الموارد وبدون سبب لذلك كما يبدو للمتتبع في تفاسيرهم ومجاميعهم، ويقفون مع النص الحرفي لبعض الآيات مع وجود عشرات القرائن والأدلة على أن المدلول الظاهري لتلك الآيات غير مرادفها، ولا يمكن إرادته لما يترتب عليه من المحاذير التي لا يمكن الالتزام بها ومجاراتها في حين أن تفسير اليد بالقدرة في الآية: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ والوجه بآثاره أو رعايته في الآية ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾، وتفسير مجيء الرب في الآية وجاء ربك بالأوامر والنواهي والآيات البينات على وجود وتفسير الاستواء على العرش

بالاستيلاء على الكون إلى غير ذلك من التأويلات. هذا النوع من التأويل الذي يلتزمه الشيعة لتنزيه الله عما ألصقه به أكثر أهل السنة ليس بعيداً عن ظواهر تلك الآيات ولا غريباً عن مؤدياتها ومضامينها وتفرضه الأدلة العقلية والنقلية التي تنزه الله عن كل ما يشبه مخلوقاته.

وقدنقل الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه القرآن والفلسفة عن فخر الدين الرازي أن أول من قال بالتشبيه والتجسيم في الإسلام هم الروافض كما نسب إليهم ذلك غيره من مؤلفي السنة، وليس ذلك بغريب على مؤلفي السنة وعلمائهم فقد نسبوا إليهم القول بالحلول والاتحاد والغلو وغير ذلك من مقالات محدثي السنة وفرقهم، فالحلول والاتحاد والتناسخ والجبر والتجسيم وغير ذلك من المقالات التي تجر من ورائها الكفر والإلحاد كلها ظهرت في أوساطهم بين الظاهرية والأشاعرة وبعض المعتزلة والصوفية الذين ينتمون بأغلبيتهم الساحقة إلى المذاهب السنية كما أثبتنا ذلك في كتابنا بين التشيع والصوف. ومنذ وجد التشيع في مطلع الدعوة الإسلامية لم يذهب أحد ممن ينتسبون إليه إلى القول بالتجسيم، وقد ألف علماء الشيعة مئات الكتب في تنزيه الخالق عن التشبيه والظلم وإرادة المعاصي وفعل القبيح والتكليف بما لا يطاق وما إلى ذلك من المواضيع التي أجازها عليه الأشاعرة وجماعة من المحدثين وقادة الفرق السنية وقد حكم جماعة من فقهاء الشيعة وعلمائهم بكفر المجسمة، وجاء عن الإمام الرضا وغيره من أئمة أهل البيت عليهم السلام إن من قال بالتجسيم والجبر فهو كافر. أمابقية الصفات كالسميع والبصير والحي والمريد والدائم والباقي وغيرها فهو سميع وبصير ولكن لا بآلة ولا جارحة ومعنى سمعه وبصره أنه محيط بما يصلح أن يسمع ويبصر، وعلى ذلك فمرجع حقي السمع والبصر بالنسبة إليه إحاطته بكل شيء وعدم خفاء شيء عليه، لأن السمع والبصر الثابتان له لو كانا بآلة تشبه الآلات الموجودة لدى سائر مخلوقاته لزم كونه جسماً مركباً من أجزاء

متباينة ومختلفة لكل جزء منها وظيفة تخصه وتختص به وذلك من المحالات بالنسبة إليه تعالى.

وقال الشيخ المفيد في أوائل المقالات: إن استحقاق القديم سبحانه لهذه الصفات كلها من جهة السمع دون القياس ودلالة العقل وأن جميعها لا تعني أكثر من علمه وإحاطته بالمسموعات والمبصرات، ومضى يقول: أنه لا خلاف بين شكلي الإمامية في شيء من ذلك ولم يخالف في ذلك سوى معتزلة البصرة والمشبهة من محدثي السنة وفقهائهم.

ونسب الإيجي في صفحة ٨٩ من المواقف إلى أنهما صفتان زائدتان على العلم كما تقتضيه ظواهر النصوص القرآنية، كما وأنه يدعي بأن الأكثرية الغالبة من المعتزلة تتفق مع الأشاعرة في ذلك.

وأما الحياة بالنسبة إليه تعالى فليس معناها أن فيه قوة تستطيع النمو والاعتدال كما هو الحال بالنسبة إلى الحيوان والنبات، بل معناها بنظر الإمامية القائلين بأن صفاته عين ذاته يرجع إلى معنى سلبي أي ليس بمحال عليه أن يعلم ويقدر على كل شيء وبعد أن ثبتت قدرته وعلمه فلا بد وأن يكون حياً. وذهب الأشاعرة وبعض المعتزلة القائلين بأن صفاته غير ذاته أنها صفة توجب صحة العلم الكامل والقدرة الشاملة، إذ لولا اختصاصه بصفة توجب صحة العلم والقدرة لكان اختصاصه بهما عن غيره ترجيح بدون مرجح كما جاء ذلك في شرح التجريد صفحة ١٧٧ والمواقف للايجي صفحة ٨١. وأما كونه مريداً فقد اتفق الجميع على ثبوت هذه الصفة له، بدليل أنه قد أوجد بعض الممكنات دون بعض في حين أن قدرته تضم جميع الممكنات وعلمه محيط بجميع الكائنات، ولا سبب لذلك إلا تعلق إرادته ببعضها دون البعض الآخر.

وقد اختلفوا في المراد من إرادته سبحانه، فأبو الحسين الصالحي

والنظام والجاحظ والعلاق وأبو القاسم البلخي وغيرهم من قادة المعتزلة ذهبوا إلى أنها عبارة عن علمه بما في الفعل من المصالح والمنافع ويسمونها بالداعي إلى إيجاد الفعل، كما فسرها غير هؤلاء من الأشاعرة والحنابلة بأنها صفة زائدة على العلم ومغايرة لذاته تعالى.

وجاء في أوائل المقالات للشيخ المفيد أحد أقطاب الشيعة في القرن الرابع الهجري، إن إرادته لأفعاله هي نفس أفعاله، وإرادته لأفعال خلقه هي أمرهم بتلك الأفعال، وأضاف إلى ذلك أن هذا المعنى للإرادة يتفق مع ما جاء من الآثار عن الأئمة بهذا الخصوص وهو مذهب الإمامية إلا من شذ منهم.

# كلام الله

لقد اتخذت هذه المسألة مظهراً من أعنف مظاهر الصراع العقائدي بين المسلمين في الشطر الأخير من القرن الثاني وامتد إلى أواسط القرن الثاني، وقد تعرض بسببها بعض المناصرين لأحد الرأيين للقتل، وتعرض آخرون للسجون ولأسوأ أنواع التعذيب من الحاكمين، والذي سبب حدة الصراع بين المعتزلة من جهة والمحدثين والفقهاء من جهة أخرى تدخل الحاكمين ومساندة فريق منهم إلى المعتزلة أولاً، ومساندة فريق آخر إلى المحدثين والفقهاء بعد انقراض عصر المأمون والمعتصم والواثق وكانت فكرة خلق القرآن هي التي فجرت الصراع بين الفريقين. ولا بد وأن يكون لمصلحة الحاكمين لأنهم حينما يتدخلون في المواضيع الدينية لا بد وأن يكون ذلك لمصلحتهم، وقد حدثت بين الفريقين خلافات في أكثر المسائل ومن بينها من كانت صلته بالدين أوثق كمسألة خلق الأفعال ونحوها ومع ذلك فلم ينته الخلاف فيما بين الفريقين إلى الحدود التي انتهى إليها في مسألتي كلام الله وخلق القرآن حث اتسع العداء بينهم وبين غيرهم من العلماء والمحدثين. وأصبح اسم المعتزلة عندهم يرمز إلى الإلحاد والزندقة والتمرد على نصوص الوحي، كما أصبح المحدثون ينظر المعتزلة يمثلون الجمود والتقليد الأعمى للسلفيين. ومهما كان الحال فلقد اتفق الحاكمون مع المعتزلة على أن القول

بعدم خلق القرآن كما يدعي المحدثون يضاهي قول النصارى في المسيح ويؤدي إلى القول بتعدد القدماء، ومهد لهذه الأفكار أحد فقهائهم أحمد بن أبي داود وكان من المقربين إلى المأمون العباسي وأوثقهم في نفسه فكتب إلى الولاة في العواصم الإسلامية أن يخيروا الفقهاء والمحدثين في مسألتي كلام الله وخلق القرآن وفرض عليهم أن ينزلوا أشد العقوبات بكل من لا يرى رأي المعتزلة في هذه المسائل.

ومجمل القول في تحديد الصراع في هذه المسألة أنه هل هناك أمر آخر وراء هذه الألفاظ يسمى كلاماً حقيقة، أو أن الكلام الحقيقي هو هذه الألفاظ، فقال الأشاعرة: إن الكلام الموجود في الكتب السماوية ليس بكلام الله حقيقة، وإن كلامه قديم قائم بذاته تعالى تماماً كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها من صفاته وهي الكلمات المسطورة في الكتب السماوية التي نستعملها ونتلفظ بها تعبر عن الكلام الحقيقي القائم بذاته، وأسرف بعض الحنابلة إسرافاً لا مبرر له فقال بأن جلد المصحف والغلاف الذي يوضع فيه والحبر الذي كتب به كل ذلك أصبح قديماً بعد أن كان حادثاً قبل استعماله لتغليف القرآن وكتابته، وأضاف إلى ذلك الأشاعرة في معرض تأييدهم لما ذهبوا إليه، بأن اللفظ إذا لم يعبر عن صفة في النفس يكون لفظاً مجرداً أشبه بلفظ الببغاء، وبأن كلام الله صفة له وكل ما هو صفة لذاته لا بد وأن يكون قديماً كذاته ويعبرون عن تلك الصفات بالكلام النفسي، أما الأصوات والحروف والكلمات الموجودة في الكتب السماوية فليست كلاماً على وجه الحقيقة بل هي معبرة عن كلامه وحاكية له، ولذا فإنها قد تختلف بالأزمنة والأمكنة واللغات، والكلام الحقيقي لا يختلف ولا يتغير، وكما تدل عليه الألفاظ تدل عليه الإشارة والكتابة وهو مغير لتلك الدلالات بجميع أنواعها. إلى غير ذلك مما جاء في أدلتهم البعيدة عن منطق الدين والإسلام.

وقال الإمامية والمعتزلة: أن كل من يوجد كلاماً يدل على معنى فهو متكلم، والمعاني القائمة في النفس لا صلة لها بالألفاظ ودلالتها فكلام الله هو نفس الكلمات الموجودة في التوراة والإنجيل والقرآن وهي حادثة كسائر الكائنات، ولا يلزم من القول بحدوثها أن يكون الله سبحانه محلاً للحوادث، لأنه يخلق الكلام في الشجرة واللوح المحفوظ وعلى لسان جبرائيل، بل وعلى لسان النملة التي تحدثت مع سليمان كما حكى الله عنها في كتابه، وعلى أساس ذلك يمكن القول بأن التكلم بالنسبة إليه تعالى كالخلق والرزق من الصفات التي تنسب إلى الذات بعد حدوث منشئها ولا كالعلم والقدرة والحياة.

وقال العلامة الحلي في كتابه كشف الحق ونهج الصدق: لا شك في أن الله سبحانه متكلم بمعنى أنه أوجد صروفاً وأصواتاً مسموعة قائمة بالأجسام كما كلم موسى من الشجرة فأوجد فيها الأصوات والحروف، ومضى يقول: إن الأشاعرة فيما ذهبوا إليه خالفوا عقولهم وعقول سائر البشر وأثبتوا له كلاماً لا يفهمونه هم ولا غيرهم والعقل والسمع يتطابقان على أنه كلامه محدث ليس بأزلي لأنه مركب من الحروف والأصوات ويمتنع اجتماع حرفين دفعة واحدة فلا بد وأن يكون أحدهما سابق على الآخر والمسبوق حادث بالضرورة والسابق على الحادث بزمان متناه حادث بالضرورة.

وجاء على الإمام الهادي الذي عاصر ذلك الصراع المرير بين الفريقين الأشاعرة والمحدثين من جهة والمعتزلة من جهة أخرى وسمع إسراف الفريقين وغلوهم في تأييد آرائهم ومذاهبهم الذي اتسم بالتعصب والانتقام، جاء عنه أنه قال: نحن نرى أن الجدل في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب فتعاطى السائل ما ليس له وتكلف المجيب ما ليس عليه وليس

الخالق إلا الله وما سواه مخلوق والقرآن كلام الله لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين.

وجاء عن الإمام الصادق أنه قال: القرآن محدث غير مخلوق وغير أزلي مع الله سبحانه.

إلى غير ذلك من المرويات الكثيرة عن الأئمة عليهم السلام التي أنكروا فيها على المعتزلة استعمال بعض الأوصاف لكلامه تعالى كما أنكروا على الأشاعرة قولهم بأنه قديم قائم بذاته كالعلم والقدرة وغيرهما من صفاته تعالى بل هو محدث وغير أزلي كما نصت عليه ذلك رواية الإمام الصادق عليه السلام وأشارت إليه الآية من سورة الأنبياء.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

# علم الله

إن الله يعلم ذاته والكون بما فيه من أحداث كلية وجزئية، ولا يتقيد علمه بزمان ومكان، كما وأن علمه بالجزئيات كعلمه بالكليات، وقد استدل المتكلمون على علمه تعالى بأنه قد أوجد الموجودات على أصلح الوجوه وأنفعها ونظمها تنظيماً دقيقاً محكماً وتاماً وأعطى لكل شيء خلقه، ولا شيء أدل على علمه من الإحكام والإتقان وهو من البراهين الملموسة التي لا تقبل التشكيك والتأويل.

كما استدل الفلاسفة على علمه بما حاصله أن كل شيء سوى الله من الممكنات، وكل ممكن مستند إليه سبحانه إما ابتداء أو بالوسائط فذاته إذن هي العلة لكل شيء، وهو يعلم ذاته بالضرورة، والعلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول.

وقيل أن الله لا يعلم الجزئيات والحوادث الفردية، ولا يمكن أن يجهلها لأن الجهل بها نقصان والله منزه عنه، والعلم بها يستدعي محذورين الأول أنه لو علم بالجزئيات لأصبح الممكن واجباً لأن علمه لا ينفك بحال من الأحوال عن المعلوم فإذا علم بوجود شيء فلا بد وأن يوجد وإلا انقلب علمه خطأ وجهلاً والله منزه عنهما.

والمحذور الثاني أن الجزئيات تتغير وتتبدل حيث توجد بعد أن تكون معدومة وتنعدم بعد وجودها وهي في تغير دائم، ولو علم الله لزم أن يتغير علمه ويتبدل تبعاً لتغير الجزئيات وتبدلها لأن العلم صورة مطابقة للمعلوم مع أن علم الله ثابت على وتيرة واحدة ولا يتجدد في حالة من الحالات.

وفراراً من هذين المحذورين قال الفلاسفة: إن الله لا يعلم الجزئيات المتغيرة ابتداءً بلا واسطة وإنما يعلمها عن طريق أسبابها وعللها لأنه يعلم ذاته والعلم بذاته علم بكل شيء لأنها هي العلة الأولى والمرجع لجميع الأشياء إما ابتداء أو بتوسط العلل الثانوية والعلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول. ولعل أفضل ما قيل في دفع هذا الشبه والاحتمالات التي لا تمت للواقع بصلة من الصلات، هو أن الله يعلم الجزئيات بذاتها وأسبابها كما يعلم الكليات ولا يلزم من ذلك تغيير وتبديل في علم الله لأن علمه بالجزئيات لا يعني أكثر من نسبة الجزئي وإضافته إلى علمه فإذا انتفى الجزئي تنتفي إضافة وجوده إلى علمه أما علمه به فيبقى كما هو بدون تغيير وتبديل، فإذا وجد زيد مثلاً ينسب وجوده إلى علم الله ويضاف إليه، فإذا انعدم زيد تنتفي نسبته لا غير إلى علم الله أما العلم به فلا ينتفي وهو باق لا يتغير. ومهما كان الحال فقد نص القرآن الكريم على أنه يعلم الكليات والجزئيات بذواتها وأسبابها كما يعلم الجواهر القائمة بغيرها والموجودات الخارجية والذهنية ولا يغرب عن علمه شيء مهما كان نوعه ولونه كما تنص على ذلك الآية التالية: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

وجاء في آية ثانية من سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

وفي آية من سورة ق ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي أثبتت له العلم بجميع الكائنات والأشياء صغيرها وكبيرها وحتى ما توسوس به نفس الإنسان من الخطرات وبعد ذلك يكون الحديث عن الجزئيات والكليات والتفصيل بينها من الفضول الذي لا محل له.

# الصفات والذات

بعد الاتفاق على ثبوت صفات الكمال لله وقع الخلاف بينهم في أنها عين ذاته أو أنها غيرها وزائدة على الذات، ولا بد لتوضيح محل الخلاف وتحقيق ما ينبغي المصير إليه من البيان التالي:

لا مجال للخلاف في أن صفات الخالق على نوعين: نوع لا ينفك عن ذاته تعالى بحال من الأحوال بنحو يكون ثبوت الوصف عين ثبوت الذات كالحياة والقدرة والعلم وما إلى ذلك صفاته الثبوتية، ونوع من صفاته ينفك عنه وهي صفات الأفعال التي تتجدد وتوجد بعد أن لم تكن، وبلا شك في هذا النوع من الصفات كالخالق والرازق ونحوهما، وهذا النوع من الصفات لا بد وأن يكون حادثاً ومتأخراً عن الذات، لأن اتصافه بالخلق والرزق والمالك إنما يصح بعد وجود المخلوق والمرزوق والمملوك وكما يبدو أن النوع من الصفات خارج عن محل الخلاف بين المتكلمين والفلاسفة، لأن من يذهب إلى أن هذا النوع من الصفات الإضافية الحادثة هي عين ذاته عليه أن يلتزم بأن الله حادث كما وأن القول بأنها غير ذاته ولكن ذاته محل لها يلزمه أن يقول بأن الله محل للحوادث، ولم يذهب لذلك أحد، واتفقوا على أن هذا النوع من الصفات الإضافية هي غير ذاته وزائدة عليها.

وكما يخرج عن محل النزاع هذا النوع من الصفات الإضافية تخرج عن نزاعهم الصفات المجازية، مثل مريد وكاره وغضبان ومبغض ومحب وكاره ونحو ذلك لأن المعنى المراد من كونه تعالى مريداً هو علمه بالمصلحة ومن كونه كارهاً علمه بالمفسدة ومن كونه مبغضاً وغضباناً أنه يعاقب ويحاسب إلى غير ذلك من الصفات المجازية التي ترمز إلى غيرها من المعاني.

ومن ذلك يتبين أن محل الخلاف إنما هو في الصفات الذاتية كالعلم والقدرة والحياة ونحوها لا في الصفات المجازية ولا في الإضافية.

وقد ذهب الإمامية وجماعة من المعتزلة إلى أن صفاته الذاتية هي عين ذاته وأنه قادر بذاته لا بقدرة غير الذات زائدة عليها وعالم وحي بذاته لا بعلم وحياة زائدتين عليها وهكذا غيرها من الصفات الذاتية، وقد استدلوا لذلك بأن القديم واحد لا غير وليس في الأزل غيره وكل ما عداه ممكن وكل ممكن حادث، ولو افترضنا أن صفات الله غير ذاته فإما أن تكون قديمة أو حادثة، وعلى الأول يلزم تعدد القديم، وعلى الثاني يلزم أن يكون الله قد وجد في الأزل بدون علم ولا حياة ولا قدرة لأن المفروض أن هذه الصفات قد حدثت بعده وكلاهما فيتعين أن تكون صفاته عين ذاته ونفس حقيقته.

وقال الأشاعرة أن صفاته قديمة وزائدة على ذاته وأنه عالم بعلم وقادر بقدرة واستدلوا على ذلك بقياس الغائب على الحاضر وقالوا: لقد رأينا أن العالم هو الذي يقوم به العلم فكذلك الحال بالنسبة إليه تعالى، وقد غاب عن هؤلاء أن قياس شيء على شيء إنما يصح مع وجود علة مشتركة بين الطرفين، والله ليس كتله ليصح قياس الإنسان أو غيره عليه، هذا بالإضافة إلى أنه يلزم أن يكون الله مفتقراً إلى غيره وهو العالم إذ لولاه لم يكن عالماً وأن يكون مقتصراً إلى القدرة التي لولاها لم يكن قادراً مع أن الله سبحانه غني لا يحتاج لشيء ويحتاج إليه كل شيء، ويلزم بالإضافة إلى ذلك أن

يكون مركباً من أجزاء كثيرة، وكل مركب ممكن كما تقرر ذلك في محله، ويلزم أيضاً تعدد القديم، وقد قال فخر الدين الرازي في معرض رده عليهم: أن النصارى أثبتوا ثلاثة قدماء والأشاعرة أثبتوا تسعة.

وخير ما قيل في المقام أن البحث عن صفات الله وأنها عين ذاته أو غيرها من البدع والفضول الذي لا يترتب عليه أي فائدة من الفوائد فالله سبحانه لم يكلف عباده بأكثر من إقرارهم له بالقدرة والحياة والعلم والخلق والرزق وما إلى ذلك من صفات الكمال والجلال والجمال أما كيف هي وكيف حالها وهل هي عين الذات أو غيرها ونحو ذلك من الكيفيات فالعقول مهما سمت واتسعت آفاقها تظل قاصرة وعاجزة عن إدراك حقيقتها وواقعها وكيفية اتصافه بها، وكل ما يمكنها إدراكه ويجب عليها الإقرار به والاطمئنان إليه أنه ليس كمثله شيء وهو الخالق لكل شيء وبيده الرزق والموت والحياة وكل صفات من صفات الجلال والجمال والكمال فهي ثابتة له لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

# الحسن والقبح العقليان

يعتقد الشيعة الإمامية بالحسن والقبح العقليين، والمراد منهما هو حكم العقل ابتداء بحسن بعض الأفعال وقبح بعضها بنحو يكون الشرع مقرراً وموافقاً لما حكم به العقل.

فالصدق والوفاء وشكر المنعم والإحسان هذه الصفات يتسحسنها العقل ويستحق المتصف بها مدحاً ومثوبة، والظلم والتعدي والخيانة كل هذه الصفات توجب ذماً وعقوبة بنظر العقل أيضاً، ولا يتوقف حكم العقل بقبح هذه وحسن تلك على الشرع.

وخالف في ذلك الأشاعرة فقالوا أن الحسن والقبح شرعيان والعقل لا رأي له في حسن شيء أو قبحه، والمعول في ذلك على الشرع، فما حكم بحسنه فهو الحسن، وما حكم بقبحه فهو القبيح، وفي ذلك مخالفة لما فطر عليه الإنسان، فإن من نشأ في بلاد لا يعلم بأحكام الشرع ولا يسمع بالشرائع، لو خير بين الصدق والكذب لا يختار على الصدق شيئاً ولولا أنه يراه حسناً بحسب فطرته لما فرق بينهما ورجح أحدهما على الآخر.

ولا نشك في أن من ينكر الشرائع والأديان السماوية يحكم بحسن بعض الأفعال وقبح بعضها ولا يتوقف في ذلك وهذا مما يشهد به الوجدان.

والحسن والقبح كما يراد منهما صفتا الكمال والنقص، كالعلم والجهل

كذلك قد يتصف الشيء بالحسن باعتبار المصلحة الداعية إلى فعله، كما يتصف بالقبح من حيث المفسدة الداعية إلى تركه.

والحسن والقبح بهذين الاعتبارين يرجعان إلى الشيء إما بملاحظة ذاته كما في المعنى الأول، وإما باعتبار ما يترتب عليه من المصلحة والمفسدة كما هو الحال في المعنى الثاني للحسن والقبح.

ويطلق الحسن والقبح على الشيء باعتبار استحقاق فاعله للمدح والذم، فما تعلق به المدح وترتب عليه الثواب يسمى حسناً وما تعلق به الذم وترتب عليه العقاب يتصف بالقبح.

أما الحسن والقبح بالمعنى الأول والثاني فلا أظن أن أحداً يقول بتوقفهما على أمر الشارع فأوصاف الكمال يحكم العقل بحسنها، ولا يتوقف على بيان الشارع والرسول، وكذلك الحال في أوصاف النقص، وهكذا بالنسبة إلى الحسن والقبيح بالمعنى الثاني. فالحكم بحسن ما فيه المصلحة وقبح ما فيه المفسدة لا يخالف فيه أحد ولا يتوقف على حكم الشرع في ذلك، فينحصر النزاع إذن بين الأشاعرة وغيرهم من الإمامية والمعتزلة بالمعنى الثالث للحسن والقبح.

فالإمامية يدعون أن العقل يحكم بحسن بعض الأفعال ومدح فاعلها، وجد الشرع أو لم يوجد، كما يحكم بقبح بعض الأفعال وذم فاعلها أيضاً.

وفيما لا يدرك العقل حسنه أو قبحه لا بد من حكم الشرع فيه لنحكم عليه بالحسن أو القبح، والأشاعرة يدعون أن الحسن والقبح بهذا المعنى إنما يكون من حيث أمر الشارع ونهيه، فما لم يكن منه أمر ونهي لا يدرك العقل قبحه وحسنه لكي يستحق الفاعل مدحاً أو ذماً، ومهما يكن الأمر فالمسألة محررة في كثير من كتب علمائنا الكلامية كالعلامة والمرتضى والمفيد وغيرهم ممن تأخر عنهم، كما هي محررة في كتب السنة كالمواقف للايجي وشرحها للجرجاني والملل والنحل للشهرستاني والمستصفي للغزالي وغيرها.

# القضاء والقدر
# عند الشيعة الإمامية

لقد ورد عن النبي ﷺ: **كل شيء بقضاء وقدر، وورد أن أفعال العباد بقضاء الله وقدره،** وقد وردا في الكتاب والسنة بمعان مختلفة.

منها الخلق والإتمام، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي خلقهن سبعاً وأتمهن سبع سموات، ومنها الحكم والإيجاب كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. ومنها الإعلام والإخبار كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي أعلمناهم وأخبرناهم، وكما ورد القضاء بمعان مختلفة، فقد ورد القدر بمعنى الخلق، كقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وبمعنى الكتابة كقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وورد لغيرهما أيضاً. ومهما يكن الحال فإن أُريد من كون أفعال العباد بقضاء الله وقدره هو الحكم عليهم بها وإيجابها عليهم فلا نمنع من ذلك لأن الحكم عليهم وإلزامهم لا يلزم منه أن يكونوا مجبورين عليها كما سنبين ذلك في مسألة الجبر والتفويض، وكذا إذا أُريد منهما البيان والكتابة أو العلم بأنهم سيفعلونها، ولا يلزم من جميع ذلك ما يتنافى مع مذهب الإمامية.

وأما القضاء والقدر بمعنى الحق والإيجاد فليس في آيات الكتاب وسنة النبي ما يدل عليه فمعنى القضاء والقدر في أفعال العباد هو علم الله سبحانه أو كتابته في اللوح المحفوظ لأفعال عباده، وعلمه بما يفعله العبد أو كتابته لذلك لا يلزم منه كون الإنسان مجبوراً على شيء من الأفعال.

وجاء في بعض المرويات عن الأئمة عليهم السلام ما يشير إلى المراد منهما فمن ذلك ما رواه في الكافي عن الأصبغ بن نباتة أن شيخاً قام إلى علي عليه السلام فقال أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئاً ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره، فقال الشيخ فعند الله أحتسب عنائي، وما أرى لي من الأجر شيئاً. فقال علي عليه السلام أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ فكيف والقضاء والقدر ساقانا، فقال ويحك لعلك ظننت قدراً لازماً وقضاء حتماً لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد والأمر والنهي ولم تأت لائمة من الله لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة عباد الأوثان، وجنود الشيطان وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها.

إن الله سبحانه أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما؟ فقال عليه السلام: هما الأمر من الله والحكم. ثم تلا قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فنهض الشيخ مسروراً وهو يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته — يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً — جزاك ربك عنا فيه إحسانا

فالقضاء والقدر بما لهما من المعنى الذي يقول به الإمامية، كما يظهر من هذا الحديث وغيره، لا يتنافيان مع اختيار العبد بنحو يصح معه الثواب والعقاب.

وبما أن الحديث عن القضاء والقدر كان ولا يزال من أهم المباحث النظرية وأكثرها تعقيداً منذ اتجه المسلمون في العصر الأول إلى المسائل النظرية ومحاكمتها مع أصول الإسلام وتعاليم القرآن، وظلت مسألة القضاء والقدر، أو الجبر والتفويض تفرض نفسها على الباحثين في أُصول العقائد وعلم الكلام وتحتل جانباً كبيراً من تفكيرهم ومؤلفاتهم حتى يومنا هذا.

ولقد وقف الشيعة الإمامية في جانب ووقف غيرهم في جانب آخر، فقال الشيعة لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين بين كما جاء في حديث الإمام الصادق، أي أن الإنسان ليس مجبوراً على أفعاله، ولا هو مستقل في التصرف استقلالاً كاملاً لا رأي لله في شيء منها كما يزعم القدرية من المعتزلة وغيرهم، واستدل الشيعة على ذلك بالإضافة إلى الأدلة العقلية ببعض النصوص القرآنية والمرويات عن الأئمة الأطهار عليهم السلام ولا بد لنا ونحن نمر بهذه المشكلة من عرض موجز لمختلف الآراء والأدلة عليها وما يمكن أن يقال فيها من تصويب وتخطئة.

فمن الأدلة التي ذكرها الإمامية في كتبهم ومناظراتهم أن العاقل لا يغفل عن الفرق بين الحركات الاختيارية وغيرها ويرى نفسه مختاراً في جميع أفعاله وتصرفاته، ويستحسن بنظر العقل أن نمدح فاعل الخير والمحسن إلى الناس، وأن نذم الظالم الجائر والمسيء لغيره، فلولا أن الأفعال من صنع الإنسان وتصح نسبتها إليه بدون تجوز لما استحق مدحاً أو ذماً ولذا فإن

الأفعال التي يكون الإنسان مسلوب الإرادة فيها لا يستحق المتصف بهما ذماً أو مدحاً، لأنه كالآلة بالنسبة إليها.

ومنها أن الله سبحانه أمر عباده بأشياء كثيرة وجعل لها حدوداً ليقف الإنسان عندها ونهاهم عن أشياء، وأراد منهم فعل ما أمرهم وترك ما نهاهم عنه.

قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ والتكليف لا يجوز بحكم العقل إذا كان الفاعل هو الله، لأنه إذا خلق فينا الفعل كان واجب الحصول، وإن لم يخلقه كان ممتنع الحصول، وما كان وجوده واجباً وعدمه ممتنعاً لا يكون مقدوراً وغير المقدور لا يصلح التكليف به عقلاً، لاستناد الشيء إلى أسبق علله وأقواها وإن كان الإنسان شريكاً مع الله سبحانه فالتأثير إنما يكون لأقوى الأسباب وهو الله سبحانه، وإذا لم يكن للعبد شأن في ذلك كانت التكاليف لغواً من الآمر، والمؤاخذة على فعل ما نهى عنه من أفحش أنواع الظلم.

وقد سئل الإمام موسى الكاظم عن المعصية هل هي من الله أو من العبد؟ فقال: لا تخلو من ثلاث، إما أن تكون من الله وليس من العبد شيء، فليس للحاكم أن يؤاخذ عبده بما لم يفعل، وإما أن يكون من العبد ومن الله، فليس للشريك الأقوى أن يؤاخذ الأصغر بذنب هما فيه سواء، وإما أن تكون من العبد وليست من الله، فإن شاء عفا وإن شاء عاقب، ولقد قال بعض الشعراء في ذلك:

لم تخل أفعالنا اللاتي نذم بها ... احدى ثلاث معان حين نأتيها
إما تفرد بارينا بصنعتها ... فيسقط اللوم عنا حين ننشيها
أو كان يشركنا فيها فيلحقه ... ما سوف يلحقنا من لائم فيها
أولم يكن لإلهي في جنايتها ... ذنب فما الذنب إلا ذنب جانيها

وتقريب الدليل بوجه آخر هو أنه مما لا شبهة فيه أن الأفعال تصدر بعد القصد ووجود الداعي وانتفاء الموانع شرعية كانت أم عقلية، كما وأن الترك إنما يكون لوجود الداعي إليه، والصارف عن الفعل فالإنسان إذا جاع وتيسر لديه الطعام وانتفت الموانع عن تناوله لا بد وأن يأكل لا محالة، ومع فرض أن الأفعال من صنع الله سبحانه لا يكون للقصد، ووجود الداعي، وانتفاء الموانع، أثر في وجود الأفعال وتركها، والضرورة تقضي ببطلان ذلك لأن الإنسان إذا لم يكن مقهوراً على الفعل لا يتصور صدوره منه مجرداً عن الداعي إليه والقصد إلى فعله.

ولو قطعنا النظر عن هذه الأدلة، فالوجدان خير شاهد على أن أفعال العباد إنما تصدر عنهم مختارين في صدورها، ويرى الإنسان نفسه حين العمل قادراً على الفعل والترك، وهو الذي نعنيه من الاختيار في المقام.

ويستدل الإمامية على بطلان شبهة الجبر بآيات كثيرة من كتاب الله، والآيات الواردة في المقام منها ما هو صريح في أن الفعل من صنع الإنسان كقوله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وقوله سبحانه حكاية عن قابيل وهابيل ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ وقوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على نسبة الفعل إلى العبد، وكونه صادراً منه من غير أن يكون مجبوراً على ذلك. ولو كان الفاعل غيره أو كان له شريك في ذلك لما صح إسناد الفعل إليه بهذا النحو.

ومن الآيات الكريمة ما هو صريح في مدح المؤمن على إيمانه ووعده بالثواب والدرجات الرفيعة في دار الجزاء، وذم الكافر على كفره، وتهديد المنافقين بالعقاب على كفرهم ونفاقهم، كقوله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وفي آية أُخرى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ وقوله:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ إلى كثير من أمثال هذه الآيات الصريحة في وعد المطيع بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب، وجاء في كثير من آيات الكتاب ما يشير إلى توبيخ العبد على كفره وعصيانه، كقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ وهي إنكار في معرض الإستفهام. وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولو كان سبحانه غير مريد للإيمان كيف يأمرهم به ويوبخهم على تركه. وكيف ينهي عن الكفر وقد أراده وخلقه فيهم، وكيف ينكر عليهم لبس الحق بالباطل ويقول لهم ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾. وإذا كان هو الذي صدهم عن السبيل كيف يقول ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومن النصوص القرآنية ما هو صريح في تخيير العبد في أفعاله، وكونها معلقة على مشيئته قال سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

ويتضمن قسم من الآيات الكريمة الحث على الطاعة والمسارعة إلى عمل الخير والإحسان كقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ ولو كان الإنسان مجبوراً على الفعل لا يجوز أمره بالمسارعة والاستباق، والعاجز عن القيام بأوامر الملولى لا يصح تكليفه بالمسارعة إلى امتثالها، إن هؤلاء أرادوا أن يثبتوا لله القدرة والعظمة، فأثبتوا له الظلم والجور والعبث واللغو، من حيث لا يشعرون.

وقد حكى الله سبحانه عن العصاة والمنافين اعترافهم بالتقصير وعدم قيامهم بما فرض عليهم كقوله ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وقوله ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾.

ولو كان العبد مجبوراً في أفعاله لكان له على الله الحجة البالغة إذا أراد أن يعاقبه على معصيته، وكان له أن ينسب الجور والظلم إلى الله في تعذيب عباده، ولا محل لاعترافهم بالتقصير والتعذيب للرسل، كما هو مفاد الآيات الكريمة، وأي فائدة للرجعة التي يتمناها الكافر والمنافق، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم، إذا لم يكن الفعل تحت سلطان العبد.

قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وغيرهما من الآيات الكريمة الحاكية لطلب الرجعة بلسان العصاة، وإذا لم تكن الأفعال من صنع العبد يكون هذا الطلب لغواً إذ لا اختيار له ليختار الأعمال الصالحة ويتجنب المعاصي.

وأخيراً فالعقل والكتاب والوجدان، هذه الثلاث تشهد ببطلان هذه الشبهة، وتثبت اختيار العبد في جميع تصرفاته وأفعاله، بنحو من أنحاء الاختيار، يخرجه عن الجبر ولا يلحقه بالتفويض ولازم ذلك ثبوت الواسطة التي عناها الإمام عليه السلام بقوله «أمر بين بين»، ذلك لأنهما ليسا كالنقيضين اللذين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ولا كالضدين اللذين لا ثالث لهما، وإنما هما ضدان يمكن ارتفاعهما وثبوت أمر ثالث محلهما، كما كشفت عن ذلك الأدلة العقلية والنقلية.

وإرادته سبحانه المتعلقة بالإيمان والطاعة مع فرض أن العبد ربما يتحقق منه الكفر والعصيان في هذا الحال، لا تستوجب تخلف إرادته عن مراده بالمعنى المستلزم لعجزه وعدم قدرته، وذلك لأن إرادته التكوينية التي هي عبارة عن العلم بالنظام الكامل لا تنفك عن مراده، وإلا لزم انقلاب علمه جهلاً، ولكن لا علاقة لها بما نحن فيه، وإرادته التشريعية ليست إلا العلم بالمصلحة في فعل المكلف ولا يلزم من عدم وجود المراد في حال وجودها التفكيك بينهما وبين المراد.

بيان ذلك أن وجود الشيء خارجاً إذا كان له أكثر من مقدمة لا بد وأن يكون لكل واحدة من تلك المقدمات أثر في جهة من جهات وجوده، ولو اشتركت كلها في جهة واحدة امتنع تعددها وكانت بأجمعها مقدمة واحدة.

ثم أن المصلحة الداعية إلى إرادة الوجود، تارة تقتضي حفظ الوجود من جميع الجهات، وبلحاظ جميع المقدمات، ولازم ذلك تعلق الإرادة به من جميع الجهات بحيث ينشأ من تلك الإرادة النفسية إرادة غيرية بعدد تلك المقدمات تتعلق كل واحدة منها بواحدة من المقدمات.

وأخرى لا تكون المصلحة مقتضية لحفظ وجوده من جميع الجهات، بل يلحظ جهة دون غيرها، ولازم ذلك تعلق الإرادة به من تلك الجهة دون غيرها، وينشأ من تلك الإرادة النفسية إرادة غيرية تتعلق بالمقدمة الحافظة للوجود من جهة تشريع الحكم. وصدور الفعل من المكلف إذا لم يكن مما تقتضيه نفس الطبيعة، يتوقف على أمور ثلاثة: تشريع الحكم، وعلم المكلف به الموجب لحدوث الداعي العقلي إلى فعله، وعدم مزاحمة الداعي العقلي بداعي أقوى منه، فكل من هذه الثلاثة مقدمات لوجود الفعل خارجاً، فيكون تشريع الحكم من مقدمات وجود الفعل ويكون حافظاً لبعض جهات وجوده فالإرادة التشريعية هي إرادة الشي بلحاظ وجوده بعد فرض وجود المصلحة فيه.

وأما الإرادة التكوينية فهي التي تتعلق، بالفعل من جميع جهات وجوده ويستحيل تخلفها عن المراد والحال هذه، وهذا بخلاف التشريعية فلا يستحيل فيها ذلك لأنها تدعو إلى وجود الفعل خارجاً من حيث التشريع لا من جميع الجهات التي يتوقف عليها الوجود، وقد بينا أن الوجود الخارجي يتوقف على أمور ثلاثة منها تشريع الحكم وجعله على المكلف فتكون الإرادة التشريعية من قبيل الداعي إلى وجود الفعل الخارج، ومن هنا يتوجه

سؤال آخر: وهو أن الكفر والإيمان لا إشكال بتعلق إرادته التكوينية بهما من جميع الجهات التي تقتضي وجودهما، وقد فرضنا أنها لا تتخلف عن المراد، فلا يكون ترك الكفر، والإيمان داخلاً تحت اختيار العبد وقدرته، ليصح التكلف بهما، والاختيار معتبر فيه عقلاً.

وبعد ملاحظة ما ذكرنا يتضح الجواب عن هذه الشبهة، لأن تعلق الإرادة بهذين يمكن أن يكون على نحوين: أحدهما أن تتعلق بهما بلا توسط إرادة العبد، كتعلقها بسائر الممكنات الموجودة وثانيهما أن تتعلق بهما بتوسط إرادة العبد بأن يكون الإيمان مثلاً الصادر عن إرادة العبد هو المتعلق للإرادة التكوينية.

فإن كان تعلق الإرادة على النحو الأول لزم كون وجود الإيمان مثلاً خارجاً عن قدرة العبد واختياره، وإن كان على النحو الثاني لزم أن يكون باختيار العبد وإرادته. وإلا لزم تخلف الإرادة عن المراد، لأن الإرادة لم تتعلق به مجرداً عن اختيار العبد، بل تعلقت به بلحاظ صدوره عنه باختياره، فلو وجد الإيمان مجرداً عن اختيار العبد تخلفت الإرادة عن المراد لأن متعلقها الوجود الصادر عن الاختيار لا الوجود المطلق.

ومن أراد أن يتبسط في الموضوع فعليه بمراجعة الكتب الكلامية لعلماء الشيعة كالعلامة والمرتضى وغيرهما.

بقي أن أصحاب الشبهة ربما يتمسكون لإثبات شبهتهم زيادة عما ذكروه بظواهر بعض الآيات الواردة في الكتاب الكريم، ولست في كتابي هذا بصدد ذكر الأدلة ونقضها أو تصحيحها إلا أني أحببت أن أتعرض لبعض نواحي هذه المسألة، لكثرة الأسئلة حولها وحول ظواهر بعض الآيات التي يمكن أن تكون مدركاً لأصحاب شبهة الجبر. لذلك فإني أذكر بعض الآيات، والجواب عنها حسبما هو موجود في كتب علماء الطائفة الذين

تناولوا هذه المسألة في كتبهم المعدة لمثل هذه المواضيع.

فمن الآيات قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وظاهر الآية يقتضي كونه سبحانه هو الموجد للإيمان في نفوسهم، لأن النور هو الإيمان والظلمة هي الكفر، وقد أضاف ذلك إليه سبحانه فيكون هو الفاعل.

وبعد التأمل في الآية الكريمة يتضح أنها بعيدة عما يدعيه أصحاب الشبهة المذكورة لأن النور والظلمة، كما يمكن أن يراد بهما الكفر والإيمان، يجوز أن يراد بهما الجنة والنار، وظاهرها يساعد على المعنى الأخير لهما، لأن إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور بعد فرض اتصافهم بالإيمان كان في رتبته سابقة على الإخراج، ولا يصح والحال ذلك أن يراد بهما غير الثواب والعقاب لأنه فرض ثبوت الإيمان لهم، ومن يثبت إيمانه يخرج من غضب الله وعقابه إلى رضوانه وثوابه، ولو أريد من النور الإيمان ومن الظلمة الكفر، يلزم التناقض في مدلول الآية الكريمة، وعليه يكون مفادها، أن المؤمن بوصف كونه مؤمناً يخرج من الكفر إلى الإيمان، وخروجه من الكفر إلى الإيمان يقتضي كونه كافراً قبل الإخراج وقد فرضنا إيمانه كما هو نص الآية وهو تناقض ظاهر.

ويؤكد ما ذكرناه من معنى الآية قوله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أسند إخراجهم إلى الطاغوت، ولازم ذلك كون الطاغوت هو الفاعل للكفر، لو فسرنا الظلمة والنور بالكفر والإيمان ولا يلتزم بذلك صاحب الشبهة، فلا بد وأن يكون المراد بالنور والظلمة الثواب والعقاب في المقامين، لأن الإخراجين من نوع واحد، وإنما نسب الإخراج إلى الطاغوت، مع أن الله سبحانه هو الذي يدخل العبد جنته وناره، من حيث إنه زين لهم الكفر والتمرد على المولى وصدهم عن

إطاعته، وأغراهم بمعصيته، فصحت هذه النسبة توسعاً وتجوزاً في الكلام، كما وأن نسبة الإخراج من الظلمة إلى النور لله سبحانه، لأنه رغب عبده في الطاعة وقوى في نفسه الدواعي التي تسهلها له بعد وجود بقية المقدمات.

ومن جملة الآيات ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ والمراد من الآية كما يفهم صاحب الشبهة والله خلقكم وخلق الذي تعملونه أي وخلق أعمالكم، وإذا كانت الأعمال مخلوقة لله سبحانه، لا يصح منه أن يعاقب عليها، وإلا كان ظالماً لعباده.

ولكن بعد التأمل في الآية يتضح أن المراد بقوله: وما تعملون هو وما تعملون فيه من الأحجار والأخشاب التي تتخذونها أرباباً تعبدونها من دون الله. والمراد من الآية هو الإنكار عليهم وتوبيخهم على عملهم لأنهم نحتوا الأصنام في الأحجار والأخشاب واتخذوها آلهة لهم مع أن ما ينحتون فيه من مخلوقاته سبحانه فقد عبدوا مخلوقاً مثلهم. فليست الآية في مقام الأخبار عن خلق الأعمال وإنما هي في مقام الإنكار عليهم لأنهم عبدوا صنماً صنعوه في مخلوق من مخلوقاته سبحانه.

ومن جملة الآيات التي استند إليها أصحاب الشبهة، قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

والذي يمكن أن يقال تمشياً مع المجبرة، إن المراد بالغواية هو الضلال، وإذا أراد الله سبحانه أن يضل قوماً لا تتخلف إرادته عن مراده، فلا يبقى أثر لنصح الرسول وإرشاده، وإذا كانت الغواية منه لا يحسن منه سبحانه العقاب عليها وإلا كان ظالماً لعباده، ولو أن المجبرة يلتزمون بجواز الظلم وعدم قبحه لم يبق لنا نزاع معهم في هذه المسألة.

وبعد التأمل في الآية يظهر أن الله سبحانه لم تقع منه الغواية ولم يردها لعباده. وإنما أخبرهم على لسان رسوله، أن نصح النبي لا ينفع إن كان الله

يريد غوايتهم، وجواز وقوع الإرادة منه سبحانه لا يدل على أن المراد بالغواية هو التمادي في المعصية، بل من القريب أن يكون المراد بها هو العقاب، فيكون معنى الآية هو أن نصحي وإرشادي لا يدفع عنكم العقاب ما دمتم مصرين على ما أنتم عليه من الضلال والعصيان، إلا أن تطيعوا وتتوبوا إلى ربكم من سوء أعمالكم.

وقد عبر سبحانه عن العقاب بالغواية في آية أُخرى، قال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾. وهو مصدر مشتق من «غوى».

ومهما يكن فالمراد من الآية أن نصحي وإرشادي لا يدفع عنكم عذاب الله وعقابه، ما دمتم مصرين على سوء أعمالكم.

وفي الأمالي للسيد المرتضى عن جعفر بن حرب أن الآية كانت في طائفة من قوم نوح تدعي بأن الله أراد غوايتهم وعدم إيمانهم به، فنبههم الله سبحانه على فساد مذهبهم على سبيل الإنكار لقولهم أي أن الله كما تقولون وتزعمون يفعل فيكم الكفر والعصيان، فما ينفعكم نصحي ولا تطلبوه مني، وأنتم على هذه العقيدة الفاسدة لأنكم لا تنتفعون به، إذ كان هو الذي يغويكم.

ويمكن أن يكون المراد بها أن النصح لا ينفع الظالم عند عقابه ونزول العذاب به، إذ لو تاب والحال هذه، لا تنفعه التوبة ولا تقبل منه، فلا فائدة في نصحه وإرشاده.

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، وقوله في السورة نفسها: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وفي سورة الأنعام ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وغير ذلك من الآيات التي جعل فيها هداية العبد وضلاله مترتبة مشيئة الله سبحانه.

والجواب عنها أنه ليس في هذا ما يدلنا على أنه قد أضل فريقاً من عباده وهدى فريقاً آخر، بل غاية ما تدل على أنه لو اقتضت مشيئته ذلك لوقع العبد في شريك العصيان والخذلان من حيث قدرته على التصرف بعباده بكل أنحاء التصرفات ولا يتنافى ما عليه الإمامية القائلين بالعدل وعدم جواز القبح عليه سبحانه لأن قدرته على كل شيء لا يستوجب فعل القبيح تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

**وثانياً** ـ أن المراد بالضلال هو أن يسلب العبد ألطافه وفؤاده فيما إذا تواترت عليه الحجج والبراهين، وبقي مصراً على طغيانه وإعراضه عنها، ففي هذه الحالة يبقيه الله على ما يختار ويمنع عنه اللطف الإلهي، والنور الذي يمكن أن يهتدي بواسطته إلى الله سبحانه، ولا تضر في هذه الأحوال نسبة الإضلال إلى الله، لأن العبد بطغيانه وتمرده كان سبباً لإعراضه عنه، وعدم إزاحة الشر من نفسه فتركه على ما هو عليه خذلان منه سبحانه لذلك العبد المتمرد، فليس المراد منها أنه خلق الضلال والهداية بعباده، لا أمرهم بها، ومهما يكن الحال فجميع الآيات التي يمكن أن تكون محلاً للشبهة ليست نصاً فيما يدعون، وظاهر بعضها ـ وإن دل على ذلك ـ ولكن هذا الظاهر لا بد من التصرف فيه بعد قيام الدليل العقلي على عدم جواز نسبة الظلم إليه سبحانه، لاسيما وأن الكثير من آيات الكتاب نص في ما تدعيه الإمامية.

ومن جملة الآيات قوله سبحانه ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ فهي تدل بظاهرها على أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك قوماً ويعذبهم أمر المترفين منهم ففسقوا وكان فسقهم مترتباً على الأمر، فكأنه أمرهم بالفسق أو أمرهم ليفسقوا ومعنى ذلك أنه أراد منهم الفسق ليعذبهم عليه، فلا يكون السبب في العقاب عصيان العبد المنبعث عن اختياره وتمرده على الله سبحانه، بل هو من حيث إرادته لذلك

ابتداء، غايته أنه أمرهم بعد أن أراد عقابهم، ليتحقق منهم الفسق، فكأنه يريد أن ينتقم منهم على كل حال، ولكنه يريد أن يخلق له سبباً للانتقام. وسواء كان مفادها أنه أمرهم بالفسق، أو أراد أن ينتقم منهم فأوجد السبب لذلك، ليصح منه العقاب وأياً كان مفادها فلا يجوز عليه سبحانه.

ويمكن الجواب عنها بأن قوله أمرنا مترفيها، ليست جواباً لقوله وإذا أردنا أن نهلك قرية، بل هو صفة لأهل القرية، فيكون مفادها وإذا أردنا أن نهلك قرية صفتها أنا أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، وخالفوا ما أمرناهم به باختيارهم وإرادتهم.

وعلى هذا تكون إذا بدون جواب ظاهر، وقد استغنى عنه بدلالة الكلام عليه، ونظير ذلك في الاستغناء عن جواب إذا لدلالة ظاهر الكلام عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

وقد ورد حذف الجواب للاستغناء عنه اختصاراً، وعلى هذا لا تكون المعصية مفروضة الوجود قبل أن تتعلق إرادته بعقابهم.

ويمكن أن يكون في الآية تقديم وتأخير، ويكون المعنى على هذا الوجه إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة وفسقوا أردنا هلاكهم وعقابهم.

نظير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ مع أن الغسل إنما يجب قبل القيام إلى الصلاة، والمراد منها هو الأمر بغسل وجوههم وأيديهم عند القيام للصلاة.

وهذا النحو من التصرف بعد وجود الشاهد عليه، لا يتنافى مع ظاهر الآيات الكريمة.

وكما لا يقول الشيعة بالجبر لا يقولون بالتفويض، سواء فسرناه بإرجاع

الأمر إلى العبد، واستغلاله بجميع الأفعال استقلالاً تاماً على وفق مشيئته واختياره، وليس لله في أعماله صنع ولا سلطان له عليه فيما يفعل، أو فسرناه بتفويضه أمر الخلق والرزق إلى بعض عباده، كما يظهر مما رواه الصدوق بسنده عن يزيد بن عمر قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت له يا ابن رسول الله! روي لنا عن الصادق أنه قال: لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين بين فما معناه؟ فقال عليه السلام من زعم أن الله يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها، فقد قال بالجبر، ومن قال أن الله سبحانه فوض أمر الخلق والرزق إلى حججه، فقد قال بالتفويض، فالقائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مشرك، فقلت يا ابن رسول الله! فما أمر بين بين؟ فقال وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه فقلت فهل لله مشيئة وإرادة في ذلك؟ فقال أما الطاعات فإرادة الله ومشيئته فيها الأمر بها والرضا والمعاونة عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي النهي عنها، والسخط لها، والخذلان عليها فقلت فللّه عز وجل فيها القضاء والقدر قال نعم، ما من فعل يفعله العبد من خير وشر إلا ولله فيه قضاء، قلت فما معنى القضاء؟ قال الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم، من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فالرواية تنص على أن التفويض بالمعنى الثاني يؤدي إلى الشرك بالله سبحانه، لأن الخلق والرزق من وظيفة الخالق، ومن أثبتهما لغيره فقد جعل له شريكاً في سلطانه، والتفويض بهذا المعنى قول لبعض الفرق من الغلاة.

وأما التفويض بالمعنى الأول، فيلزمه أن يرضى الله سبحانه عن كل ما يفعله العبد من خير أو شر، ولا يصح منه العقاب والحالة هذه، لأنه ترك لعبده أن يفعل ما يشاء ولا يتدخل في شيء من أُموره وأفعاله.

فنتيجة التفويض بهذا المعنى كنتيجة الجبر من حيث عدم صحة العقاب

على المعصية، وفي شرح عقائد الصدوق للمفيد في تفسير الواسطة بين القولين:

إن الله تعالى أقدر الخلق على أفعالهم ومكنهم من أعمالهم وحدد لهم الحدود في ذلك ونهاهم عن القبائح بالزجر والتخويف، والوعد والوعيد، فلم يكن بتمكينهم من الأعمال مجبراً لهم عليها، ولم يفوض إليهم الأعمال لمنعهم من أكثرها، ووضع لهم الحدود فيها وأمرهم بحسنها ونهاهم هن قبيحها، فهذا هو الفصل بين الجبر والتفويض.

# النبوة

الأصل الثالث عند الشيعة النبوة ـ يعتقد الشيعة الإمامية بنبوة محمد بن عبد الله ﷺ، كما يعتقدون بنبوة من تقدمه من الأنبياء، والمشكك بنبوته كالمنكر لها كافر بإجماعهم.

وأدلتهم على ذلك كثيرة، منها أن الله سبحانه لم يكن لاغياً في خلقه ولا عابثاً في إرادته، وإنما خلقهم لمصالح ترجع إليهم، وهو الغني عن عباده، والغني لا يفتقر لغيره في ما هو غني فيه، ولا بد من إرشادهم لتحصيل تلك المصالح المترتبة على وجودهم ولا يتم ذلك إلا بواسطة من يختاره لأداء تلك المهمة، وهو أعلم حيث يجعل رسالته. وبعد أن خلقهم لمصالح ترجع إليهم، ولم يكن العقل كافياً في إدراك الحسن والقبح في جميع الأفعال، وإنما يدرك حسن بعض الأفعال وقبح بعضها، ولا طريق إلى معرفة ذلك إلا بواسطة الرسول المبلغ عن الله سبحانه.

ومنها أن الله سبحانه كلف العباد بعبادته، وأراد منهم ما يقربهم إليه، فقال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ووصف نفسه باللطف بهم في قوله ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ ولا يمكن التوصل إليه ليعملوا بما يريد، ويتجنبوا عما يكره ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ

يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فلا بد من إرسال الرسول ليكون واسطة بين العبد وربه ليرشدهم إلى ما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه العقاب، ويجمعهم تحت لواء واحد، وعلى شرع واحد، ليعملوا جميعاً لما فيه خيرهم وسعادتهم.

وروي في الكافي عن هشام ابن الحكم، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: من أين تثبت الأنبياء والرسل؟ قال عليه السلام إنا لما أثبتنا أن لنا خلقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً، لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشرهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه وعباده، يعبرون عنه إلى خلقه، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم، وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، المعبرون عنه عز وجل، وهم الأنبياء صفوته من خلقه، حكماء مؤيدين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس، على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم.

ومنها دليل اللطف، وهو ما يكون المكلف معه أقرب إلى الطاعة، وأبعد من المعصية. والرسول تتحقق به تلك الفائدة فيجب على الله سبحانه وإلا كان العقاب منه قبيحاً. وقد حكى الله سبحانه ما يمكن أن يجري على لسان عباده، لو أنه عذبهم قبل إرسال الرسل إليهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ فأخبر أنه لو منعهم اللطف في بعثه الأنبياء، لكن لهم أن يسألوا بهذا السؤال ولا يكون لهم ذلك إلا إذا كان عقابهم قبيحاً.

ومن أراد أن يحيط علماً بهذه المباحث، فعليه أن يرجع إلى كتب الشيعة، فلقد أولت هذه النواحي المزيد من العناية.

ولقد أقام الإمامية الأدلة الكافية لإثبات نبوة سيد الرسل، وخاتم الأنبياء، محمد بن عبد الله ﷺ، الذي أسس مبادئه المقدسة على العدل وخدمة الإنسانية، وأوجد للإنسان نظاماً يأخذ بيده في شتى الميادين.

وذكروا له من المعجزات الدالة على نبوته، ما ثبت صدورها عنه باجماع المسلمين، في جميع عصورهم، ولو لم يكن له إلا شريعته وكتابه الكريم، لكفى بهما دليلاً على أنه رسول من إله لطيف خبير.

# عصمة الأنبياء

لقد كانت العصمة ولا تزال، معركة لآراء الباحثين في الصور الإسلامية الأولى، يوم كان رجال الحكم يريدون أن يشغلوا العلماء والمفكرين بمثل هذه المباحث، لينصرفوا عن سوء تصرفاتهم، وتبقى الخلافة الإسلامية مورداً عذباً ينهلون بواسطتها ما توحيه إليهم الشهوات والأهواء.

كانت العصمة ولا تزال محلاً للجدال نفياً وإثباتاً إلى الأنبياء، وقبل أن نشير إلى الناحية التي كانت معركة لآراء الباحثين، لا بد لنا من التعرض لمعناها. ففي (شرح النهج للمعتزلي) ذهب جماعة إلى أنها عبارة عن وجود خاصية في نفس الإنسان تمنعه من الإقدام على المعصية، وآخرون إلى أنها عدم القدرة على المعصية. ونقل قولاً ثالثاً ادعى أن عليه الأكثر من أهل النظر، وحاصله أن العصمة تكون مع التمكن من الطاعة والمعصية، وتحصل بعد قدرة العبد على كلا الأمرين من أمور أربعة: أن يكون الإنسان قوي الإرادة، لا ينقاد مع شهواته وميوله النفسية، وهو المراد بالملكة المانعة من الفجور، الباعثة على الطاعة. الثاني أن يكون الإنسان عالماً بفوائد الطاعة ومضار المعصية. الثالث وجود البيان من الله سبحانه ووصوله إلى المكلف. الرابع أن يحاسب على الخطأ ولو كان نسياناً أو سهواً. فإذا

اجتمعت هذه الأربعة، ملكة تدعو الإنسان إلى الطاعة، وعلم بمضار المعصية ومنافع الطاعة، وبيان واصل إليه، ومحاسبة على الخطأ ولو كان عن سهو أو نسيان، تحصل العصمة التي هي عبارة عن عدم المعصية خارجاً، فتكون هذه الأربعة مقدمات للعصمة، وهي بهذا المعنى تتفق مع ما عليه الإمامية في معناها.

قال العلامة الحلي: العصمة لطف يفعله الله سبحانه بالمكلف بحيث لا يكون له داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك، لأنه لولا ذلك لم يحصل الوثوق بقوله فتنتفي فائدة البعثة.

وقريب من ذلك ما جاء في كتاب الحق اليقين حيث قال: العصمة عبارة عن قوة العقل من حيث لا يغلب، مع كونه قادراً على المعاصي كلها، وليس معنى العصمة أن الله يجبره على ترك المعصية بل يفعل به ألطافاً يترك معها المعصية باختياره مع قدرته عليها.

واعتبار عدم القدرة على المعصية، كما ذهب إليه بعضهم يستلزم كونه مجبوراً على الطاعة، فلا يبقى محل للثواب، ويتنافى مع التكليف، ويلزم الإكراه في الدين، وقد قال تعالى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ ويلزم كون المعصوم أدنى مرتبة من صلحاء المؤمنين القادرين على المعصية التاركين لها.

والذي عليه الإمامية خلافاً لغيرهم من بقية الفرق الإسلامية هو القول بعصمة الأنبياء قبل البعثة وبعدها، عن جميع المعاصي صغيرها وكبيرها، ودليلهم على وجوبها قبل البعثة، هو أنه لو وقع منه العصيان، وفعل القبيح قبل بعثه، وعرف الناس منه أنه يخطئ ويصيب، ويفعل الأمور القبيحة، لا يمكن أن يركنوا إليه بعد ذلك، إذا جاءهم مدعياً للرسالة، ولاسيما أن من يفعل القبيح تسقط منزلته في نفوس عارفيه، المطلعين على واقع حاله، وحقيقة أمره، وكيف يعهد الله سبحانه أمر النبوة التي هي من أعظم المراتب

وأسماها، لمن فعل القبيح فيما مضى من حياته، ثم يأمره بأن ينهي الناس عما كان يفعله بالأمس، إن الله سبحانه قد أراد من عباده التصديق بأنبيائه، والأخذ بتعاليمهم ونصائحهم، ورغبهم بذلك بشتى الوسائل، ووعد المؤمنين منهم خيراً وأجراً عظيماً، وإذا جاز على النبي أن يكذب في ماضيه فكيف تطمئن نفوسهم بصدقه في حاضره، وأي ضرورة تدعونا إلى هذا القول الذي لا يتفق مع مرتكزات العقلاء، وأي مانع من أن يختار الله سبحانه لتلك الرسالة الكريمة من طهر نفسه من الدنس، وكان المثل الأعلى لجميع الصفات الإنسانية المثلى، لتكون الفائدة به أتم والغرض أقرب إلى الحصول، ولقد قال سبحانه في محكم كتابه ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولا شك في أن مرتكب القبيح ظالم لنفسه غير محتفظ بكرامتها، والنبوة عهد من الله وأمانة يجعلها في عنق من يختاره، ويراه أهلاً لأدائها والقيام بأعبائها. هذا مجمل ما عليه الشيعة الإمامية في العصمة قبل البعثة، وأما العصمة بعدها، فالذي عليه الشيعة هو العصمة عن الذنوب كلها صغيرة كانت أم كبيرة. عمداً كانت أو سهواً، من غير فرق بين ما يرجع إلى عالم تبليغ الأحكام وغيرها مما يرجع إلى أحوالهم الخاصة، وأفعالهم وتروكهم.

ويتفق الشيعة مع بقية المسلمين فيما يرجع إلى تبليغ الأحكام، ومع المعتزلة خاصة فيما يتعلق بالكبائر مطلقاً، والصغائر الموجبة للاستخفاف، كما يظهر ذلك من شارح النهج.

ومهما يكن الحال فهذه المسألة تكاد تكون على إطلاقها مما تفرد بها الإمامية وقد أقاموا الأدلة الكافية لإثباتها.

منها أن النبي إذا لم يكن معصوماً، لم يحصل الوثوق بالشرائع لأن النبي مبلغ عن الله. ولو جاز عليه أن يكذب ويعصي، جاز أن يزيد فيما أوحي إليه، أو ينقص، أو يأمر بما لم يؤمر فيه من ربه، حسب ما توحيه إليه

شهواته وميوله، إذا كان كغيره من بقية أفراد الإنسان، وحينئذ تنتفي فائدة بعثته ولم يحصل الغرض من نبوته.

ومنها أنه إذا لم يكن معصوماً كان أسوأ حالاً من بقية أفراد الأمة، لأن درجة النبوة من أرفع الدرجات وأقربها لله سبحانه، وكلما ازداد الإنسان علماً بالله، ازداد قرباً منه، وخضوعاً له، فلو وقع منه العصيان والحال هذه لزم أن يكون أسوأ حالاً ممن لم يكن بتلك المرتبة، وكان مسؤولاً أكثر من غيره لأن العقاب على قدر المعرفة، ويتفاوت بتفاوت ظروف الإنسان وملابسات حياته، وفي جملة من آيات الكتاب الكريم ما يدل على أن الجزاء قد يتضاعف بحسب حال المكلف مع وحدة المعصية، قال سبحانه مخاطباً نساء النبي ﷺ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ وغير ذلك مما دل على تفاوت حكم الزاني بين الإحصان وعدمه، والعقل يساعد على أن العالم بالله مسؤول أكثر من غيره على حسب مراتب العلم المقرب منه سبحانه.

ولقد عاتب الله سبحانه من يرشد غيره وينسى نفسه، ويعمل على خلاف ما يعلم، ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ وقال سبحانه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ ولازم القول بوقوع المعاصي من الرسل أن يكون النبي مصداقاً لهذه الآيات الكريمة.

إن رسالة الأنبياء لا تكلف الإنسان فوق ما يطيق، أنها تسير مع الزمن وتساير الحياة، وليس في طبيعة الإنسان ما يتنافى مع تلك الرسالة، فليس من الصعب أن يلتزم بها الكثير من الناس، ويعمل على نهجها، ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً ودرسنا حياة العظماء، والمصلحين، لوجدنا عدداً ليس بالقليل تجرد لخدمة الإنسانية، وأعرضوا عن الملاذ والشهوات، والتجأوا

إلى الكهوف والغابات ليؤدوا إلى الإنسانية رسالة فرضتها عليهم إنسانيتهم المثلى، ولم يكن ما حف بهم من أسباب النعيم ودواعي المتعة ومؤهلات المعيشة الناعمة، ليصرفهم عن تفكيرهم في مشاكل الحياة الغاصة بالكوارث والآلام والأحزان، فانصرفوا عن كل ما أحاط بهم من نعمة ونعيم، إلى الكهوف والغابات يبحثون عن السعادة، ويقنعون باليسير من القوت يستجدونه من أكف المحسنين، ولا شك أن لهذا القسم من البشر ملكات قوية قادتهم إلى أشرف الغايات وأنبلها وحالت دون ما تهوى نفوسهم من الرغبات والشهوات والملذات.

وليست العصمة التي ندعيها للأنبياء والأوصياء، إلا قوة في النفس تقودهم إلى ما يعملون لأجله من سعادة الإنسان وخيره، يتحملون في سبيل ذلك أشد أنواع الأذى والألم، فلم يشغلهم ما أحاط بهم عن عبادة الله وآلام الناس والعمل لخير الإنسان وسعادته، فكأنهم يجنون أطيب الأثمار وأشهاها وخير شاهد على ذلك موقف الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ من قومه حيث لاقى أقسى ما يتصور من الأذى والعذاب ولما يئسوا من تراجعه، اجتمعوا إلى أبي طالب ليكون ابن أخيه ملكاً عليهم، يحكم فيهم كما تحكم الملوك برعيتها على أن يترك دعوته. فرده بكلمته الخالدة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي، ما تركت هذا الأمر» فعادوا سيرتهم الأولى تعذيباً وإيذاءً وتشريداً، وتنكيلاً بأتباعه، وازداد صبراً ونشاطاً، وإيماناً بمبادئه، وتم له ما أراد.

ومن كانت له الملكات الرفيعة لا يجوز أن ينقاد لشهواته، وينخرط مع من يقترفون السيئات والآثام.

هذه طائفة من الأدلة التي يستدل بها الإمامية على عصمة الأنبياء، وهي كافية لإثباتها، ولكن النصوص القرآنية قد تعرضت لاحوال جملة من

الأنبياء، وتدل بظاهرها على وقوع المعصية منهم فلا يبقى لأدلة العصمة فائدة يعتمد عليها، في مقابل اخبار الله سبحانه العالم بسرهم وعلانيتهم، فلا بد من رفع اليد عن هذه الأدلة، أو تأويل الآيات الكريمة، بما يتفق مع بلاغة الكتاب وإعجازه.

قال سبحانه في سورة يوسف، حاكياً ما جرى له مع امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وهي بظاهرها تدل على تبادل العزم على الفحشاء من كليهما ولولا برهان ربه لقاده هواه إلى هذه المعصية ولكن المتأمل في الآية الكريمة، يرى فيها ما هو أدل على نزاهة يوسف وطهارة نفسه، لأن صدر الآية ناطق بأنها همت به بدون قيد أو شرط وأما يوسف فإرادته لذلك وردت معلقة على حصول شرط لم يتحقق والمشروط عدم إذا لم يوجد شرط حيث إن همه بها كان معلقاً على عدم رؤيته لبرهان ربه وقد رآه، فلا هم منه ولا إرادة، ويكون همه بها جواباً للشرط، وقد تقدم عليه، كما في قوله قائل: كنت قصدتك، لولا أن زيداً صدني عن ذلك.

ونتيجة هذا الجواب، هو أن الذي تحقق منها لم يقع منه، لأن البرهان الذي تلقاه من ربه حال بينها وبين ما تريد، ولولا ذلك لجرى له مثل ما جرى معها، وهذا لا يتنافى مع عصمة الأنبياء.

ويمكن الجواب بوجه آخر، وهو أن المراد من همه بها ميل نفسه ورغبته في ذلك، لأن فيه ما في سائر البشر، إلا أن الناحية الروحية فيه تسيطر دائماً على شهواته وغرائزه الجنسية، والهم بمعنى الرغبة والشهوة واقع في اللغة، وجواب لولا محذوف من الكلام أي لولا أن رأى برهان ربه لعزم على تحقيق رغبته وميل نفسه.

والذي يدل على عدم عزمه على الزنا قوله ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ومعنى ذلك أن قد صرفنا عنه كل سوء وفحشاء، لدلالة المفرد المعرف على ذلك ومن صرف الله عنه السوء والفحشاء، وكان من عباده المخلصين كيف يعزم على مثل ذلك؟ وهل يتصف بالإخلاص من عزم على مثل هذا الجرم؟ وإن لم يتحقق منه الفعل، والعزم على الجريمة من جملة أنواع التجري الكاشف عن لؤم في النفس.

وفي الآية وجوه غير هذين ذكرها السيد المرتضى في كتابيه الأمالي وتنزيه الأنبياء.

ومن الآيات التي تنافي بظاهرها العصمة قوله تعالى، في سورة ألم نشرح، خطاباً للنبي ﷺ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ بحجة أن المراد بالوزر هو الذنب كما ورد إطلاق الأوزار على الذنوب والخطايا في بعض الآيات الكريمة. قال السيد المرتضى: إنما سميت الذنوب أوزاراً لأنها تثقل كاسبها وحاملها، وكل شيء أثقل الإنسان جاز أن يسمى وزراً، وعلى هذا لا يمتنع أن يراد بالوزر في هذه الآية، هو الغم الذي أصاب النبي من شرك قومه وتعذيبهم له ولأصحابه المؤمنين، فلما أعلى الله كلمة الإسلام وشرح صدره وبسط يده، وجعل كلمة المشركين هي السفلى، ذكره الله بألطافه ونعمه عليه، ليقابل ذلك هو وأتباعه بالشكر لله سبحانه، وفي آخر السورة ما يدل على ذلك.

ومن الآيات قوله سبحانه في سورة الضحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ والضلال هو الخروج عن طريق الحق إلى الباطل، وهو خلاف ما عليه الإمامية من العصمة المطلقة قبل النبوة وبعدها وبعد التأمل نرى أن الآية في مقام تعداد النعم التي توالت على النبي، بعد الفقر واليتم والحيرة التي أصابته، يوم كان بمكة يدعو الناس إلى الله، في حين أن المشركين جادين

في إيذائه والتنكيل بأتباعه، فخرج من بينهم لا يدري أين يذهب، في ظلام الليل وسكونه فلم يجد ملجأ إلا الغار الذي ستره عن قومه فاطمأن إليه ومن ذلك انطلق إلى هجرته الميمونة فآواه بعد اليتم، فكان مأوى الأيتام وكفيلاً للمساكين بعد أن كان مكفولاً لجده تارة، ولعمه أُخرى، وهداه الحيرة التي ألمت به من عداء قومه، حتى ضاقت عليه مكة وشعابها فاتسعت له الدنيا، وتفتحت إليه أبوابها، وأغناه بعد الفقر بما أفاض عليه من غنائم الحرب، وضريبة الزكاة، وخراج الأرض.

قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ فليس الخروج عن الحق هو المعنى الذي يختص به لفظ الضلال وإنما يتسع له ولغيره، ولقد حاول البعض أن يمس عصمة الأنبياء بما وقع للنبي ﷺ من تزويجه بزينب ابنة عمته بعد أن طلقها زيد زوجها الأول تمسكاً بما روى أن النبي ﷺ دخل دارها يسأل عن زوجها زيد، فرآها على حين غفلة منها، وأعجبه جمالها، فبنى أن يتزوج منها إن تم طلاقها، ومذ رجع زوجها أخبرته بما كان من النبي، فظن أنها دخلت في نفسه، فعزم على طلاقها. فقال له النبي أمسك عليك زوجك، كما حكى الله سبحانه في كتابه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي تخفي في نفسك، رغبتك بها وتقول لزوجها أمسكها، واتق الله في معاشرتها، وهذا مخالف لما انطوت عليه نفسك.

وهذا لا يليق بالأنبياء، ويدل على خسة في الطبع، ولؤم في النفس، والنبي أعظم نفساً وأعلى شأناً من ذلك. وليس في الآية ما يدل على أن زواجه بها كان على هذه الحالة.

والذي وقع عليه هو أن زينب قريبة النبي، طلبها الأشراف من المسلمين، فلم يوافق النبي على زواجها، فلما أعتق زيداً مولاه وقد كان تبناه، أراد أن يكرمه بهذا الزواج نظراً لإيمانه وإخلاصه للدعوة الإسلامية، وفي نفس الوقت أراد أن يحارب ما في نفوس المسلمين من كبرياء وترفع على الموالي، بعد أن ساوى الإسلام بين الناس، وحطم العنصرية بأقدامه، ولم يفرق بين جنس وجنس إلا بالتقوى، والعمل الصالح، أراد أن يقر هذا المبدأ، فزوج زيداً من قريبته زينب، ولما سمعت بهذا الزواج أنفت نفسها ونفس أخيها عبد الله وغضبت من ذلك فكانت الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فتم الزواج، وتم الطلاق بعد ذلك، نتيجة لنزاع بينهما وكما يدل على ذلك قوله سبحانه: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

والطلاق مهما كان سببه لا بد وأن يدخل على المرأة في الغالب ألماً وغماً، ولما كان هو السبب في هذا الزواج أراد أن يتدارك ذلك ويضمها إلى بيته ونسائه، ويرفع عنها ما لحقها من تزويج الموالي بالأحرار، وآلام الطلاق، فحدث نفسه بذلك، ولكنه خشي قولهم أن محمداً تزوج زوجة ابنه وقد كانوا ينزلون الأدعياء منزلة الأولاد، كما هي سنة الجاهلية، فعاتبه الله على ذلك بقول: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ فما تخفيه نفسك يحققه الله لك، ولا حرج عليك فيما أحله الله وإن لم يكن مألوفاً عند الناس. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ ونسخ سنة الجاهلية بقوله سبحانه: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ثم نفى سبحانه بنوة زيد للنبي ﷺ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

فليس في الآية الكريمة التي حكت قصة هذا الزواج إشعار بما تضمنته

الرواية السابقة، ولا منافاة فيها لمقام النبوة بل هو عمل إنساني إن دل على شيء فإنما يدل على أرفع مراتب النبل والخلق الكريم.

ومن الآيات التي تنافي بظاهرها العصمة قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

وسواء أُريد بالفتح المبين المذكور في الآية الكريمة فتح مكة المكرمة، أو صلح الحديبية الذي وقع بين النبي والمشركين بدون قتال، وكان له أثره في انتشار الدعوة الإسلامية، وفي مجمع البيان عن الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم، وتمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير فكثر بهم سواد الإسلام، وهذه المناسبة يمكن أن تُسمَّى فتحا.

ومهما يكن المراد منه، فقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يدل على وقوع الذنب منه قبل البعثة وبعدها، أو قبل الفتح وبعده، على اختلاف الآراء في ذلك جمعاً بينها وبين الأدلة القاضية بعصمة الأنبياء أحدها أن الذنوب التي غفرها الله هي ذنوب أمته، وإنما أضيفت إليه لما بينه وبينها من الإتصال، وهذا الجواب مستفاد من رواية المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال: سأله رجل عن هذه الآية، قال: والله ما كان له صلى الله عليه وآله من ذنب، ولكن الله ضمن أن يغفر ذنوب شيعته ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، وفي رواية أخرى عن عمر بن يزيد عن الصادق عليه السلام قال ما كان له من ذنب، ولا هم بذنب ولكن الله حمَّله ذنوب شيعته ثم غفرها له، وهذا الجواب بعيد عن ظاهر الآية، فإن صح ما رواه المفضل، وعمر بن يزيد عن الصادق عليه السلام في تفسيرها، لزمنا التعبد به وهو أعلم بمراد الله سبحانه.

الثاني ما حكاه في المجمع عن السيد المرتضى، أن الذنب مصدر

أضيف إلى المفعول، والمراد ما تقدم من ذنبهم إليك من منعهم إياك عن مكة، وصدهم لك عن المسجد الحرام، وتكون المغفرة في المقام بمعنى الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه المشركين، أي يزيل الله تعالى ذلك عنك ويستر عليك تلك الوصمة، بما يفتح لك من مكة، ولذلك جعله جزاءً وغرضاً في الفتح ووجهاً له ولو أنه أراد مغفرة ذنوبه، لم يكن لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ معنى معقولاً لأن المغفرة للذنوب لا تعلق لها بالفتح فلا تكون غرضاً فيه، وهذا الوجه أيضاً كسابقه لا يساعد عليه ظاهر الآية الكريمة، والذي أراه في هذه الآية الكريمة هو أن الذنوب التي غفرها له الله هي الذنوب التي نسبها المشركون إليه لأنهم يرونه عاقاً ظالماً مسيئاً إليهم، سفه أحلامهم، ونبذ تقاليدهم، ودعاهم إلى إله لم يعرفوه. ثم حاربهم وقتل رجالهم، وحطم الأوثان، وحرر العقول من عبادتها، وانطلق بأقصى طاقته يدفع عنهم أثقال الجمود، وانطلقوا يبالغون في إيذائه وتعذيبه والتنكيل بأتباعه فهو المسيء بحسابهم مع أنهم بالغوا وأسرفوا في إيذائه، فلم يكتف بدعوتهم إلى الله حتى قتل رجالهم، وأدخل عليهم الخزي والعار على حد زعمهم.

وحين دخل مكة بجيشه المتحمس حسبوا لذلك ألف حساب وحساب، وظنوا أنهم سيلاقون جزاء أعمالهم، وكانوا منه على وجل وخوف شديدين، وأول ما بدأ به أن أشاع الأمن والطمأنينة في شوارع مكة وشعابها، وأعلن العفو العام، من دخل داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه هو آمن، وزاد على ذلك أن جعل لابي سفيان ما لم يجعل لغيره، وما يوم حمزة عمه ببعيد عنه، فكان في ذلك اقصى ما يمكن أن يتصوره الإنسان، من النبل وكرم الأخلاق، ومحاربة الغريزة الإنسانية المفطورة على الثأر ولذة الانتقام.

فلا صدر أرحب من صدره ولا أروع من إنسانيته، الحنان يغمر قلبه

والرحمة التي حملتها نفسه الكريمة تتسع لأهل مكة وحتى لأبي سفيان وزوجته التي أكلت من كبد عمه الحمزة العزيز على قلبه ونفسه وفصلت أعضاءه عضواً عضواً.

لمسوا منه عكس ما كانوا يتصورون، وفوق ما كانوا يأملون، لو أنهم أحسنوا إليه وعاملوه بغير ما كان.

فكان من الطبيعي والحال هذه أن يغفروا ماضيه ويرجعوا إليه نادمين ويستقبلوا ما يكون من أمره بعد هذا اليوم بإعجاب وارتياح، فلا ذنب له بعد اليوم، لقد دلهم هذا الفتح المبين على ما كان يضمره لهم من خير وسعادة.

وأضاف المغفرة إليه سبحانه لأنه هو الذي أعانه على هذا الفتح وهيأ له أسبابه، فكان من آثاره دخولهم في الإسلام مؤمنين بصدق الدعوة وأنها الطريق لسعادة الإنسان. وهذا النوع من التجوّز شائع في لغة العرب، وآي الكتاب الحكيم، والذي يساعد على هذا المعنى سياق الآيات الكريمة الواقعة بعد هذه الآية قال سبحانه ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ فوقعت المغفرة غاية له وغرضاً منه ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ وأي نعمة أعظم من رجوع أولئك الطغاة إليه نادمين، يقابلون دعوته بكل ارتياح وانشراح. ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ بهذا الفتح الذي دفع عجلة الدعوة بخطى حثيثة، وقوة جبارة.

# الإمامة

وقبل الحديث عن الإمامة والآراء فيها ينبغي التمهيد للحديث عنها بالإشارة الموجزة إلى المعتقدات الإسلامية في الأصول والفروع وما اتفق عليه المسلمون منها وما اختلفوا فيه ولو بشكل عابر.

لقد قسموا الأمور الدينية إلى أصول وفروع ويعنون بالأصول الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، والعلم الذي يبحث عن هذه الأمور هو علم التوحيد أو علم الكلام، كما يعنون بالفروع العبادات كالصلاة والصيام والحج والزكاة، والمعاملات كالبيع والإجارة والزواج والطلاق والوصايا والمواريث وغير ذلك من المواضيع الفقهية، والعلم الذي يتعرض لهذه المواضيع يعرف بعلم الفقه والتشريع.

وقد اختلف المسلمون في الأصول والفروع وتباينت آراؤهم في الكثير من مسائل هذين العلمين، ولكن اختلافهم لم يكن في التوحيد والنبوة ولا في بقية الأُصول وتشريع الصلاة وغيرها من بقية الفروع بل كان في عوارض هذه المواضيع وتوابعها وملحقاتها.

إن المسلمين على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم لم يختلفوا في الله ووحدانيته بل في صفاته وأنها عين ذاته أو غيرها، ولا في رسالة محمد ﷺ وعصمته حين نبوته، بل كان خلافهم في ثبوتها له قبل النبوة وبعدها أو بعد

نبوته فقط، ولا في نزول القرآن عليه من الله سبحانه، بل في كونه قديماً أو حادثاً، كما وأنهم متفقون على الحشر والنشر، وإذا كان من خلاف بينهم في شيء من ذلك فهو في كيفيته وأنه بالأرواح وحدها أو بها وبالأجسام إلى غير ذلك من الصراع في هذه المواضيع الذي لا يمس جوهر الأصول ولا يبلغ بأحد حدود الكفر بالله وكتابه وبما أنزله على رسله وأنبيائه.

وما ذكرناه عن خلافهم في الأصول لا يختلف في شيء عن خلافهم في الفروع فلم يختلفوا في تشريع الصلاة وأوقاتها وعدد ركعاتها والجهة التي يجب أن يتجه المصلي إليها ولا في صيام رمضان بكامله وتشريع الزكاة والنكاح والطلاق وبقية المعاملات بل في بعض الشروط والكيفيات والحالات التي يجب أن تتم العبادة عليها.

كما وأن اختلاف الفرق والمذاهب في الأصول والعقائد وانقسامها إلى أشاعرة وإمامية ومعتزلة لا يستدعي اختلافها في التشريع والفقه وفروعه، وحتى أن الفرقة الواحدة المتفقة في أصول العقائد قد تختلف في المسائل الفقهية وتنتمي إلى أكثر من مذهب واحد من المذاهب الأربعة كما هو الحال بالنسبة إلى الأشاعرة. وقد اختلف علماء الإمامية في أكثر المسائل الفقهية بنحو لا يكاد الباحث يجد اثنين من علمائهم متفقين في جميع المسائل وأحياناً يلتقي علماء الإمامية مع علماء المذاهب الأربعة في مسائل الفقه والتشريع مع ما بينهم من خلاف وتباعد في الأصول، وكانت مسألة الإمامة من أبرز المسائل الخلافية بين المسلمين وساعدت على تعدد الفرق وأحدثت فجوات واسعة بينهم أكثر من أي مسألة أخرى، ووضع فيها كل من السنة والشيعة عشرات المجلدات، وكانت ولا تزال من أبرز ما حدث بينهم وأسوأها أثراً على مسيرة الإسلام وتطبيق مبادئه خلال تلك القرون المتتالية من تاريخه.

ومهما كان الحال فالإمامة والخلافة كلمتان تعبران عن معنى واحد

وهو الرياسة العامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن الرسول الذي كان يتمتع بتلك الامتيازات والمهمات، وصاحب هذا الامتياز يسمونه الإمام تارة والخليفة أخرى، فهو باعتبار قيادته للأمة وكونها تابعة له كما يتبع المصلي من يؤمه في الصلاة فمن هذه الناحية يسمونه إماماً، ومن حيث إنه يخلف الرسول في قيادة الأمة وإدارة شؤونها الدينية والدنيوية يسمونه خليفة والظاهر اتفاق المسلمين على أن الإمام أو الخليفة له على الناس من الولاية والسلطان ما للرسول ﷺ لأنه نائب الرسول، وليس للمسلمين مقام الشرف من مقام الرسول، ومن بلغ هذا المقام فقد بلغ الغاية التي لا مجال فوقها لمخلوق من البشر، وعلى الأمة أن تحترم مقامه لأنه يرمز على مقام الرسول ولأنه القائم على دين الله والأمين على حفظه ورعايته وتنفيذ تعاليمه بأمانة وإخلاص لا تشوبهما شائبة.

وجملة القول: إن السلطان خليفة الرسول ﷺ وحمى الله في بلاده وظله الممدود على عباده، ومن كان ظل الله في أرضه وخليفة الرسول فولايته كولاية الرسول في أُمور الدين والدنيا وكل من يلي شيئاً من أمور المسلمين في عهد الخليفة من وزير أو قاض أو وال ومحتسب وغير ذلك من وظائف الدولة، فهو وكيل عن الإمام ونائب عنه، وهو وحده صاحب الرأي في اختيارهم ومحاسبتهم وعزلهم عن مناصبهم إذا اقتضت مصلحة الأمة شيئاً من ذلك.

وبعد أن لخص الأستاذ علي عبد الرزاق صلاحيات الإمام أو الخليفة عند المسلمين بما يقرب من هذا النحو في كتابه الخلافة وأصول الحكم وقف موقف الناقد لموقفهم هذا واعتبره إسرافاً حتى في إعطاء جميع هذه الصلاحيات للأنبياء فضلاً عن خلفائهم، فقال ما حاصله: إن إعطاء هذه السلطات كلها لخليفة الرسول ﷺ متفرع على ثبوتها للرسول نفسه، ويجب أن نبحث أولاً عن صلاحيات الرسول ومهماته وبمقدار ما يثبت له من

الصلاحيات يمكن الالتزام بثبوتها لخليفته من بعده، لأنه فرع عنه والفرع لا يزيد على أصله، ومضى يقول؛ إن رسالة محمد بن عبد الله ﷺ لا تشمل السلطة الدينية والدنيوية وإنما هي كرسالة عيسى وموسى وغيرها من إخوانه الأنبياء لا تتعدى النواحي الروحية وتعتمد على الإقناع والوعظ والإيمان وخضوع القلب لا على القوة والبطش وإخضاع الجسم، ومن أين لنا أن نثبت أن الله سبحانه قد أعطى لنبيه محمد ولاية الأنبياء الروحية وولاية الحكام الزمنيين، ولا دليل لنا على ذلك سوى ممارسة النبي لهذه النواحي وقيامه بأعمالهم، ومجرد قيامه بما يشبه أعمال السلاطين والحكام لا علاقة له برسالته ولا يدخل في اختصاصها من قريب أو بعيد، لأن تعاطيه لتلك المهمات لم يكن من شؤون الدين، بل هو في سبيل الملك وتكوين حكومته الإسلامية، والحكومات لا تقوم إلا بالسيف والقهر والغلبة.

وبتعبير آخر إن جميع ما أتى به محمد بن عبد الله ومارسه مما يعود إلى الشؤون السياسية والدينية إنما كان بصفته حاكماً ورئيساً لتلك الدولة التي أسسها بعد أن استقر في المدينة لا بصفته نبياً ورسولاً يبلغ عن الله سبحانه ويمثل إرادته في كل ممارساته وأعماله، وأضاف إلى ذلك أن الآية الكريمة لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي تشير إلى أنه ليس للنبي أن يستعمل القوة كغيره من الحكام في تنفيذ الأحكام، وأن مهمته لا تتعدى ناحية الإرشاد والتوجيه والوعظ وغير ذلك من الطرق التي تؤدي إلى الإيمان برسالته إلى غير ذلك مما جاء في كتابه حول تقريب نظريته هذه من الإسفاف الذي لا مبرر له.

لقد تحدث علي عبد الرزاق عن رسالة محمد بن عبد الله ﷺ وكأنه يريد أن يؤكد نظرية القائلين بوجوب فصل الدين عن الدولة والسياسة، وأصحاب هذه النظرية يعالجونها بهذا النوع وأمثاله من التلفيق والتضليل، في حين أنه قد وضع كتابه للبحث عن الخلافة كما يقتضيها الإسلام

وتفرضها مصلحة المسلمين، وكان عليه والحال هذه أن يعتمد على الكتاب والسنة ويستنطقهما في مقام تحديده لرسالة محمد والصلاحيات التي منحها الله له. وعندما نعود إلى الكتاب والسنة نجد المعنى المراد من الرسالة يتسع لجميع السلطات دينية ودنيوية ولجميع الصلاحيات التي كان يمارسها النبي ﷺ في مختلف الشؤون، فقد نصت الآية السادسة من سورة الأحزاب على أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وجاء في آية ثانية من السورة نفسها ما يؤكد مضمون الآية الأولى حيث قال سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وجاء في حديث عنه أنه كان يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، وقال في حديث الغدير: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فعقب على ذلك بقوله: من كنت مولاه فعلي مولاه، والولاية في الآية والحديث شاملة لجميع الأمور دينية كانت أو دنيوية، ولو كانت تعني نوعاً خاصاً من أنواعها لوجب ذكره بالخصوص وحيث لم يذكر نوعاً منها بخصوصه تعين إرادة العموم منها وقد تقرر في علمي البيان والأصول أن عدم ذكر المتعلق دليل على إرادة جميع الأفراد من العام، وعلى أساس ذلك قالوا: إن المتكلم إذا قال ما أكلت ولم يذكر نوعاً من أنواع المأكولات كان قوله هذا دليلاً على أنه لم يأكل شيئاً.

وبخصوص الآية لا إكراه في الدين التي أيد فيها دعواه فهي أجنبية عن المقام ولا صلة لها بما نحن فيه من قريب أو بعيد وهي لا تعني أكثر من أن ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ بعد أن كان متفقاً مع الفترة ومقترناً بعشرات الأدلة والبراهين على صحته لا مجال للإكراه عليه ولأن ما يحصل بواسطة الإكراه لا ينفع شيئاً ولا يكون إيماناً ما لم يقترن بالقناعة والاطمئنان إلى صحة مبادئه وأصوله، ولا وجه للإكراه ما دامت الأدلة كافية لتركيز العقيدة والاقتناع بها.

# الخلاف في وجوب نصب الإمام

بعد أن اتفق عامة المسلمين على أن الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبيﷺ وأن الإمام يتولى جميع المهمات التي للنبي ـ سياسية كانت أو غيرها ـ اختلفوا في أن نصب الإمام هل هو واجب أو لا؟ وعلى تقدير وجوبه فهل يجب على الله أن يعين الإمام وينص عليه كما عين النبي وينص عليه أم يجب على المسلمين أن يختاروا الإمام منهم، وهل يجب عليهم بحكم العقل أو أن الشرع يفرض عليهم ذلك.

لقد ذهب الخوارج وحاتم الأصم من المعتزلة[1] إلى عدم وجوب نصب لا على الله ولا على المسلمين عقلاً وشرعاً، واحتج الخوارج لذلك أولاً بعدم وجود إمام في كل عصر تتوافر فيه الشروط المطلوبة، وثانياً بأن آراء الناس مختلفة وأهواءهم متباينة وأحزانهم متعددة فإذا أرادوا نصب إمام انحرف كل حزب وكل فريق مع أهوائه بما يؤدي إلى إثارة الفتن والحروب كما تدل على ذلك التجارب التي مر بها المسلمون منذ وفاة النبيﷺ، ولو افترضنا أن كلمتهم اتفقت على تعيين من تتوفر فيه الشروط المطلوبة فلهم تعيينه إماماً من غير أن يكونوا ملزمين بذلك شرعاً أو عقلاً.

---

(١) لقد عاش الأصم في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث وكانت وفاته سنة ٢٣٧.

وقال الزيدية والمعتزلة: يجب على المسلمين أن يختاروا الإمام الذي تتوفر فيه الشروط لحفظ النظام وإدارة شؤونهم ولكن بحكم العقل لا بدليل من الشرع، واحتجوا لذلك بأن وجود الناس بدون حاكم يسبب الفوضى وانتشار الفساد والإضرار بالعباد ودفع الضرر والفساد واجب بحكم العقل ولا يتم ذلك إلا بوجود حاكم وما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقال أكثر الإمامية: إن نصب الإمام واجب على الله بحكم العقل لأن الإمام لطف من الله يقرب الناس من الطاعات ويبعدهم عن المعاصي فهو أشبه بالأسباب الداعية لعمل الخير وترك الشر وإذا كان نصب الإمام لطفاً من الله واللطف بمعنى إيجاد الدواعي للطاعة والتسهيلات لها واجب على الله بمقتضى كرمه ورأفته بعباده فيكون نصبه واجباً.

وقد تعرضت هذه النظرية لنقد الأشاعرة بما حاصله بأن اللطف الذي تدعونه إنما يتحقق إذا كان الإمام موجوداً وظاهراً يبين للناس ما يخفى عليهم من طرق الخير ويحاسبهم على التقصير والإهمال، والإمام صاحب هذه الصلاحيات لا وجود له، ووجوده مستوراً ومتخفياً عن الناس كما تدعون لا يحقق الغاية من نصبه.

وقد أجاب الإمامية بما حاصله أن الله سبحانه قد أوجد الإمام الجامع لكل الصفات التي تؤهله للقيادة والقيام بمهمات الإمامة دنيوية كانت أو دينية وقد نص على إمامته بواسطة النبي كما نص كل إمام على خليفته وما عليه إلا أن يعرض نفسه لكل ما يطلب منه وعلى الناس أن تسمع له وتنقاد لأوامره وتوجيهاته وتنضم تحت لوائه وقد فعل الله ما عليه ولكن الناس قد اخافوا الإمام وراحوا يطاردونه ويعرضونه لأشد الأخطار مما اضطره للتخفي وعدم الظهور الذي يحقق الغاية من نصبه. ومجمل القول إن الله سبحانه قد عين الأئمة بعد النبي ﷺ وأمر رسوله بتبليغ ذلك كجزء من رسالته التي أرسله الله

بها وقد بلغ النبي ونص عليهم بأسمائهم وصفاتهم في عشرات المناسبات ولكن الأمة قد غيرت وبدلت وجرفتها الأهواء والشهوات إلى حيث انتهى إليه مصيرها الذي لا يعكس وجه الإسلام ولا يعبر عن واقعه الكريم وكان على المسلمين بعد النبي وبعد غيبة الإمام اختيار الحاكم الذي يسير في الأمة على خطاها صاحب الرسالة والأئمة من بنيه في جميع المجالات التي تفرضها مصلحة الإسلام والمسلمين في مختلف العصور.

أما تسمية نصب الإمام باللطف أو بغيره من المصطلحات فلا يعدو أن يكون مجرد اصطلاح وتعليل لأمر صدر من الله سبحانه ولا يحيط بعلمه غيره وبلا شك فإنه لا يختار لهم إلا الأصلح والأنسب الذي يحقق لهم العزة والكرامة والسعادة في الدارين.

ومهما كان الحال فلقد ادعى الأشاعرة بأنه لا يجب على الله نصب الإمام لا عقلاً ولا شرعاً لأنه لا يجب عليه شيء ولا يقبح منه شيء وفي الوقت ذاته فلقد أوجبوه على المسلمين شرعاً لا عقلاً واعتبروهم مسؤولين تجاه الله إذا هم أهملوا هذا الأمر، واستدلوا على ذلك بإجماع الصحابة لأنهم بادروا على حد تعبيرهم إلى بيعة أبي بكر وتسليم الأمر إليه ومضى المسلمون من بعده مع بقية الحكام والخلفاء على ذلك وعلى هذا الأساس كانت خلافتهم صحيحة ونافذة ومن خرج عليها فقد خرج على إجماع المسلمين واستحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين كما يدعون ويزعمون بهذا النوع من التلفيق والتضليل.

وعلى أساس هذا المبدأ فإن الاجماع الذي تم على خلافة علي عليه السلام قد استقطب عامة المهاجرين والأنصار والأقطار ما عدا بلاد الشام التي كان يتحكم بمصيرها معاوية بن هند أشد الناس عداوة لله ورسوله، وقد خرج طلحة والزبير وعائشة ومن كان على شاكلتهم من المروانيين بعد أن بايعوا

علياً عليه السلام طائعين غير مكرهين فبناءً على مبدأ الأشاعرة من أنه لا دليل على صحتها سوى إجماع الصحابة والتابعين وإن الخارج على من أجمع عليه عدد الذين أجمعوا على أبي بكر خارج على جماعة المسلمين ويستحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين بناءً على ذلك ينبغي تطبيق هذه الأحكام على طلحة والزبير وعائشة وأمثالهم ممن أسموهم بالصحابة وأحسب أنهم لا يلتزمون بذلك بل يحاولون إضفاء صفة القداسة عليهم وحتى على ابن هند وأمثاله من الخوارج على الإسلام بحجة أنهم من الصحابة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في صحابته يزعمهم: أنهم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم متجاهلين ما رواه عنه شيخ محدثيهم محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه من أنهم سيرتدون من بعده ولا ينجو منهم إلا مثل همل النعم وغيرها من الأحاديث التي تشير إلى ارتدادهم عن دينهم من بعده كما جاء في المجلد الرابع وغيره من صحيحه.

# موقف علي عبد الرزاق
# من دعوى الإجماع

لقد قال الأستاذ علي عبد الرزاق في كتابه الإسلام وأصول الحكم بمقالة الخوارج من أنه لا يجب نصب الإمام على الله ولا على الناس لا بنظر الشرع ولا بنظر العقل ووقف من الأشاعرة موقفاً سليماً يتسم بالواقعية من الإجماع الذي يدعيه الأشاعرة وعامة أهل السنة على خلافة أبي بكر جاء فيه أن الإجماع المزعوم لا عين له ولا أثر وإنما هو مجرد دعوى فلا الصحابة أجمعوا على الخلافة ولا التابعون لهم ولا غيرهم من علماء المسلمين لأن الأصل في الخلافة عند المسلمين أن تقوم على أساس المبايعة الاختيارية ورضا الناس ورغبتهم وبخاصة أهل الحل والعقد من أقطاب المسلمين، ومضى يقول: إن التاريخ يثبت بالأرقام أن كل خلافة وجدت بعد الرسول قامت على القوة والرهبة وعلى أساس المادة المسلحة ولم يكن للخليفة ما يحيط بمقامه سوى الرماح والسيوف، ولم يوجد لدى المسلمين خلافة واحدة قامت على الرضا والحرية والاختيار، ومع وجود عشرات الشواهد من التاريخ على ذلك فكيف ساغ لهؤلاء أن يستدلوا بعمل الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين في جميع العصور على أن الخلافة كانت منذ وفاة الرسول ﷺ تقوم على الإجماع وحده، ومضى يقول: إن

زعامة النبي كانت دينية جاءت عن طريق الرسالة لا غير، وقد انتهت الرسالة بموته، وما كان لأحد أن يخلفه في زعامته كما لم يكن لأحد أن يخلفه في رسالته وإذا وجدت زعامة بعد الرسول بين أتباعه فهي زعامة مدنية سياسية، زعامة سلطان وحكومة لا زعامة دين ووحي.

ونحن مع الاستاذ علي عبد الرزاق فيما يعود إلى الإجماع المزعوم على خلافة أبي بكر ومن جاء بعده من الحاكمين وأن زعامة النبي كانت دينية عن طريق الرسالة، ولكننا لا نقره على قوله ما كان لأحد أن يخلفه في زعامته لأن الرسول منذ الأيام الأولى لبعثته كان يهيئ من يخلفه في تنفيذ رسالته والسير بها في أرجاء الدنيا الواسعة كما يريده لها صاحب الرسالة ومن غير المعقول أن يذهب عن هذه الدنيا ويتركها بين يدي أصحابه وأنصاره لتعبث بها الأهواء والأطماع والنزعات، وقد عين لها القائد الحكيم ونص عليه بصراحة لا تقبل التأويل في عشرات المناسبات كما أثبتنا ذلك بالأرقام والأدلة القاطعة خلال حديثنا عن التشيع ومصدره في الفصل الأول من فصول هذا الكتاب وفي غيره من كتبنا حيث كانت تفرض علينا المناسبة ذلك.

# شروط الإمامة

لقد اتفقوا على أن الإمام يجب أن يكون مسلماً ذكراً[1] بالغاً عادلاً عالماً بأحكام الله ذا بصيرة بالأمور واسعة تتسم تصرفاته بالحكمة في السلم والحرب شجاعاً يصمد للشدائد ويحمي الدين من التلاعب والانحراف واختلفوا في الشروط التالية:

١ ـ فقد ذهب الخوارج وجماعة من المعتزلة أنها تصلح لكل إنسان قرشياً كان أو غيره، وقال الأشاعرة وأكثر المعتزلة أنها لا تجوز لغير القرشيين لقول النبي ﷺ الأئمة من قريش.

وقال الإمامية الإثنا عشرية أنها لعلي ومن بعده لولده الحسن ومنه إلى الحسين ومنه لأولاده التسعة كما هو مقرر في أُصولهم، وذهب الزيدية إلى أنها في أولاد علي من فاطمة الزهراء عليها السلام من غير فرق بين أولاد الحسن والحسين عليهما السلام عى شرط أن يعلن الحرب على الظالمين.

(١) وجاء في الملل والنحل للشهرستاني أن ابن حزم قال بنبوة أم موسى ومريم بنت عمران وأم اسحاق زوجة إيراهيم، وعلى أساس ذلك تجوز الإمام للمرأة بطريق أولى إذا جازت لها النبوة لأنها أعظم من الإمامة.

# العصمة

٢ ـ لقد تحدثنا عن العصمة خلال حديثنا عن النبوة وعما قيل حول عصمة النبي وآراء الفِرق فيها وفيما يعود إلى عصمة الإمام فقد اتفق الأشاعرة والمعتزلة على عدم وجوب عصمته لأن أبا بكر كان إماماً ولم يكن معصوماً على حد تعبيرهم، وذهب الإمامية إلى أن الأئمة كالأنبياء في وجوب عصمتهم عن جميع الفواحش والذنوب عمداً وسهواً وبعد أن أنكروا إمامة أبي بكر وغيره من أدعيائها استدلوا على أن العصمة من الشروط الأساسية في الإمام بأن الأئمة حفظة الشرائع والقوامون عليها وهم من هذه الناحية كالأنبياء وبأن الحاجة إلى الإمام إنما هي للانتصاف للمظلوم من الظالم ودفع الفاسد وحسم مادة الفتن وأن الإمام لطف من الله يمنع القوي من التعدي والعدوان ويحمل الناس على فعل الطاعات واجتناب المحرمات ويقيم الحدود والفرائض إلى غير ذلك من المهمات التي عليه أن يتولاها ويرعاها، فلو جازت عليه المعصية وصدرت منه لانتفت فائدته وافتقر إلى إمام آخر يتولى تقويم اعوجاجه وإرجاعه إلى الطريق السليم، ولأنه لو عصى لوجب الإنكار عليه وإرجاعه إلى الطريق السليم من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنكار عليه يتنافى مع وجوب طاعته التي فرضها الله على عباده بقوله: أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم.

هذا بالإضافة إلى أنه لو صدرت منه المعصية لكان أسوأ حالاً من أقل أفراد الرعية لأن الهفوة من الكبير ولو كانت صغيرة أعظم من الكبيرة من غيره من أفراد الأمة.

ومما يؤيد عصمة الإمام قوله تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فقد نصت الآية على أن الإمام لا يكون ظالماً والعاصي ظالم لنفسه إذا كانت معصية في حدود أعماله وتكاليفه وظالم لغيره إذا كانت تشكل اعتداء على الغير.

ولا بد وأن يكون الإمام أفضل الرعية في جميع صفاته عند الإمامية واستدلوا لذلك بالعقل والنقل، أما العقل فلأنه يحكم بقبح تقديم المفضول على الفاضل وغير الأعلم على الأعلم ما دام الرجوع إلى الأعلم ممكن وأما النقل فلقوله تعالى في الآية من سورة يونس ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ حيث إن الآية قد أنكرت على من لا يتبع الأفضل ولا يقول بأنه أحق بالاتباع من غيره.

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

# الحاكم الجائر

ومع اختلاف المسلمين في بعض شروط الحاكم فهم متفقون على أنه يجب أن يكون عادلاً، ولكن الأشاعرة مع أنهم يشترطون عدالة الحاكم، فقد ذهبوا إلى وجوب الصبر على جوره وظلمه.

وجاء في المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبي زهرة أن أهل السنة قالوا الاختيار أن يكون الإمام فاضلاً عادلاً محسناً، فإذا لم يكن فالصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه لما في الخروج عليه من استبدال الخوف بالأمن وإهراق الدماء وشن الغارات والفساد وذلك أعظم من الصبر على جوره وفسقه.

وقد جاء عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يأمر بوجوب الصبر على الجور وينهى عن الخروج على الحاكم الجائر نهياً صريحاً كما جاء ذلك عن الأمامين مالك والشافعي وأكثر فقهاء السنة.

والذي عليه الإمامية وأكثر المعتزلة هو وجوب مناهضة الجائر بكل الوسائل وعدم جواز السكوت عنه حتى ولو أدى إلى إراقة الدماء لأن جهاد الظالمين من أعظم أصول الإسلام وركن من أركانه وقد حث عليه القرآن والحديث بشتى الأساليب وقال سبحانه في الآية من سورة التوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ومن المعلوم أن المراد بالحاكم الجائر هو الذي يعتدي على حقوق العباد وكرامتهم ويشهر بالقيم والمقدسات فمقاومته والحال هذه لإرجاعه عن غيه وضلاله أو لانتزاع السلطة من يده ووضعها في أيد أمينة تطبق العدالة وتعطي لكل إنسان حقه من أفضل أنواع الجهاد الذي فرضه الله على عباده، والسكوت عن الجائر المستهتر بحقوق الله وحقوق عباده المستغل لخيرات الأرض ومواردها الطبيعية لشهواته، السكوت عنه مع التمكن من انتزاع السلطة من يده مع وجود البديل الصالح هو إقرار للظلم والبغي والعدوان. وقد لعن القرآن الكريم في عشرات الآيات الظالمين وأعوانهم ومناصرتهم في قول أو فعل وقال في الآية الكريمة من سورة النساء: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقال في الآية ٧٥ من السورة نفسها: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي أقرت مبدأ الجهاد في سبيل الله وفرضته على المؤمنين للدفاع عن المقدسات وحقوق الإنسان وكرامته.

# المعراج عند الشيعة الإمامية

يعتقد الشيعة الإمامية بمعراج النبي من مكة إلى السماء، ومنها إلى المسجد الأقصى، وقد وقع الخلاف عند غيرهم في أنه كان بالروح وحدها أو بها مع الجسد. ويستند الشيعة إلى الكتاب والسنة الصحيحة. قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ وظاهر الآية الكريمة هو ما عليه الإمامية لأنه قال اسرى بعبده، ولفظ العبد ينصرف إلى الإنسان بهيكله، وإذا جاز أن يكون بالروح خاصة جاز أن يكون بهما معاً، لأن قدرته لا تحد، ولا يستعصي عليها شيء، ما دامت هذه المسألة من باب الإعجاز، وإظهار القدرة الإلهية، كما وأن الظاهر من قوله سبحانه ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أنه رأى ذلك ببصره، وأن ما حدّث به قومه كما في حديث المعراج المروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام وغيره من أئمة المسلمين وعلماء التفسير، كان بطريق المشاهدة الحسية، وكون المعراج في حال النوم كما يذهب إلى ذلك بعضهم يقتضي أن يكون طيفاً، وعليه لا خصوصية للنبي في عالم الأطياف لجواز ذلك على سائر الناس، مضافاً إلى أن الآية الكريمة واردة في مقام الدلالة على عظمة الله سبحانه، وقدرته البالغة، وأن النبي هو الذي اختص بهذه الكرامة. ولو فرض أن الإسراء كان في النوم لا يكون بتلك الأهمية ولا يستحق تلك العناية.

ومهما يكن الحال فالمعراج عند الإمامية من الضروريات ومنكر الإسراء خارج عن الإسلام لدلالة صريح القرآن عليه ولقول الإمام الصادق عليه السلام، ليس منا من أنكر أربعة: المعراج، وسؤال القبر، وخلق الجنة والنار، والشفاعة. وأما الكيفيات الموجودة عند الشيعة وغيرهم المتضمنة للمشاهدات والحالات الخاصة، فما دل عليه الحديث الصحيح عن النبي وعترته، وجب الاعتقاد فيه والإيمان بوقوعه، وبدون ذلك لا يجب التصديق بشيء من الكيفيات المنقولة، ومنكرها لا يخرج عن التشيع فضلاً عن الإسلام.

# حساب القبر

يعتقد الشيعة الإمامية كغيرهم من الفرق الإسلامية بحساب القبر، وأما كيفية السؤال ومقداره وكيفية العقاب والثواب الناتجين عنه، فقد وردت بها أخبار كثيرة عن النبي ﷺ وعترته عليهم السلام، والظاهر أن السؤال في القبر مما أجمع عليه المسلمون وإن وقع الاختلاف في كيفية السؤال، وما ينتج عنه من الجزاء.

قال الصدوق في كتابه المسمى (الاعتقادات): اعتقادنا في المسألة في القبر أنها حق لا بد منها، فمن أجاب بالصواب فاز بروح وريحان في قبره، وبجنة النعيم في الآخرة، ومن لم يجب بالصواب فله نزل من حميم في قبره، وتصلية جحيم في الآخرة، وأكثر ما يكون عذاب القبر من النميمة وسوء الخلق. واستدل على ذلك بقوله تعالى ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الآية. وقال المفيد رحمه الله جاءت الآثار الصحيحة عن النبي ﷺ، أن الملائكة تنزل على المقبورين فتسألهم عن أديانهم، وألفاظ الأخبار بذلك متقاربة، منها أن ملكين لله تعالى يقال لهما ناكر ونكير ينزلان على الميت فيسألانه عن ربه ونبيه ودينه وإمامه، فإن أجاب بالحق سلموه إلى ملائكة النعيم وإن ارتج عليه سلموه إلى ملائكة العذاب. وقال أيضاً وليس ينزل الملكان إلا على حي ولا يسألان إلا من يفهم المسألة، وهذا يدل على أن الله يحيي العبد بعد موته.

فالسؤال عند الشيعة من الضروريات، ولازمه أن الله يحيي العبد ثم يميته، ويدل على ذلك الكتاب الكريم، قال سبحانه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾﴾. قال في مجمع البيان: «اختلف في معناها على وجوه: أحدهما أن الإماتة الأولى في الدنيا بعد الحساب، والثانية في القبر قبل البعث، والإحياء الأول في القبر للمسألة والثانية في الحشر للحساب.

الثاني أن الإماتة الأولى حال كونهم نطفاً فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة الثانية، ثم أحياهم للبعث، فهاتان حياتان وموتتان.

الثالث أن الحياة الأولى في الدنيا والثانية في القبر والموتة الأولى في الدنيا والثانية في القبر». ذكر هذه الوجوه الثلاثة في المجمع عن المفسرين، والأول والثالث منهما يشتركان في إثبات المقصود. وأما الوجه الثالث فمع أنه خلاف ظاهرها، لا تصدق الإماتة على النطفة قبل اللقاح وصيرورتها بدء إنسان، وإنما هي قبل أن تصل إلى هذه المراحل ميتة بدون أن يميتها الله سبحانه. ولا يمنع ذلك كونها قابلة للتفاعل إذا اتصلت بغيرها، وبعبارة ثانية أن الإماتتين في الثانية من نوع واحد، ولا يتم ذلك إلا على التفسير الأول والثالث.

ونظيرها في الدلالة على الحياة في القبر للمسألة قوله سبحانه في سورة البقرة ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ قال في مجمع البيان: كنتم نطفاً في أصلاب آبائكم وبطون أمهاتكم فأخرجكم إلى دار الدنيا أحياءً ثم يميتكم ثم يحييكم في القبر للمسألة ثم إليه ترجعون أي يبعثكم الله سبحانه يوم الحشر للحساب والمجازاة على الأعمال وقد أشار علي عليه السلام إلى حساب القبر في خطبة ذكرها السيد الرضي في نهج البلاغة. قال عليه السلام: «حتى إذا انصرف المشيع،

ورجع المتفجع، أقعد في حفرته نجياً لبهتة السؤال، وعثرة الامتحان، وأعظم ما هناك بلية، نزول الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات العسير».

والظاهر من كلامه عليه السلام أن حساب القبر يقع بعد الدفن وانصراف المشيعين، وأن الميت يقعد في حفرته، ولازم ذلك عودة الحياة إليه، وأنه يعرف مصيره بعد السؤال، إما إلى جنة، وإما إلى نار، وقوله عليه السلام وأعظم ما هناك بلية نزول الحميم، لا يراد منه عذاب جهنم، لأن عذابها إنما يكون بعد حشر الناس وحسابهم الأخير، وإنما يراد منه نوع من أنواع العذاب أعده الله للمنافقين بعد استجوابهم في القبر بعد الدفن، فيكون هذا الموقف أشبه باستنطاق العبد بواسطة ملائكة أعدهم الله سبحانه لهذه الغاية، فيعرف العبد مصيره إما إلى جنة يبشر بها أو إلى نار عرف أن نهايته ستكون إليها ويمكن أن يعرض المنافق على النار في المدة التي تقع بين حساب القبر والمحشر، ويكون هذا العرض عذاباً وعقاباً، قال سبحانه بالنسبة إلى آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

وقد ورد في الدعاء الذي نسبه أبو حمزة الثمالي إلى الإمام زين العابدين عليه السلام ما هو صريح في حساب القبر، وأن الميت تعود إليه الحياة، وقد ذكر هذا الدعاء الطوسي في مصباحه، ونسبه إلى الإمام عليه السلام وهو من الأدعية الموثوق بصدورها عن الإمام. قال عليه السلام مناجياً ربه: «فما لي لا أبكي، أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكر ونكير إياي» ومما لا شك فيه أن السؤال المذكور هو سؤال القبر كما تؤكد ذلك النصوص الكثيرة.

# البعث أو المعاد

وقبل الحديث عن المعاد الإسلامي أو البعث الإسلامي لا أرى ما يمنع من تقديم بعض الصور عن البعث عند الإمام التي سبقت الإسلام على اختلاف أجناسها وانتماءاتها.

فقد جاء في معتقدات الفراعنة أن البعث لا يكتب إلا للأخيار الذين لم يرتكبوا الآثام ولم يفعلوا الشرور هذا القسم من الناس الذين يجدهم (اوزير) الآلهة مبرئين من جميع الذنوب يسمح لهم بأن يعيشوا مخلدين في حقل الفيضان السعيد، أي الحدائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن والدوام.

وتلك الحقول الفردوسية لا يمكنهم الوصول إليها إلا باستخدام صاحب المعبر وهو أوزير الذي لا يقبل في مأربه إلا من لم يرتكب إثماً من الرجال والنساء، أما الأشرار فيتركون حيث هم في قبورهم يجوعون ويظمأون ويطعمون التماسيح البشعة ولا يخرجون من قبورهم أبداً.

والذي يحاسب الموتى هو (اوزير) فيزن قلب كل من يريد الركوب في قاربه في كفة ميزان في مقابل ريشة في الكفة الأخرى ليتأكد من صدقه، أما الذين لا ينجحون فيحكم عليهم بالبقاء في قبورهم إلى الأبد في جوع وظمأ

تنهشهم التماسيح البشعة ويساعد أُزير في هذا الحساب عدد من القضاة والمحلفين يحكمون في براءة الإنسان أو إدانته، وقد يتدخل الكهنة لنقل بعض الناس من قبورهم فيعلموهم بعض الأشياء لاجتياز الامتحان الذي يتولاه أوزير إلى غير ذلك عن معتقداتهم في البعث كما جاء ذلك في كتاب الله والإنسان لعبد الكريم الخطيب وغيره.

# البعث عند الفرس

من المعلوم أن البلاد الفارسية كانت مسرحاً لكثير من الديانات والمعتقدات الصينية والهندية، ولعل الزرادشتية من أهم الديانات الفارسية وأكثرها انتشاراً فيما بينهم، وتنسب لنبيهم زرادشت، وتقوم عقيدة البعث عندهم على أساس أن للإنسان رسالة على هذه الأرض فإذا أداها على أصولها كان له الحق بالانضمام إلى الملائكة في الملأ الأعلى، وإذا قصر في أداء رسالته يبقى في عالم الظلام، ومن أسباب البعث والخلود عندهم هو أنهم يعتقدون بأن المعركة بين الخير والشر والنور والظلام تستمر اثني عشر ألف عام هي عمر الإنسان على هذه الأرض، وتبقى الحرب بينهما سجالاً ينتصر فيه الخير والنور تارة والشر والظلام تارة أخرى في أربع دورات كل دورة ثلاثة آلاف من الأعوام، ويطلب من الإنسان ليكون من الخالدين السعداء أن ينضم إلى جند الخير خلال تلك المعارك، وستُغلب قوى الشر في آخر الأمر أي بعد اثني عشر ألف سنة ويكون مصيرها الفناء وينتصر الحق في كل مكان ولم يعد للشر وجودٌ أبداً، وليس للجسد أي قيمة بعد موته عند الزرادشتيين لأنه قد أدى دوره مع الروح التي لبسته إن خيراً وإن شراً ولم يكن سوى شبحاً تجسدت فيه الروح ولذا فإنه كان يأمر بأن تلقى الأجسام إلى الكلاب أو الطيور لتأكلها ولا تسمح ديانته بدفنها أو إحراقها كما كان يفعل اليونان.

# البعث عند المانويين

لقد ظهرت طائفة المانويين بعد الزرادشتيين في عهد سابور بن اردشير ملك الفرس وادعى النبوة وأشاع في الناس مذهباً شبيهاً بمذهب الوجوديين المنتشر في عصرنا الحالي في أوروبا والولايات المتحدة وهو يرى أن القيامة ليست حياة بعد الموت، وإنما هي انتصار للنور على الظلام بتقريب أن أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها في بعض الحالات فنظرت الروح فرأت النور، فبعثت الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها إلى الشر، فلما رأى ذلك ملك النور وجه إليها ملكاً من ملائكته في خمسة أجناس من أجناسها الخمسة فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية فخالط الدخان النسيم وخالط الحريق النار وخالط النور الظلمة وخالط السموم الريح وخالط الضباب الماء، فما كان في العالم من منفعة وبركة فمن أجناس النور، وما فيه من مضرة وفساد فمن أجناس الظلمة، فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكاً من ملائكته فخلق العالم الأرضي على هذه الهيئة ليخلص أجناس النور من أجناس الظلمة. وتمضي العقيدة المانوية في أسطورتها إلى القول: بأن جميع أجزاء النور تستمر في الصعود والارتفاع حتى تصل إلى عالمها، وأجزاء الظلمة تستمر في النزول والتدني حتى تتخلص الأجزاء وتنحل التراكيب ويصل كل إلى عالمه، وذلك ما تعنيه كلمتا القيامة والمعاد عنده كما نص على ذلك الشهرستاني في المجلد الثاني من الملل والنحل وعبد الكريم الخطيب في كتابه الله والإنسان.

# البعث في الديانات الهندية

من الصعب حصر الديانات والمذاهب المتفرعة نظراً لكثرتها لأن أكثرها يقوم على الاستيطان والتأمل العميقين وتجويع الجسد وإرهاقه بالرياضات العنيفة الصارمة وكانت نتائج هذه الحالات مختلفة أشد الاختلاف حسب استعداد النفوس لها وتفاعلها معها.

والذي يغلب على الديانات الهندية جميعها هو إنكار البعث على الصور المعروفة في الأديان السماوية، ونظراً لأن الديانات الهندية لا تعرف البعث الجسدي نشأت بينهم عقيدة حرق الأجساد بعد موتها، وعندما يموت الإنسان تنتقل روحه إلى حيوانات أخرى وتلبس صوراً وأجساداً لا حدود لها فكلما بَلِيَ جسد تنتقل إلى جسد آخر وتلبسه وهو الذي تعنيه كلمة التناسخ.

كما وأن العقاب والثواب عندهم ليس جنة ولا ناراً وإنما هما في الجسد الذي تنتقل إليه الروح بعد فراقها للجسد الذي كانت تلبسه، فإن كانت أعمالها رديئة في الجسد الذي فارقته تلبس جسداً لحيوان خسيس، وتبقى فيه بمقدار جريمتها، فإذا تم عقابها تنتقل منه إلى حيوان أرقى، وهكذا تبقى تتقلب في دورات لا تنتهي وتنتقل من بدن إلى آخرى إلى ما لا

نهاية له، وهم بين ما ذهبوا إلى أن النفس تتقلب في جميع الأجساد نباتية أو حيوانية، وبين من يقصرون انتقالها إلى أبدان الحيوانات لا غير، وبين من لا يجوزون دخول نفس الإنسان في غير جسم الإنسان إلى غير ذلك من أساطيرهم وخرافاتهم التي لا يعنينا إحصاؤها وإحصاء فروعها.

وللهنود آراء أُخرى حول البعث لا ترتكز على أساس من العلم والمنطق والتفكير السليم (كالنرفانا) بعد أن مر الهنود بمرحلة طويلة كانت عقيدة التناسخ من أوسع المعتقدات انتشاراً بينهم، وبالتالي أصبحت مبعثاً لهموم الهندي وضجره من الحياة وفزعه من الموت، وانتابه الخوف من المصير الذي يهوي إليه بعد موته من حيث عدم علمه بالكائن الذي تحل فيه روحه، أهو كلب أو حمار أو حشرة من الحشرات أو نبتة من النبات، فراح يفكر في الفرار من هذا المصير المشؤوم وبعد رياضات عنيفة وتأملات عميقة انتهى به الحال إلى مرحلة (النرفانا) وهي عودة الروح إلى المطلق حيث السكون والخمود، إذا تخلى عن جميع شهوات نفسه وعن جميع حاجات جسمه ورغباته ولم يعد يحس بفرديته بحيث يبلغ مرتبة الفناء في المطلق والاتحاد بالكلي الذي انفصل عنه حيناً من الدهر ويتلاشى كما تتلاشى الأنهار المتدفقة في البحار وتفقد أسماءها وأشكالها، وبذلك الاتحاد يتخلص من العودة إلى الولادة من جديد كما يذهب القائلون بالتناسخ من تنقلهم بين الحيوانات على اختلافها إلى غير ذلك مما جاء عن معتقدات القدامى عن البعث وأشكاله ممن كانوا ينتسبون لأديان ابتدعوها لأنفسهم.

وكما تحدث أصحاب الأديان عن البعث بطرقهم ومعتقداتهم تحدث عنه جماعة من الفلاسفة القدامى بأساليبهم الخاصة (كفيثاغورس) وأمثاله، وجاء عنه أنه كان يقول: أن النفس إذا كانت طاهرة زكية من كل دنس

صارت بعد الموت إلى العالم الأعلى وسكنت في مسكنها الذي يلائمها ويجانسها، وتصحب معها إلى عالمها العلوي جانباً من الجسد الذي كانت تلبسه في حياتها الدنيا، وهذا الجانب الذي يصاحب الروح من الجسد إلى عالمها العلوي هو عبارة عن مادة لطيفة خالية من كل ثقل وكدر، وهو على حد تعبيرهم جوهري النار والهواء اللذين يشتركان في بناء الجسد، والجرم المؤلف من الماء والأرض فإنه يندثر ويفنى لأنه غير مشاكل للجسم السماوي.

وملخص رأيه أن الروح يصحبها إلى عالمها العلوي الجوانب الشقيقة من الجسد، أي أنها تحمل معها انطباعات الجسد الذي تلبست به والذي يحفظ لها ذاتية وشخصية، وهو كما يفهم من كلامه أشبه بصورة الجسد التي تميزه عن غيره وما عدا ذلك من الجسد فإنه يندثر ويفنى إلى حيث لا رجعة.

بينما يرى الفيلسوف هرقل الحكيم، الذي عاش قبل الميلاد، يرى أن يوم القيامة هو يوم الحشر للأموات جميعاً الطيبين والأشرار وكل يلقى مصيره في ذلك اليوم حسبما قدمت يداه، غير أنه يدعي أن السماء في النشأة الآخرة لا تبقى بها كواكب، وكواكبها تهبط إلى الأسفل وتحيط بالأرض وما يهبط منها ما كان من أجزائها ناراً خالصاً، وما كان منها نوراً يبقى في محله، والنفوس الشريرة الخبيثة تبقى في الأرض فيما تحيط بها الكواكب النارية التي هبطت إلى الأرض تعاقب بها إلى الأبد، وأما النفوس الشريفة الطيبة فتصعد إلى العالم الذي تمخض نوراً وبهاء وحسناً تتنعم فيها إلى الأبد أو الله سبحانه يمسح تلك الأنفس كل دهر مسحة فيتجلى لها حتى تنظر إلى نوره المحض الخارج من جوهره الحق.

ويصور (ايناذوقليس) الفيلسوف اليوناني القيامة تصويراً خيالياً ينتهي به إلى تخليص البشر بكامله من غير فرق بين الطيب والخبيث ويشترك في

البعث والخلاص الله سبحانه والعقل الكلي والنفس الكلية فتضرع النفس الكلية إلى العقل، والعقل الكلي يتضرع إلى الله فإذا استجاب الله للعقل يستجيب العقل عندها للنفس الكلية، وعندما يستجيب العقل إليها تعمل النفس عملها في دعوة النفوس الجزئية تشرق النفس على العالم بنورها فتستضيء به الأنفس الجزئية وتشرق الأرض والعالم بنور ربها حتى تعاين الجزئيات كلها وتتصل بكلياتها وتستقر في عالمها مسرورة محبورة.

# المعاد في اليهودية

يدعي المستشرق (ول ديورانت) أن عقيدة اليهود في الحياة الآخرة لم تكن وليدة الشريعة السماوية التي جاء بها موسى أن موسى لم يستطع أن يدخل إلى قلوبهم بشيء مما جاء وحينما آمنوا بإله موسى آمنوا به على أن يكون لهم قوة عاملة في الحياة اليومية يدور معهم حيثما داروا، ومضى يقول: لم يكن اليهود في عهد الرخاء يؤمنون بالحياة الآخرة، ولم يكن تعاملهم مع (يهوه) إلا على أساس دنيوي، فهو إله حرب وقوة يدفع عنهم الأعداء ويحمي وجودهم في حياتهم تلك المليئة بالخير والرفاهية، فلما ضعف أمرهم وتبددت دولتهم، ويئسوا من (يهوه الإله) أن يكون الإله العامل في خدمتهم تغيرت نظرتهم إلى الحياة وامتلأت قلوبهم ضيقاً بها وسخطاً عليها فألقوا بأطماعهم إلى ما وراء هذه الحياة ودفعوا بآمالهم إلى حياة أخرى يلقون فيها ما لم يلقوه في هذه الدنيا، وأضاف إلى ذلك (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة الجزء الثاني صفحة ٣٤٥ أنه لم يكن في هذا الدين ـ أي شريعة موسى ـ جحيم يخصص لعقاب المذنبين، ولكن أرض الظلام التي تحت الأرض لم تكن أقل هولاً عن هذا الجحيم، وكان يلقى فيها الموتى جميعهم الطيب منهم والخبيث، ومضى يقول: أن فكرة البعث لم تدر في خلد اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم

سلطان في هذه الأرض، وكل ما عندهم عن الحياة الآخرة لم يكن إلا وليد يأسهم من مكان كريم في هذه الدنيا، ولعلهم أخذوا فكرة البعث عن الفرس أو شيء منها عن المصريين القدامى.

وبلا شك فإن ما جاء في قصة الحضارة (لول ديورانت) عن البعث في شريعة موسى عليه السلام لا يخلو من الإسفاف والتجني من غير أن يقدم دليلاً مقبولاً على ذلك، لأن موسى من الأنبياء الذين حملوا الشرائع إلى الناس من عند الله الذي يجازي المحسن والعامل بأوامره والتارك لما نهى من الشرور ولا يسوي بين الظالم والمظلوم وبين الأخيار والأشرار ولا يكون ذلك إلا بالحساب الأخير وهو البعث ليكافئ المحسن على إحسانه ويلاقي المسيء جزاء ما اقترفت يداه، ولا بد وأن تكون شريعة موسى بن عمران قد حملت إلى بني إسرائيل صورة واضحة عن البعث والحساب والجنة والنار، وإذا لم تكتب التوراة في عهد موسى وقد كتبت بعده بمئات السنين أو بعشرات السنين كما يدعي أكثر الباحثين وقد عبث الكهنة والحاكمون في عهودهم بصورتها الأصلية كما تؤكد الدراسات هذه الناحية فذلك لا يصلح أن يكون دليلاً على أن شريعة موسى لم تتحدث عن البعث والحياة الآخرة، وإن ما عندهم وفي أسفارهم عن الحياة الآخرة كان وليد يأسهم من مكان كريم في هذه الدنيا بعد الانتكاسات والهزائم التي تعرضوا لها، ولماذا نجوز عليهم أن يأخذوا فكرة البعث عن الفرس والمصريين القدامى ولا نجوز عليهم أن يأخذوها من شريعة موسى المكتوبة في الصحف الأولى أو المحفوظة في الصدور وفيهما شروح مطولة وفصول كافية عن البعث والجزاء والجنة والنار، وهو الأقرب إلى الواقع والاعتبار إن لم يكن متعيناً.

# المعاد في الديانة المسيحية

المعاد لعله من الأركان الرئيسية في رسالة السيد المسيح عليه السلام ويتصل بالإيمان بالله اتصالاً وثيقاً كما هو الشأن في جميع الرسالات السماوية وإن اختلفت أشكاله وحالاته بعض الاختلاف بين أتباع الأديان حسب أفهامهم وتفسيراتهم ليوم القيامة وكيفية الحساب وما يتبعهما من المثوبات والعقوبات كما قد يختلف شكل الإله في بعض الديانات عن البعض الآخر كما يبدو ذلك من نظرة المسيحيين في السيد المسيح وتفسيراتهم له، ويدعي بعض الباحثين أن الإنجيل لم يواجه قضية البعث والحساب مواجهة صريحة لأنه لم يكن من همه أن يقرر عقيدة أو يشرح مذهباً، لأنه أرسل إلى بني إسرائيل الذين سبقه إليهم أنبياء كثيرون وتركوا فيهم كتابين سماويين التوراة والزبور، وفي التوراة مع ما دخل عليها من تحريف شروح وفصول واسعة عن البعث والجزاء والجنة والنار، لذا فإنهم لم يكونوا في حاجة إلى إعادة الحديث عن ذلك، وإنما الذي كانوا في حاجة إليه رسالة تحاول الحد من تلك القسوة التي تمكنت من قلوبهم ونفوسهم فنزعت منها الرحمة والحب وملأتها ضغينة وحقداً وأنانية لما نزل بهم من ويلات، ولما أصابهم من تشتيت وتشريد على يد أعدائهم من الأشوريين والبابليين وغيرهم من الأمم التي كانوا يتعرضون للقضاء عليها وإبادتها فكانت تحركاتهم تعود عليهم

بالويلات والدمار، فكانت مهمة السيد المسيح أن يبعث في تلك القلوب الصلدة المتحجرة ولو قطرات من الإخاء والحب والتراحم.

لقد كان اليهود في عهد المسيح يعرفون الله سبحانه ولكنهم لا يتعاملون معه، ويعرفون البعث والجزاء ولا يحسون بهما، ولذا فإن كل ما جاء في الإنجيل عن البعث والجزاء فهو من باب التذكير بهما والترغيب في الإعداد لهما، والتخويف من المصير السيّئ لمن لا يعملون الصالحات.

والكلمات التي كان يلقيها السيد المسيح لم يرد فيها ذكر للبعث وعن المرحلة الفاصلة بينه وبين الموت بل كانت تذكيراً لهم بملكوت السماوات والأرض وأنه هو الجزاء الموعود فإما أن ينتقل الإنسان بالموت إليه وإما إلى خارجه، فقد جاء في بعض عظاته طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات، طوبى للحزانى فإنهم يتعزون، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش لأنهم يشبعون، إلى غير ذلك من عظاته ووصاياه التي تشير إلى أن الإنسان بالموت ينتقل إما إلى رحمته وإما إلى خارجها.

وذهب ابن سينا في رسالته التي تحدث فيها عن المعاد أن العقيدة المسيحية ترى الحياة الآخرة للروح وحدها وليس للجسد فيها نصيب مع أن البعث يشمل الإنسان بروحه وجسده، ومع ذلك فإن الجسد لا ينال شيئاً هناك من مطالبه والثواب والعقاب للروح وحدها.

وجاء في رده على ما ذهبوا إليه كما نسب إليهم، جاء في رده عليهم أنه إذا كان الإنسان هو البدن أو كان مؤلفاً من البدن والنفس وكان البدن شريكاً للنفس في الأعمال الحسنة والقبيحة فيجب أن يثاب البدن ويعاقب بالثواب والعقاب البدني المفهوم لدى العالم، وإن كان الثواب والعقاب روحانيين فما الغرض من بعث الأجساد ما دام لا ينالهما شيء.

والإنصاف أن البعث حقيقة واقعة في الديانة المسيحية كما تتحدث الأناجيل ولكنها لم تفصح عن واقعه بما يرفع الالتباس، فمرة تجعل مقر المحسنين ملكوت السماوات ومقر غيرهم في خارجه، ومرة يصور عمل الإنسان أو حياته بحقل من الحنطة ينبت فيه الزوان فيأمر الرب وقت الحصاد بجمع الزوان وإحراقه ويأمرهم بأن يجمعوا الحنطة إلى مخزنه كما جاء في إنجيل متى الإصحاح الثالث عشر، وفي الإصحاح المذكور يقول: يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاشر وفاعلي الإثم ويطرحونهم في أتون من النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.. وحينئذ يضيء الابرار كالشمس في ملكوت أبيهم، إلى غير ذلك من نصوص الأناجيل التي تلبسها الكثير من الضباب وحجب النظر عن كشف ما وراءها، ولعل ما طرأ على الإنجيل الصحيح من تغير وتبديل وتحريف هو الذي أوجد هذا الضباب الذي حجب الأنظار عما جاء به السيد المسيح وعن رسالته المثلى. لقد جاء في إنجيل متى الإصحاح الثالث عشر أن ابن الإنسان يرسل ملائكته كما ذكرنا نص العبارة: فمن هو ابن الإنسان الذي يجعل إليه المسيح التصرف في هذا الوجود ويجعل له أمر البعث والجزاء، أهو الله؟ وكيف يوصف الإله بأنه ابن الإنسان، وهل لابن الإنسان ملكوت وملائكة يعملون في ملكوته، إلى غير ذلك من الأسئلة التي لا تزال في حاجة إلى أجوبة مقنعة وحلول ربما تكون مستعصية. ونكتفي بهذا المقدار من الإشارة إلى البعث عند الأمم وفي الشرائع التي سبقت الإسلام لنتحدث عنه كما جاء في القرآن الذي اعتبره جزءاً متمماً للإيمان بالله، وقدم لمنكريه وجاحديه من الأدلة والحجج البالغة ما يكفي لإقناعه متفادياً كل ما من شأنه أن يضع السائل والقارئ في جو من المتاهات التي تزيده حيرة وضلالاً.

# مشاهدة المعاد في القرآن

لقد أولت الشريعة الإسلامية الإيمان بالله وباليوم الآخر المزيد من العناية واختصتهما بالمزيد من الشرح والتوضيح، ولا أكون مغالياً حين أقول أن هذين الأمرين هما الأساس الذي كانت الدعوة منذ مراحلها الأولى وحتى آخر مرحلة منها تحرص عليهما وتؤكد على الإيمان بهما في الكتاب والسنة، وكأن ما عداهما من التوابع لهما.

لهذا نجد القرآن الكريم في أكثر من موضع بل وفي عشرات المواضع يجمع بين الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر.

ففي الآية من سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ وفي الآية من سورة النساء ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وفي سورة التوبة، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وفيها يقول: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وفي سورة المجادلة ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تربط الإيمان بالله باليوم الآخر ذلك اليوم الذي يعود فيه الإنسان كما كان في دنياه ليلقى جزاء أعماله وما كسبته يداه، حتى كان الإيمان بالله لا يتم ولا يكتمل إلا مع الإيمان بذلك اليوم.

ولعل السر في ذلك أن الدعوة إلى الإيمان بالله لا تعطي ثمارها المرجوة إلا إذا اقترنت بالحياة الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب لأنها عقيدة وثمرتها العمل بأوامر الله واجتناب نواهيه ابتغاء رضوان الله في الدار الآخرة، وقد جاء في الآية الكريمة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

لقد تناول القرآن الكريم قضية البعث بأروع وأوفى ما جاء به من فنون المنطق ومسالك الرأي، ولم يتحدث عنها من ناحية واحدة وبأسلوب واحد، إلى فئة معينة من الفئات، بل تحدث عنها إلى الفلاسفة وإلى العلماء وإلى عامة الناس وخاطب الجميع بالحجة الدامغة والدليل المفحم والشاهد المبين.

وعلى هذا الأساس فقد تعددت مواقف القرآن وتعددت المشاهد والصور التي تشهد لقضية البعث وتتحدث عن إمكانها في حين أن الأكثرية الغالبة في مطلع الدعوة قد واجهوا هذه القضية بشيء من الإستغراب أكثر من أي شيء آخر جاء به الإسلام، والذين مرت على أذهانهم فكرة البعث قبل الدعوة على قلتهم كانوا يرونه نوعاً من التناسخ ونحو ذلك من الصور المشوهة التي تسربت إلى الجزيرة من خارجها فيما تسرب إليها من آراء وأفكار ومذاهب كانت تدين بها الأمم السابقة من الصينيين والهنود والبابليين وحتى من اليهودية والنصرانية التي تأثرت تعاليمهما بأفكار تلك الأمم ومعتقداتها.

وقد حكى القرآن الكريم كثيراً من صور الإنكار وحجج المنكرين فمن مقولاتهم ما جاء في سورة الإسراء وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، وفي الآية من سورة مريم يقول: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، وفي الآية من سورة يس، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ

مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾، وفي الآية من سورة النحل، ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾، وفي سورة التغابن، وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، وفي سورة النازعات يقولون: ﴿...أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وفي سورة الإسراء، وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ إلى كثير من الآيات التي تعرضت لتصورات أولئك الماديين الذين ينكرون الحياة بعد الموت ويرون وقوعها مستحيلاً، وفي ذلك يقول بعض المنكرين لها من شعراء العرب:

يُخبرنا ابن كبشة أن ستحيا وكيف حياة أصداء وهام

ولقد وقف القرآن من منكري البعث أكثر من موقف مرة بإلقاء الرعب في قلوبهم من غير أن يواجههم بالاتهام وبالأدلة عليه فقال في الآية من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، وفي الآية من سورة الفرقان، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، وفي الآية من سورة الروم: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، وفي الآية من سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي الآية من سورة الكهف ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

إلى غير ذلك من عشرات الآيات التي تلقى على أسماع المنكرين للقاء الله يوم المحشر صوراً مفزعة لذلك المصير السيِّئ الذي سينتهي إليه كل من كفر بذلك اليوم الذي يجازي فيه المحسنون ويعاقب فيه المسيئون.

ومرة أخرى يعرض لهم الدار الآخرة في صور مختلفة فيها عذاب ومغفرة وجنات تجري من تحتها الأنهار ونار وقودها النار والحجارة.

لقد تحدث القرآن عن الآخرة في القرآن مائة وخمسة عشر مرة حسب المناسبات لأهميتها وصلتها الأكيدة بالإيمان بالله ورسالاته، ففي الآية من سورة قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، وقال في آية ثانية: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وقال في الآية من سورة التوبة: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وقال في الآية من سورة النساء: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تتحدث عن الآخرة بما فيها من نعيم وعذاب لكي يبدو المعاد للإنسان بصوره المتنوعة قبل وقته الموعود فيعد له العدة بما يقدمه من أعماله الصالحات. وبعد هذين الموقفين يقف القرآن من منكري البعث موقفاً صريحاً، وبعد أن يكرر مواقفهم وتحفظاتهم منه يفند أقوالهم وحججهم قولاً قولاً ويصور لهم مشاهد الآخرة مشهداً بعد مشهد بأُسلوب يزعجهم ويملأ قلوبهم فزعاً وكرباً، كما يبدو ذلك من آياته الكثيرة التي ذكرنا بعضها.

وقد جاء هذا النوع من التدرج والتمهيد للدفاع مرة بإلقاء الرعب في قلوبهم وتحذيرهم، وأخرى بترغيبهم بثواب الآخرة ونعيمها وتخويفهم من عقابها من غير أن يواجههم بالاتهام والجحود، وثالثة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة قد جاء في منتهى الدقة والروعة إلا أن هذه الصور التي رسمها لهم عن اليوم الآخر تبعث في نفوسهم شتى أنواع الخوف والحذر وتهيئها إلى الإمعان في التفكير والرجوع عن ضلالها عندما تستمع إلى الأدلة والحجج البالغة، هذا بالإضافة إلى أن التصديق بما وراء الغيب وبغير المحسوسات لا يتم في الغالب إلا بعد التمهيد بهذه الأساليب ونحوها ونظراً لخطورة هذا الموضوع ودقته فقد عالجه القرآن بشتى أنواع الحجج والأساليب والبراهين التي لا تقبل الجدال والنقاش حسب اختلاف الشبهة

وجهات التشكيك. قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي نفعل ما وعدناكم به، وفيها دلالة على قدرته على طي السماء وذهابها عن عالم الحس، وأعادة العالم بعد فنائه كما أوجده ابتداءً لأنه يملك القدرة على ذلك فهو أقدر على أن يعيد الإنسان كما بدأه. وفي سورة مريم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ وفي سورة المجادلة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ وفي سورة الطور: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ وفي سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

ولقد تعرض الكتاب الكريم إلى أن الإنسان يرجع يوم المحشر كما كان في الدنيا بهيكله لا بروحه، قال تعالى في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهي صريحة في رجوع الإنسان بجسمه كما كان في الدنيا، وأن أعضاءه التي سخرها في سبيل شهواته، تشهد عليه في ذلك اليوم وقال سبحانه في سورة ياسين ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

وقد أقام سبحانه في هذه الآية الحجة البالغة على كل من أنكر البعث، وقاس النشأة الثانية على النشأة الأولى، التي هي أدل على قدرته من الثانية، لأنه خلقه من نطفة ميتة، ثم جعله علقة، ثم مضغة، ثم عظما، وكسى العظم لحما، وجعل فيه الروح، وأخرجه من بطن أُمه، ونقله من حال إلى آخر، إلى أن أصبح ذا عقل وتفكير، يخاصم ويجادل في آيات ربه. ومن قدر على إيجاد الإنسان، والمرور به في هذه المراحل، حتى أصبح إنساناً سوياً كاملاً، فهو أقدر على إعادته كما كان في دنياه.

ثم ندد سبحانه على المنكر للبعث بعد أن أوجده بتلك المراحل الدقيقة فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ثم عاد سبحانه إلى تأييد النشأة الثانية، منكراً عليهم جحودها واستعظامها، فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ قال في مجمع البيان: أي جعل لكم من الشجر الرطب المطفئ للنار ناراً محرقة يعني بذلك «المرخ والعفار» وهما شجرتان يتخذ الأعراب زنودهما لإيقاد النار ومع مضادة النار للرطوبة فإذا احتاج أحدهما إلى النار حك بعضهما ببعض فتخرج منهما ناراً، ومن قدر على ذلك قدر على أن يعيد الإنسان يوم حشره للجزاء. ثم أدلى سبحانه بحجة ثالثة بصورة الاستفهام التقديري فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فهذه على عظمته أدل من تينك الحجتين، لأن الإنسان قد تدرج إلى مراحل متعددة حتى أصبح إنساناً، والشجر الأخضر تخرج منه النار بعد اتصال الجسمين وهما المرخ والغفار ولكن السماوات والأرض، على عظمتهما وكثرة أجزائهما أوجدهما دفعة بعد العدم. ومن كانت له تلك القدرة كان على إعادة الإنسان الصغير أقدر، لأن مادته لم تذهب والذي ذهب هو صورته النوعية، أي ما به يكون الإنسان إنساناً. وقد نبه سبحانه على البعث بهذا النحو من القياس على النشأة الأولى في سروة القيامة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وقوله سبحانه ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي أن صنع الإنسان وجميع ما في الكون لأول مرة أهم وأعظم من إعادة صنعه بعشرات المرات، إن المخترع يظل أمداً طويلاً أمام الأمر الذي يريده ويبقى أمداً يقلب وجوه الرأي ويجري عشرات التجارب حتى إذا استطاع أن يحقق ما يريد يصبح إعادة صنعه عملاً آلياً يصنع منه الألوف وعشرات الألوف

بدون أي مشقة أو تعب يذكر، والله سبحانه يقول لهؤلاء الذين يرون استحالة إعادة الخلق بعد فنائه ما دام الخلق الأول قد تم وحصل بدون جهد وإعياء فإعادته أيسر علينا وأهون بملايين المرات، ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ولقد سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى كما حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾. فأخذ إبراهيم أربعة من الطير، وقطعها وفرق أجزاءها، ومزج بعض أجزائها ببعض، وفرقها على الجبال العشرة أو السبعة على اختلاف التفاسير، ثم دعاها إليه فميز الله بعضها عن بعض، وأعادها إليه حية كما كانت، وهكذا يعود الإنسان حياً بعد انعدام صورته وتفرق أجزائه كما كان في حياته الدنيا.

وأما كيفية الحساب بعد المعاد، ومن الذي يحاسب، فقد وردت الأخبار الصحيحة عن النبي ﷺ وعترته وصحابته الكرام ببيانه، فالاعتقاد بكيفية خاصة للحساب ليس ضرورياً في عقيدة الشيعة والاختلاف في الكيفية والشكل لا يضر بالتشيع ولقد تعرض علماء الإمامية في كتبهم الكلامية، لرد جميع الشبه على المعاد الجسماني فمن أراد أن يتبسط في ذلك فعليه أن يرجع إلى تلك الكتب.

# شبهة الآكل والمأكول

وحاصل الشبهة بأننا نفرض أن زيداً مات واستحال جسمه إلى تراب، ثم استحال التراب إلى نبات وتغذى عمرو بذلك النبات فيستحيل جسم زيد إلى جسم عمرو، وبناء على إعادة الأجسام بعينها فإن أعيد عمرو الآكل لم يكن زيد المأكول معاداً فتنتفي الإعادة بالنسبة لأحدهما لا محالة. وقررها بعض الفلاسفة بأُسلوب آخر محصله أنه إذا أكل إنسان إنساناً آخر فإن كان الآكل كافراً والمأكول مؤمناً لزم تعذيب المؤمن لأنه استحال إلى بدن الكافر والكافر معذب، وإن كان الآكل مؤمناً لزم أن يكون الكافر منعماً لأنه استحال إلى جسم المؤمن والمؤمن منعم.

وأجاب المتكلمون عن هذه الشبهة بأن للإنسان أجزاء أصلية وأجزاء عرضية والتي تستحيل إلى بدن آخر هي الأجزاء العرضية، أما الأصلية فلا تصير جزءاً من غيرها بل تبقى على حقيقتها من أول العمر إلى آخره.

كما أجاب عنه الفلاسفة بأن حقيقة الإنسان هي نفسه لا بدنه والأكل إنما يقع على البدن لا النفسي التي بها يكون الإنسان إنسانا.

ومهما كان الحال فالمعول على ما جاء في القرآن الكريم من حيث الحساب والعقاب وقد نص على أن الإنسان يعود بجسمه كما كان في الدنيا وتشهد عليه يداه ورجلاه ومن أنكر شيئاً من ذلك فقد خالف الإسلام والتشيع وكان مع الكافرين.

# الجنة والنار

يعتقد الشيعة الإمامية بأن الجنة والنار دار الجزاء. قال الشيخ أبو جعفر الكليني في رسالته الاعتقادات: «اعتقادنا أن الجنة دار البقاء، لا موت فيها ولا هرم، ولا سقم ولا مرض، ولا آفة ولا زوال، ولا هم ولا فقر» وقال المفيد رحمه الله في شرحه لاعتقادات الصدوق: «الجنة دار النعيم، جعلها الله سبحانه داراً لمن عرفه وعبده، ونعيمها دائم لا انقطاع له» إلى أن قال: «وثواب أهل الجنة الالتذاذ بالمآكل والمشارب والمناظر والمناكح وما تدركه حواسهم مما يطبعون على الميل إليه» وليس في الجنة من البشر من يلتذ بغير مأكل ومشرب، وقول من يزعم أن في الجنة بشراً يلتذ بالتسبيح والتقديس من دون الأكل والشرب قول شاذ عن دين الإسلام، وهو مأخوذ من مذهب النصارى الذين زعموا أن المطيعين في الدنيا يصيرون ملائكة، لا يطعمون ولا يشربون ولا ينكحون، ولقد كذبهم الله سبحانه في كتابه: بما رغب به العاملين بالله سبحانه، قال في سورة الرعد: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ والذي يتتبع في القرآن الكريم آيات العذاب وآيات النعيم يرى أن رحمة الله قد سبقت غضبه وأن جنته أرحب من ناره، وأن الخير الذي يفيض منها جدير بأن يملأ الوجود فلا يبقى للنار مكان وأن الله سبحانه لم يترك باباً من الأبواب يوفر للإنسان

دخول الجنة وينجيه من جهنم وأهوالها، إلا ودعا إليه وفتحه في وجه الإنسان وسهل له سلوكه، ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي الآية من سورة الحج ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ﴾، وفي الآية من سورة ص ﴿...وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي تضع الجنة في متناول كل إنسان وترشده إلى عشرات الطرق الموصلة إليها، ثم وصفها له بما يبعث في نفسه الرغبة والشوق إليها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت به ولا خطر على قلب بشر، فيقول له: فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وفيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، وفيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وفيها حور مقصورات في الخيام، وأصحابها في شغل فاكهون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم، ويسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ويحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق إلى غير ذلك من أوصافها وأوصاف أهلها التي تفوق حدود التصور.

وأما النار فالآيات التي تعرضت لوصفها ووصف ما فيها من ألوان العذاب كثيرة إلى حد أنه قلما تخلو سورة من سور القرآن من الحديث عن جهنم أو أهلها تصريحاً تارة وتلويحاً أخرى. إنها نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، وإنها لظى نزاعة للشوى، وهي سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر، وهي التي لا تضيق بأهلها مهما كثروا وفيها شره ونهم لا تشبع أبداً، يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد وتكاد تميز من الغيظ، وطعامها من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون، وفيها شجرة الزقوم

طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم، وأهلها لا يذوقون بردا ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وصفت عذابها وطعامها وأدوات التعذيب والتنكيل والموكلون بأهلها من الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ووصف المعذبين فيها وما ينتابهم من الندم والحسرات على تفريطهم واستهتارهم برسل الله وما جاؤوا به من أنظمة وتشريعات.

ومن البلاء الذي يلقاه أهل النار فوق بلائهم أنها تتحرك يوم ذاك بما فيها من طاقات حرارية وبما تحمل في أحشائها من كريه الطعام ووبيل الشراب وبما في ساحاتها المتسعرة من زبانية وسلاسل وأغلال تتحول بكل هذه الطاقات إلى عدو مبين تطلب وترها من هؤلاء المساقين إليها لتجد فيهم طعامها فهي إذ تطبق عليهم وتضمهم إليها تعمل فيهم مخالبها في حنق وغيظ تكاد تميز من الغيظ كلما سألها خزنتها هل امتلأت تقول هل من مزيد؟

ويبقى أن العذاب الذي وعد به الكافرين والعاصين لأوامره ونواهيه هل هو خالد بمعنى أن الكافرين وغيرهم من الفساق والعصاة مخلدون في نار جهنم أو هو دائم بالنسبة لفريق وموقوت بالنسبة لفريق آخر؟ ففي كثير من الآيات أن المعذبين خالدون في نار جهنم وهذه الآيات أكثرها بالنسبة لمن كفر بالله ورسله، فمن ذلك قوله تعالى: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. كما جاء في بعضها ما يوهم الخلود حتى بالنسبة لغير الكفار من مرتكبي الكبائر، كقوله تعالى: وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها، فعطف الكفار على المنافقين والمنافقات يشير إلى أنهما من غير الكفار.

وقال الشيخ المفيد رحمه الله في شرحه لاعتقادات الصدوق؛ أن كل

آية تتضمن ذكر الخلود في النار فإنما هي في الكفار دون أهل المعرفة بالله.

وجاء في شرح التجريد للعلامة الحلي: أن المسلمين قد أجمعوا على أن عذاب الكافر مؤبد لا ينقطع، واختلفوا في أصحاب الكبائر من المسلمين، فالوعيدية[1] من المعتزلة قالوا بأنهم كالكفار مخلدون، وذهب أكثر المعتزلة والأشاعرة وعامة الإمامية إلى أن أصحاب الكبائر لا يخلدون في النار وفرقوا بين صغار الذنوب وكبارها بفروق لا تخرج عن كونها اعتبارية أو إضافية.

وبعد هذا الإيجاز قال: والحق أن عقاب أهل الكبائر ليس بدائم واستدل كذلك فيما استدل بقوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، والإيمان بالله ورسله من أعظم أعمال الخير، وبأنه لو قلنا بأن صاحب الكبيرة من المخلدين في جهنم لزمنا أن نقول: بأن المطيع لله إذا عصاه بكبيرة واحدة في آخر عمره كان مع المخلدين وذلك لا يقره العقل، بل هو ظلم لا يجوز نسبته إلى الله لأنه يستلزم تجاهل جميع حسناته وصالح أعماله، وليس من مذهبنا الإحباط كما تذهب إليه بعض الفرق السنية، لقوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، هذا بالإضافة إلى منافاته لحكم العقل ولأنه يؤدي إلى نسبة الظلم إلى الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) الوعيدية هم القائلون بأن على الله سبحانه أن يفي بوعده ووعيده وهم أكثر المعتزلة لأنه وعد المطيعين بالنعيم وتوعد العاصين بالعقاب وكلاهما وعد يجب الوفاء به، بينما يدعي الإمامية أن على الله أن يفي بوعده كرماً منه وتفضلاً، وليس عليه أن يفي بما توعد به بمقتضى رحمته بعباده وعفوه كما وصف نفسه.

# القرآن

## القرآن عند الشيعة الإمامية

تدين الشيعة الإمامية بتعظيم القرآن وتقديسه، وأنه الكتاب المنزل على محمد ﷺ، وهو المرجع الأول عندهم في الفروع والأصول، وكل واقعة لا يوجد حكمها في الكتاب، يرجعون فيها إلى سنة رسول الله وأحاديث عترته من بعده، بعد أن صح عندهم أنه لا ينطق عن الهوى. وقال ﷺ في حديث أجمع المسلمون على صحته أني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي. وفي القرآن المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ والمجمل والمبين، والعام والخاص، والفرائض والسنن، والقصص والحكم والمواعظ، وكثير مما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده. والذي بين أيدي المسلمين، هو الذي يؤمنون به ويعتقدون نزوله على النبي ﷺ، لا زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تبديل، ومن نسب لهم غير ذلك فقد افترى عليهم الكذب، والاخبار المنسوبة إلى أئمة الشيعة، بأن علياً عليه السلام جمع القرآن بعد وفاة النبي، وعرضه على المسلمين فرفضوه لما فيه من الزيادة والنقصان، مكذوبة على أئمة الشيعة، وهي من صنع الدساسين المستأجرين للسلطة الحاكمة ليشوهوا سمعة الأئمة الهداة ولو

صح وجود قرآن لعلي عليه السلام يزيد عما بين أيدي المسلمين، فالزيادات إنما هي من التفاسير التي تلقاها من الرسول صلى الله عليه وآله وقد دونها علي عليه السلام باعتبار أنها منزلة من الله لا لأنها من القرآن.

ولقد أمر الأئمة بالرجوع إلى الموجود بين أيدي الناس ومنه أخذوا الكثير من أحكام الله، ورغبوا في تلاوته، وإذا تعارض الخبران ولم يمكن الجمع بينهما بنحو التخصيص أو التقييد فقد أمروا بالرجوع إلى الكتاب وعرضهما عليه والأخذ بما وافقه منهما.

قال الشيخ الصدوق في اعتقاداته: «اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وآله هو ما بين الدفتين» وما في أيدي الناس ليس بأكثر من ولا أقل. ومن نسب إلينا غير ذلك فهو كاذب. وفي التعليقة على أوائل المقالات للمفيد، قال العلامة الشهرستاني: أن القرآن المنزل من الله على رسوله إنما هو الموجود بين الدفتين، ونقل عن السيد المرتضى أن القرآن محفوظ من الزيادة والنقصان. وقال المفيد في أوائل المقالات عن جماعة من الإمامية أنه لم ينقص منه كلمة ولا حرف ولا سورة، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصنف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه عن حقيقة تنزيله، وذلك كان منزلاً من الله سبحانه، وإن لم يكن قرآناً. وقد يسمى تأويل القرآن قرآنا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ وعلى ذلك تحمل أحاديث النقصان إن ثبت صدورها على أئمة أهل البيت عليهم السلام على أن أحاديث النقص موجودة في صحاح السنة كصحيح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الحديث الموثوقة عندهم ولقد تعرضنا لهذا الموضوع في كتابنا دراسات في الكافي والبخاري بصورة واسعة وأثبتنا بالأرقام أن أحاديث التحريف من صنع الغلاة والمأجورين للكذب على أهل البيت.

والأخبار عن أئمة الشيعة في فضل قراءته وحمله، ووضعه في البيت، والنظر إليه فوق حد الإحصاء. ففي الوافي عن عبد الله بن سليمان عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال من قرأ القرآن قائماً في صلاته كتب الله له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه في صلاته جالساً كتب الله له بكل حرف خمسين حسنة، وفي غير صلاة كتب الله له بكل حرف عشر حسنات، وفي الوافي عن اسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له جعلت فداك إني أحفظ القرآن عن ظهر قلبي، فأقرأه على ظهر قلبي أفضل أو أنظر في المصحف، قال فقال لي: بل اقرأه وانظر في المصحف، إن النظر في المصحف عبادة، وروى غيرهما مجموعة من المرويات، في مقام الترغيب والتقديس للقرآن الموجود بين أيدي المسلمين.

ومع كل ذلك فقد نسب إليهم دعاة التفرقة القول بالتحريف وأغرب من ذلك ما جاء في كتاب الاستاذ خالد محمد خالد (الديمقراطية) وهو أحد المتخرجين من جامعة الأزهر.

قال: وهناك دولة مثل إيران، ومثل العراق، أما الأولى فيدين جميع أهلها بمذهب الشيعة إلا قليلاً منهم، وأما الثانية فتضم من الشيعة عدداً غير قليل، والشيعة كما نعلم، لبعض طوائفهم قرآناً غير قرآننا، وهم لا يعترفون بالسنة وأحاديث الرسول التي يرويها وينقلها أئمة أهل السنة، مع أن هذا التراث الهائل يمثل المذكرة التفسيرية لمبهم القرآن ومجمله، واستطرد في حديثه يلصق بالشيعة ما يبرأون منه، والذي يهمنا الآن ونحن نتحدث عن عقيدة الشيعة في القرآن، أن نحاسبه على قوله أن لبعض فرقهم قرآناً غير قرآن المسلمين.

إن الشعبين، الإيراني والعراقي شيعيان بتمامهما، خلا حفنة قليلة في العراق لا تزيد عن العشرين بالمائة، لها مذاهبها المختلفة، وأكثريتها من

إخواننا أهل السنة. وإيران بأجمعها، وأكثرية العراق الساحقة من الشيعة الإمامية وفي النجف جامعة دينية من أشهر الجامعات، وأقدمها في الشرق، وإليها يهاجر الشيعة من أقطار الدنيا الواسعة لدراسة العلوم الدينية ولم يسمع أحد من الشيعة أن لبعض فرق الشيعة في هذين البلدين قرآناً غير قرآن المسلمين، وعندهم أن الشاك في آية من آيات القرآن، الموجودة بين إيديهم خارج عن الإسلام، فما ندري من أي مصدر يستقي الأُستاذ هذه النظرية.

وقد كتب سماحة رئيس محكمة الاستئناف الشيخ محمد جواد فقيه مقالاً وافياً بالموضوع في مجلة العرفان حول ما يلصقه الأستاذ خالد بالشيعة، وبالتالي حاول أن يبرر أخطاءه بعدم إطلاعه على معتقدات الشيعة وكتبهم، ولو كان الأمر كذلك كان من اللازم أن يعتذر الأستاذ خالد لسماحة الشيخ والشيعة إذا كان في كتابه كما يصفه الشيخ مجرداً عن الدوافع النفسية ورواسب القرون الأولى.

وبعد أن نسب الأستاذ خالد إلى الشيعة ذلك لا نستغرب قوله بعد هذا، إن الشيعة لا يعترفون بالسنة وأحاديث الرسول التي يرويها وينقلها أئمة أهل السنة، لأن هذه النسبة أقل ضرراً على المسلمين من سابقتها، وسنتعرض في الفصول الآتية إلى مراجع الأحكام عند الشيعة وكيف يقسمون الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، وعترته عليهم السلام، ومنه يعرف الأستاذ خالد وغيره، ممن لا يتجردون في أبحاثهم لخدمة الحق والواقع، أن الشيعة يعتمدون على حديث أهل السنة كما يعتمدون على حديث غيرهم من الشيعة إذا كان رواته من المعروفين بالوثاقة والاستقامة في دينهم. ولو رجع الاستاذ خالد إلى مجمع البيان وغيره من تفاسير علماء الشيعة، لعرف أنا نعتمد على آراء جميع المفسرين، ولا نفرق بين طائفة وأخرى، إذا ساير التفسير أصول الإسلام وفروعه ولم يخالف الضرورات من الدين.

# الشفاعة عند الشيعة

يعتقد الشيعة الإمامية أن النبي والأئمة وبعض الأولياء، يشفعون لفريق ممن آمن بالله، وارتكب بعض الذنوب، وقد جعل الله ذلك للمؤمن تكريماً له ومكافأة على تفانيه وإخلاصه لدعوة ربه، فلم يكتف له بما أعده من الدرجات الرفيعة للعالمين بل جعل له الصلاحية الواسعة ليشفع بمن شاء من المؤمنين.

قال الشيخ أبو جعفر الصدوق: اعتقادنا في الشفاعة أنها لمن ارتضى دينه من أهل الكبائر والصغائر، فأما التائبون من الذنوب فغير محتاجون إلى الشفاعة. قال النبي ﷺ: من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي. وقال ﷺ: لا شفيع أنجح من التوبة، والشفاعة للأنبياء والأوصياء، ولا تكون لأهل الشك والشرك، ولا لأهل الكفر والجحود، بل تكون للمذنبين من أهل التوحيد. وقال المجلسي: ويجب أن نؤمن بشفاعة النبي والأئمة، فإن الله لا يخلف وعده بالثواب لمن أطاعه، ويمكن أن يخلف الوعيد بأن يغفر لمن عصاه من المؤمنين من غير توبة تفضلاً منه وكرماً.

وقال المفيد في كتابه أوائل المقالات، بعد أن ذكر أن النبي وعلي والأئمة من ولده، يشفعون فيشفعهم الله، قال وعلى هذا القول إجماع

الإمامية إلا من شذ منهم، وقد نطق به القرآن وتضافرت به الأخبار، وفي حاشية الكتاب المذكور، اتفق كافة فرق المسلمين على ثبوت الشفاعة لنبينا ﷺ لكنهم اختلفوا في معناها، فالمعتزلة قالوا بأنه يشفع للمؤمن الطائع، وينتج من شفاعته زيادة المنافع، وقال غيرهم أنها للعصاة والفساق من أهل الإيمان، وينتج عنها سقوط العقاب عنهم. ومهما يكن فلا شبهة في ثبوتها للنبي والأئمة عند الشيعة. بل حتى لبعض الأولياء الصالحين.

ويمكن أن يستدل على أصول ثبوتها، بما جاء في الكتاب الكريم قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ والمراد من الآية كما في مجمع البيان، لا تنفع في ذلك اليوم شفاعة أحد في غيره، إلا شفاعة من أذن له الله أن يشفع، ورضي قوله فيها من الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء، وفيها دلالة على أنها لا تقبل من أصحاب الذنوب، لأن المذنب في أمس الحاجة إلى من يتوسط في أمره فلا يصلح أن يكون وسيطاً لغيره كما تدل على ذلك الآية ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾، وفي سورة مريم لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً، بعد أن حكى عن المجرمين في قوله يوم نسوق المجرمين إلى جهنم وردا، قال لا يملكون الشفاعة، والمراد بذلك أن الشفاعة لا يملكها إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً، أي من عاهد الله والتزم بما عاهد عليه، وأهل الذنوب والكبائر لم يلتزموا بما عاهدوا الله عليه من فعل الطاعات واجتناب السيئات، وفي سورة المؤمن ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فهي تدل على أن الشفاعة في يوم الحساب، ولكن الظالم ليس له قريب ينفعه ولا شفيع يطاع قوله فيه.

وفي سورة سبأ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، وإنما يأذن سبحانه لمن رضيه وارتضاه من عباده، وهم الأنبياء والأولياء. وفي آية

أخرى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ فهذه الآيات الكريمة تكاد أن تكون نصاً في الشفاعة والأخبار الكثيرة عن النبي ﷺ وعترته صريحة في ذلك، ولقد قال الصادق عليه السلام ليس منا من أنكر أربعة: المعراج، وخلق الجنة والنار، وسؤال القبر، والشفاعة.

ويظهر من بعض الأخبار أن الشفاعة تكون لبعض المذنبين دون بعض، ويظهر ذلك مما رواه في الوافي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال الذنوب ثلاثة: ذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه، قال الراوي: فبينها لنا يا أمير المؤمنين! قال: أما الذنب المغفور، فذنب عاقب الله فاعله في الدنيا، والله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرتين وأما الذنب الذي لا يغفره، فظلم العباد بعضهم لبعض، إن الله سبحانه إذا برز للخليقة، أقسم قسماً على نفسه فقال: وعزتي وجلالي، لا يجوزني ظلم ظالم، ولو كفا بكف. وأما الذنب الثالث، فذنب ستره الله على عبده، ورزقه التوبة منه، فأصبح خائفاً من ذنبه، راجياً لربه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة ونخاف عليه العقاب. والمراد بقوله فنحن له أي نشفع به إلى الله، ويخاف أن يرد شفاعتنا، ويعاقبه على ذنبه. وروى صالح بن عقبة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قلت لأبي عبد الله رجل فجر بجارية أخيه، فما توبته؟ قال عليه السلام: يأتيه فيخبره، ويسأله أن يجعله في حل ولا يعود. قلت: فإن لم يجعله من ذلك في حل؟ قال: يلقى الله سبحانه زانياً، خائناً. قلت فالنار مصيره! قال: شفاعة محمد وشفاعتنا تحيط بذنوبكم يا معشر الشيعة، فلا تعودوا، ولا تتكلوا على شفاعتنا، فوالله ما نال شفاعتنا أحد إذا فعل هذا، حتى يصيبه ألم العذاب، ويرى هول جهنم. ويتأكد هذا المعنى في كثير من كلماتهم عليهم السلام فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال لفاطمة عليها السلام: اعملي يا فاطمة فلن أغني عنك من الله شيئاً. وقولهم: الجنة لمن أطاع الله ولو كان عبداً حبشياً، والنار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً.

وقولهم: لا تنال شفاعتنا مستخفاً بالصلاة، فما عرف عنهم إلا التخويف من عذاب الله، والترغيب في طاعة الله، وفي مناجاة أمير المؤمنين، وحفيده الإمام زين العابدين عليه السلام، خير شاهد على أنهم لم يكونوا في وقت من الأوقات، يمنون أحداً بالشفاعة والسلامة من العذاب بل أرادوا أن ينتهج الإنسان سبيلهم القويم وطريقهم الواضح، فقد روي في الكافي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ليس من شيعتنا من كان في بلد فيها أربعون ألف نسمة وفيهم من هو أروع منه.

وفي رواية صالح بن عقبة وغيرها دلالة على أن الشفاعة في حقوق الله خاصة، وأما ما يكون حقاً للعباد فلا تشمله أدلة الشفاعة ولا بد من العقاب عليه إلا إذا أبرأه صاحب الحق. فالشفاعة على هذا النحو لا ينكرها العقل، وأقرها كتاب الله الكريم، والإيمان بكل ما هو موجود في اختبارها من الكيفيات ومقدار عمومها وثبوتها للمؤمنين ليس ضرورياً في دين الإسلام ولا في مذهب الشيعة.

# الأئمة الإثنا عشر

# عند الشيعة

لقد ذكرنا رأي الشيعة الإمامية في الخلافة الإسلامية، وأنها بالنص الإلهي، ولا رأي للأمة فيها. وقد نص النبي ﷺ على إمامة الإثني عشر، والروايات التي نصت على إمامتهم، رواها الفريقان بأسانيد متعددة، ومضامين مختلفة وذكرها الكثير ممن عنى بنقل الحديث والسنن، منهم العلامة في كتابه كشف الحق ونهج الصدق، فقد جاء في كتاب المذكور عن الزمخشري بإسناده إلى رسول الله ﷺ أنه قال فاطمة مهجة قلبي وإبناها ثمرة فؤادي، وبعلها نور بصري، والأئمة من ولدها أمناء ربي، ونقل أيضاً في كتابه المذكور عن السدي في تفسيره، وهو من علماء أهل السنة وثقاتهم أن سارة لما كرهت مكان هاجر، أوحى الله إلى إبراهيم، أن ينطلق بإسماعيل وأمه، حتى ينزل بيت النبي التهامي يعني بذلك مكة المكرمة، فإني ناشر ذريته وجاعل منهم نبياً عظيماً ومظهره على الأديان، وجاعل من ذريته إثني عشر عظيماً. وفي الكتاب المذكور أيضاً عن أحمد بن حنبل في مسنده وغيره، عن النبي ﷺ أنه قال للحسين عليه السلام: أنت السيد ابن السيد أخو السيد أبو السادة، أنت الإمام ابن الإمام أخو الإمام أبو الأئمة، أنت الحجة

ابن الحجة أخو الحجة أبو الحجج التسع. من صلبك تاسعهم قائمهم، وهذا الحديث مروي في الطبري وغيره بتفاوت لا يضر بالمقصود.

وحديث الثقلين المروي في صحاح أهل السنة، كابن حنبل والثعلبي، وأبي داود في صحيحه، ومسلم وغيرهم، وقيل بأن طرقه تزيد على مائتي طريق، وفي الحديث الشريف أمرهم بالتمسك بكتاب الله وأهل بيته وكرر قوله: أذكركم الله وأهل بيتي، ثم قال فإن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا. وما تدين به الشيعة من إمامتهم لا يزيد عما اشتمل عليه الحديث الشريف، لأن الإمامة عندهم ليست إلا الأخذ بقول الإمام، والرجوع إليه في مشاكل الحياة، والاقتداء بسيرته المثلى وأخذ معالم الدين عنه. ولازم ذلك أن يكون أفضل أهل زمانه وأعلمهم بالله، وأقربهم إليه وأبعدهم عن معصيته.

وذكر ابن أبي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج، عن صاحب حلية الأولياء عن النبيﷺ أنه قال: من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن التي غرسها ربي فليوال علياً ويعتقد بالأئمة من بعدي فإنهم عترتي خلقوا من طينتي ورزقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين لهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي. وروى المحدثون طائفة من المرويات تنص على أن خلفاء النبيﷺ إثنا عشر خليفة، ذكرها أصحاب الصحاح في صحاحهم وغيرهم، ففي بعضها لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، ويكون عليهم إثنا عشر خليفة كلهم من قريش، وفي آخر يكون من بعدي إثنا عشر خليفة كلهم من قريش، وغير هاتين كثير بهذا المضمون.

ولو قطعنا النظر عن الطائفة الأولى التي نصت على أنهم من عترته، وأن الحسين أبو الأئمة التسعة، وأن التاسع من ولد الحسين قائمهم، وعن

الأحاديث التي صرحت بأسمائهم واحداً بعد آخر، ورجعنا إلى الطائفة الثانية التي نصت بأن خلفاءه إثنا عشر قرشياً، فلا يساعدنا المنطق على القول بأن هذه الأحاديث جاءت لتخبرنا عن مستقبل الخلافة الإسلامية، وأنها لا تكون إلا في قريش، بحيث لا يكون هذا الامتياز إلا للقرشيين، ولا حظ لغيرهم في ذلك، لأن هذا يتناقض مع المبدأ الإسلامي، القاضي بإلغاء كل تفوق يكون من غير طريق الدين والأعمال الصالحة، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، فلا بد وأن تكون هذه الأحاديث مشيرة لأشخاص معروفين عنده مميزين عن غيرهم جمعوا أفضل الصفات وبلغوا أسمى مراتب الكمال التي يمكن أن يبلغها الإنسان، وأخذوا بأهداب الرسول وتوسموا خطواته ونهجوا على سنته.
فنظر إليهم من وراء السنين البعيدة بواسطة الوحي من ربه، والأرض تشرق بأنوارهم، وتتعطر من طيبهم، فنص عليهم كما أمره ربه بهذه النصوص العامة والخاصة. ولو أغمضنا النظر عن ذلك، فمن البعيد أن يراد بهذه الأخبار من تداول الخلافة الإسلامية، لأن عددهم يزيد عما اشتملت عليه هذه الروايات، أضعافاً مضاعفة وأبعد منه أن يكون المراد بهم خلفاء بني أمية، كيزيد بن معاوية وأمثاله، ممن تعاقبوا على الحكم وتداولوه بينهم.
وأبعد منهما أن يكون المراد من تلك الأحاديث الصلحاء من الخلفاء البالغين إثني عشر خليفة، كما ذكر ذلك بعض الشراح لهذه الأحاديث. ولو افترضنا أن الصلحاء منهم يبلغون هذا العدد، فظاهر الأخبار لا يساعد على ذلك، وليس النبي في مقام بيان الصلحاء وتمييزهم عن غيرهم، وإنما الذي يظهر منها أنه في مقام بيان من يخلفه في حفظ دينه، وأداء رسالته، والسير على نهجه وسنته، ولم تتوفر هذه الصفات بغير الأئمة الإثني عشر من ذريته وعترته.

واغتصاب حقهم وصدهم عن القيام بشؤون الأمة لا يخرجهم عن

كونهم الخلفاء الشرعيين، كما لا يخرج النبي عن النبوة لو فرض أن الناس لم يؤمنوا برسالته. وقد حكى الله سبحانه ما كان من قصة نوح مع قومه، وأنه ألح في دعوتهم للإيمان به وألحوا في عنادهم، قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾، فكان آخر أمرهم أن دعا عليهم، فأغرقهم الله، ولم يبق معه إلا حفنة من المخلوقات، فلم يخرج بذلك عن النبوة، ولقد قال النبي ﷺ في حديث أجمع علماء الحديث على صحته في الحسن والحسين عليهما السلام إن ولدي هذين إمامان قاما أو قعدا، ولا شك أن المراد بالقيام والقعود، هو القيام بأمر الأمة، والقعود عنه. والشيعة كما يعتمدون على هذه النصوص في إثبات إمامة الإثني عشر، يعتمدون أيضاً على النصوص الخاصة الواردة عن طريق العترة الطاهرة على إمامتهم ولم ينتقل أحد من الأئمة إلى ربه إلا بعد أن نص على إمامة خلفه من بعده.

ولقد كانت الظروف السياسية، تفرض عليهم أحياناً عدم الإعلان العام، والتكتم في أمر الخلف الجديد وذلك بإعلام فئة من الموثوقين العارفين بتكتم وحرص شديدين كما كان الحال بعد وفاة الإمام جعفر، وولده موسى عليهما السلام. وكان لذلك أثره البالغ في انتشار المذاهب وتعددها في تلك الفترة من الزمن.

# علي بن أبي طالب

هو الإمام الأول عند الشيعة. ولد في مكة المعظمة بعد عام الفيل بثلاثين سنة. وعند جمهور من الشيعة الإمامية وغيرهم من مؤرخي السنة ومحدثيهم أنه ولد في الكعبة المشرفة، وكان للنبي من العمر سنة ولادته ثمان وعشرون سنة. وفي المجلد الأول من شرح النهج أن النبي ﷺ كان يَتَيَمَّن بتلك السنة، لولادة علي عليه السلام فيها، ويسميها سنة الخير والبركة، وشاهد فيها من الكرامة والقدرة الإلهية ما لم يكن شاهده من قبل. وقال لأهله لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا بولادته أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة. وكان كما قال ﷺ ناصره والمحامي عنه، وكاشف الغم عن وجهه، وبسيفه ثبت دين الإسلام، وأرست دعائمه وتمهدت قواعده. وهو أول من أسلم مع النبي ﷺ على رواية أكثر المؤرخين وأصحاب السير، بعد خديجة زوجة النبي. وفي شرح النهج روايات كثيرة تنص على أنه أول من آمن بالرسول، وفيه عن أنس بن مالك: استنبأ النبي يوم الإثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء. وفي الشرح عن إسماعيل بن أياس بن عفيف الكندي، عن أبيه عن جده قال: كنت امرءاً تاجراً، فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرءاً تاجراً، فوالله إني لعنده بمنى، إذ خرج رجل من خباء له قريب منه فنظر إلى الشمس، فلما رآها قد

مالت قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام راهق الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلي فقلت للعباس: ما هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله ابن أخي. قلت: من هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته خديجة بنت خويلد! قلت من هذا الفتى؟ قال علي بن أبي طالب ابن عمه! قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال يصلي وهو يزعم أنه نبي! ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام، ويزعم أنه سيفتح على أمته كنوز كسرى وقيصر. ولقد اختلفت الروايات في سنه يوم إسلامه.

ففي بعضها أنه كان له من العمر ثلاث عشرة سنة، وفي بعضها الآخر إثنتا عشرة سنة، وقيل أكثر من ذلك وأقل. ومهما يكن الحال فسواء كان أول المسلمين أو ثالثهم، فقد استقبل الإسلام في صباه، لم تدنسه آثام الجاهلية ولم يسجد لغير الله سبحانه وافتتح حياته بالجهاد بإيمان راسخ، وإخلاص يقوده إلى التفاني والتضحية في سبيل الرسول، ودعوته الميمونة. ورافق جميع التطورات التي مرت بها الدعوة، فكانت الغزوات والحروب وهو في طليعة المجاهدين بلا منازع في ذلك. وتم للنبي الانتصار وحقق الله على يده ويد الرسول عزاً للإسلام والمسلمين، ونص النبي ﷺ على استخلافه من بعده في كثير من المناسبات، وفي سنة وفاته بعد رجوعه من حجة الوداع كان النص العام على حشد من المسلمين لم يتفق أن تيسر له قبل ذلك.

ولم يكن أحد من المسلمين يحتمل أن الخلافة ستكون إلى غيره، إلى أن كانت وفاة الرسول الأعظم. وجرى بين المهاجرين والأنصار ما نقله إلينا التاريخ، من تنافس على الخلافة أدى إلى تغلب المهاجرين واتفاق الكثير منهم على أبي بكر.

هذا والنبي في البيت الذي توفي فيه، وعلي منصرف بكله إلى تجهيزه واستقبال المعزين له بمصابه بالراحل العظيم، قد شغله أمر النبي ﷺ عن دنياهم بما فيها من منافع وأعراض فلم تشأ له نفسه الكبيرة أن يترك النبي جنازة، ويذهب حيث اجتمع الفريقان لإثبات حقه الشرعي في الخلافة الإسلامية، ولما دعي إلى بيعتهم تنكر لتلك المفاجأة وأدلى حجته البالغة فالتف حوله جمع ليس بالقليل من أهل البصائر والإيمان الثابت ومضي زمن وهو يجادل القوم ويذكرهم مواقف النبي ﷺ ويعيد إلى ذاكرتهم ما غاب عنها من النصوص التي تؤيد دعواه فأحس الكثير منهم بالمسؤولية وتجسمت لهم الأخطار، إن هم مضوا مع التيار الإسلامي الذي غير وبدل.

وفي تلك الفترة القصيرة كانت ردة جماعة من مسلمي العرب في الجزيرة، وكانت نبوءة مسيلمة الكذاب واستغلاله الموقف الراهن بعد وفاة النبي ﷺ، وتفشي أمر النزاع على الخلافة إلى خارج العاصمة الإسلامية، فبدأ العصيان والتمرد على مبادئ الإسلام، واتسعت حلقاتهما بين العرب، فخشي علي عليه السلام إن هو استمر على نزاعه مع القوم أن تبدد جهود محمد ﷺ في أكثر من عشرين عاماً، ورجع إلى ماضيه اللامع الحافل بالخدمات الجليلة في سبيل توطيد دعائم الدين، ونشر تعاليم الإسلام لأن مصلحة الإسلام بنظره قبل كل شيء، وإذا كان يطالب بحقه في الخلافة فذاك لكي تعمل على بعث الدين قوياً في نفوسهم ونشر تعاليم الإسلام، والخلافة لا تساوي بحسابه شيئاً إذا لم تكن طريقاً لهذه الغاية. وهو القائل لابن عمه عبد الله بن العباس وهو يخصف له نعله، والله إن إمرتكم لأهون عندي من هذه النعل، إلا أن أُحق حقاً وأُبطِلَ باطلاً . . .

أما وقد توالت الأحداث ووقع ما لم يكن بالحسبان وانتشرت دعوة المرتدين ونبوءة مسيلمة وأساليبه المغرية، والدين جديد لم يأخذ سبيله في

النفوس، آثر عند ذلك أن ينخرط في صف المسلمين، ويعمل وإياهم على صعيد واحد، بالرغم مما سلف منهم مع زوجته الطاهرة فاطمة بنت النبي ﷺ كما أجمع على ذلك التاريخ. ولما وصل إلى حقه بعد نهاية الخليفة الثالث عثمان رافقت الحوادث سني خلافته فكانت واقعة البصرة على يد طلحة والزبير، والسيدة عائشة زوجة النبي ﷺ وتلتها حادثة صفين بقيادة معاوية بن أبي سفيان وكان من نتائجها حادثة النهروان بعد الفشل الذي لحق بجيشه من آثار دعوة معاوية وابن العاص إلى السلم ورفع المصاحف، بعد أن ظهرت الغلبة لأصحاب علي عليه السلام، وكاد الفتح أن يتم لهم.

فكانت كل أيامه محناً وعذاباً مراً، في سبيل الله إلى أن انتقل إلى ربه على يد عبد الرحمن الخارجي لعنه الله، ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان بعد أن مضى على وفاة النبي ﷺ ثلاثون عاماً وله من العمر خمس وستون سنة، وقيل أقل من ذلك.

# الحسن بن علي
# الإمام الثاني من أئمة الشيعة

ولد الحسن بن علي في السنة الثانية من هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وروى الصدوق في الأمالي عن علي بن الحسين عليه السلام، أنه لما ولد الحسن قالت فاطمة لعلي سمه، فقال ما كنت لأسبق باسمه الرسول ﷺ، فجاء رسول الله، فأخرج إليه في خرقة صفراء، فقال ألم أنهكم أن تلفوه في خرقة صفراء، ثم رمى بها وأخذ خرقة بيضاء فلفه فيها ثم قال لعلي هل سميته؟ فقال: ما كنت لأسبقك باسمه. فسماه رسول الله حسنا، ولقد بقي مع جده نحواً من سبع سنين أو ثمانية، وكان يقول فيه وفي أخيه الحسين: أنهما سيدا شباب أهل الجنة، وأنهما إبناي، وإبنا بنتي، اللهم إنك تعلم أني أُحبهما، فأحبهما، يكرر ذلك مراراً، وروى جابر بن عبد الله الأنصاري أنه دخل على النبي ﷺ وعلى ظهره الحسن والحسين، وهو يقول نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما، وعن البراء بن عازب قال: رأيت النبي حاملاً الحسن ويقول: اللهم إني أُحبه فأحبه، وقال أبو هريرة رأيت النبي ﷺ يمص لعاب الحسن كما يمص الرجل التمر، إلى كثير من أمثال هذه الروايات.

وقد نص على إمامته، وإمامة أخيه الحسين عليه السلام، فقال: هما إمامان قاما أو قعدا. وهو وأخوه الحسين وأمهما فاطمة عليها السلام، المعنيون في آية المباهلة بقوله أبناءنا وأبناءكم، كما ذكر ذلك جمع من المفسرين، ورواه الفريقان، وادعى العلامة في كتابه كشف الحق إجماع المفسرين على ذلك. وفي الكتاب المذكور أن آية التطهير نزلت في علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام. وروي ذلك عن أحمد بن حنبل، وغيره من مشاهير إخواننا أهل السنة، وأكثر المفسرين لكتاب الله، ونقل عن أبي عبد الله محمد بن عمران، عن أبي الحمراء قال: خدمت النبي نحواً من تسعة أشهر أو عشرة، عند كل فجر لا يخرج من بيته حتى يأخذ بعضادتي باب علي عليه السلام فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فتقول فاطمة وعلي والحسنان وعليك السلام يا رسول الله. ثم يقول: الصلاة رحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيراً. وكانت الأعوام السبع أو الثمانية، التي قضاها مع جده الأعظم، حافلة بالتدليل على فضله وحبه، والإعلام عن مستقبله اللامع الحافل بالمآثر والفضائل، وورثه الرسول أشياء كثيرة لا يعادلها شيء في الدنيا، وغرس في نفسه الزكية تعاليمه المقدسة، وآي الكتاب الكريم، لتجني منها أمته أطيب الأثمار وأشهاها، وكان هو المربي والموجه له ولأخيه الحسين، وبعد وفاته رجعا إلى أحضان علي عليه السلام، فكان يزقهما من علمه الواسع الذي أخذه عن الرسول، ويرعاهما كما ينبغي لأب مثله أن يرعى وديعة رسول الله في أمته. فكان مثالاً للقداسة في نفوس المسلمين، ولم يغب عنهم ما كان يصنع معه الرسول ويحيطه به من العطف والحنان، ولم ينس أحد منهم قوله فيه وفي أخيه الحسين: من أحبني فليحب حسناً، حسن مني وأنا من حسن، هذان إمامان قاما أو قعدا. وقد شاهده المسلمون بالأمس القريب يمص من لعابهما، ويقول نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما. لذلك كان من

الطبيعي أن يحتل المقام الأسمى من نفوس المسلمين، بعد أن شاهدوا صنع النبي معه، وسمعوا قوله فيه، بالإضافة إلى تلك المجموعة الهائلة من الفضائل التي كانت تحتشد في نفسه الكريمة. ولم تكن خلافته القصيرة، بعد أن انتقل والده إمام الهدى إلى جوار ربه ضريبة على المسلمين استجابوا لها تحت تأثير القوة، والإغراء بالأموال، وإنما كانت بنظرهم رحمة تتصل حلقاتها من علي عليه السلام إلى نبيهم الذي اختار لهم وأحسن الاختيار، يوم قال: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا. ولكن النفوس الشرهة والأرواح الشريرة، التي اشتراها معاوية بالأموال، والنفوس الضعيفة التي سلبها الأمن والقرار، استجابت لأمانيه ففقد الحسن عليه السلام قوته التي كان قد أعدها لحرب معاوية بعد وفاة أبيه بأشهر قليلة. وللرغبة والرهبة، أثرهما الفعال في ذلك، ولم يبق مع الحسن عليه السلام إلا حفنة قليلة من ذوي البصائر والنيات الصادقة، لا تستطيع القيام بهذا العبء الثقيل.

ولم يغب عنه تخاذل أهل الكوفة عن أبيه من قبل، حتى تمنى فراقهم بالموت أو القتل، فاختار أصلح الطريقين لنفسه ولأمة جده، فسلم أمر الخلافة إلى معاوية على كره منه، بعد شروط وعهود أهمها الإحسان إلى شيعتهم ومساواتهم لسائر أفراد الأمة، ورجوع الأمر من بعده إلى الحسن عليه السلام، ولكن معاوية الماكر، لم يف للحسن بشيء مما عاهد الله عليه، وأعلن سوء نواياه بعد أيام قليلة من توقيعه وثيقة الاتفاق يوم دخل الكوفة وخطب الناس، فقال: إني ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا، ولكن لأتأمر عليكم. ثم تناول شروط الهدنة بينه وبين الحسن عليه السلام، فقال ألا وإن كل شرط أعطيته للحسن بن علي تحت قدمي هاتين لا أفي به بشيء منه.

ليس بغريب أن يصدر من معاوية ذلك، وإنما الغريب أن يقول غيره وبفي بما عاهد الله عليه، فالنزاع بين أمية وهاشم، من قبل لم يقع إلا لأن

أمية أراد أن يحتكر السيادة لنفسه، وقد رأى الناس من هاشم الرجل الذي استطاع بحسن نواياه أن يمتلك القلوب والألباب. ولم تكن ثورة أبي سفيان على النبي من قبل، إلا لأن الإسلام قد حطم الجبابرة وأعز المؤمنين، وفضل جبيراً الحبشي الصالح على أبي سفيان القرشي الجبار، ولم يكن معاوية بأطهر نفساً من أبيه وهو القائل يوم انتهت الخلافة الإسلامية إلى سليل أمية عثمان، وقد دخل أبو سفيان مسجد النبي وهو يحسب أن ليس في المسجد إلا الخليفة وحاشيته، تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار، ولا حساب ولا عقاب إذن ليس بالغريب أن يقول معاوية في حشد من أهل الكوفة ضم أعيانهم ورؤساءهم إني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وكل شرط أعطيته للحسن لا أفي له فيه، وبالفعل قال ذلك وشرع في تنفيذ مقالته، فتتبع الشيعة بأشد أنواع الأذى والعذاب، على يد الجبابرة من ولاته، بالقتل تارة والتشريد والحبس أُخرى، ونظراً لتلك الأزمة العظيمة التي اجتاحت الشيعة، قال الناس: أول ذل دخل الكوفةيوم سلم الحسن الأمر إلى معاوية، وقال له جمع من شيعته الخائفين المشردين: السلام عليك يا مذل المؤمنين، وغير ذلك مما كان يضطرهم سوء صنيع معاوية وولاته إلى مفاجأة الحسن به، وهو مع كل ذلك صابر على ما نزل به منتظر وعد ربه الذي وعد به عباده الصابرين.

يذهب إلى بيت الله ماشياً في كل عام والنجائب تقاد بين يديه ويتفقد الأيتام والمساكين، فيحمل إليهم الطعام وينفق عليهم من أمواله في السر والعلانية، وينشر أحكام الله بين عباده.

وأخيراً فما أحب معاوية أن يذهب من دنياه بدون أن يكون له خلف يتولى أمر المسلمين ليشاركه أوزاره، فجعل ولاية العهد لولده المعروف عند الناس بالاستهتار بمقدسات الإسلام، والسكر والفحشاء، ولما علم أن

وجود الحسن عليه السلام سيقف في طريق إنجاز هذه الفكرة بدأ يعمل جهده للتخلص من الحسن عليه السلام وأخيراً تم له ما أراد، بواسطة جعدة بنت الأشعث زوجة الحسن بعد أن أغواها بالأموال، ووعدها بالزواج من ولده الذي سيلي أمر الأمة في القريب العاجل، وبعد أن نفذت له إرادته، وفى لها بالأموال الطائلة وتنكر لأمر الزواج فلم يف لها به وحين طالبته بذلك تنكر لهذا الطلب، وجال في خاطره أن من يقدم على قتل ابن رسول الله لخليق به أن يقدم على قتل ابن معاوية، إذا رأى من مصلحته ذلك.

وفي المجلد الأول من شرح النهج عن عمران بن إسحاق قال: كنت مع الحسن والحسين عليهما السلام في الدار، فدخل الحسن المخرج وعبد أن خرج قال: لقد سقيت السم مراراً ما سقيت مثل هذه المرة، لقد لفظت كبدي فجعلت أقلبها بعود معي، فقال الحسين ومن سقاك السم؟ قال وما تريد منه؟ أتريد أن تقتله ان يكن هو هو! فالله أشد نقمة منك، وإن لم يكن هو فما أحب أن يؤخذ بي بريء.

انتقل إلى جوار ربه الكريم في شهر صفر سنة إحدى وخمسين للهجرة، وله من العمر سبع وأربعون عاماً، ودفن إلى جانب أمه الصديقة الزهراء عليها السلام في البقيع، بعد أن عارضت السيدة عائشة في دفنه مع جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وخرجت على بغل يقودها مروان ومعها جماعة من الأمويين وأنصارهم وهي تقول: لا يدفن الحسن مع جده أو تجز هذه تعني بذلك ناصيتها وكادت الفتنة أن تقع لولا أن الحسين عليه السلام تراجع عن دفنه إلى جوار جده ودفنه في البقيع حيث قبره الآن.

# الحسين بن علي
# الإمام الثالث من أئمة الشيعة

الحسين بن علي، شهيد الإباء والتضحية، وبطل التاريخ، الثائر على الظالم والباطل، كأنه بركان انفجر يقذفهم بالحمم، ويندفع عليهم كالسيل، وإن كان في ذلك هلاكه، ما دام أراح ضميره، وأرضى ربه، ومات دون مبدئه وغايته. ولد الحسين في شعبان في السنة الرابعة من الهجرة، وسماه رسول الله حسيناً كما سمى أخاه حسناً من قبل، تولى النبي حسيناً من حين ولادته إلى يوم وفاته، فكانت روحه الطاهرة كالعدسة اللاقطة، ترسم ما تقع عليه من وحي النبوة، الذي أهدى الإنسانية بنوره، وزودها من ضيائه. ما عرف أحداً قبل جده الأعظم وما أحس بعطف إنسان قبل عطفه، ولا غذاه أحد قبل لسانه الكريم، فارتسمت روح النبوة في طبيعته وملأت نفسه الكبيرة، فكان إنساناً حين دبت به الحياة، لم تسيطر عليه الطبيعة بل سيطر عليها فانقادت إليه كما يريد. ولا غرابة في ذلك بعد أن تعهدته النبوة، وغمرته بروحانيتها وحبها، وقال فيه جده: حسين مني وأنا من حسين. ولقد روى الرواة عن طريق البراء بن عازب أنه قال: رأيت النبي يحمل الحسين على عاتقه وهو يقول اللهم إني أحبه فأحبه. وروي عن أسامة بن زيد أنه

قال: طرقت النبي ﷺ ذات ليلة في حاجة لي، فخرج النبي وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو فلما فرغت من حاجتي، قلت ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشف فإذا الحسن والحسين على وركيه، فقال: هذان ابناي وإبنا ابنتي، اللهم إني أُحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما، وكان يرشف ثناياه تارة، ويمتص من لعابه أُخرى وانتقل بعد وفاة جده إلى أحضان أبيه علي عليه السلام، فنشأ الحسين كما تشاء له تلك التربية العالية، مخلصاً لرسالة جده متنكراً للباطل شديداً على الظالم: لا تغريه الدنيا بنعيمها ومغرياتها، ينشطه الجور ويوقظه الظلم ويثيره أنين الضعفاء وعويل المنكوبين، يرسل صوته قوياً ينفذ إلى الأعماق فتلتهب له ضمائر المظلومين، **ألا وإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما.**

فشق الطريق لكل من ينشد الإصلاح، ويحب المعروف ويحارب المنكر ويعمل لتقويض دولة الظالم وسلطان أهل البغي وكان له النصر في النهاية.

ولرب نصر عاد شر هزيمة ترکت بيوت الظالمين طلولا

نص على إمامته وإمامة أخيه الحسن من قبله جده الرسول ﷺ بحديث مشهور بين الرواة. الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا. ونص على إمامته وإمامة أخيه الحسن بن علي عليه السلام في آخر أيام حياته، كما روي ذلك في الوافي، عن حماد بن عيسى عن اليماني وابن أُذينة، عن أبان عن سليم بن قيس، قال: شهدت وصية أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن عليه السلام وأشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده، ورؤساء شيعته وأهل بيته. ثم دفع إليه الكتاب والسلاح، وقال لابنه الحسن عليه السلام: يا بُني أمرني رسول الله أن أوصي إليك، وأدفع كتبي وسلاحي كما أوصى إلي رسول الله ودفع إلي كتبه وسلاحه. وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى الحسين. ثم أقبل على ولده الحسين وقال له: وأمرك رسول الله

أن تدفعها إلى إبنك هذا. ثم أخذ بيده علي بن الحسين عليه السلام وقال له: وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي وأقرئه من رسول الله ومني السلام. وفي رواية الوافي عن المفضل بن عمر في حديث طويل، أن الحسن عليه السلام استدعى محمد بن الحنفية وقال له: يا محمد بن علي إن الحسين بعد وفاتي إمام من بعدي، إلى أن قال إن الله قد اصطفى محمداً، فاختار محمد علياً، واختارني علي للإمامة، واخترت أنا الحسين. وغير هاتين كثير، وكلها صريحة في إمامته وإمامة أخيه الحسن عليه السلام. وقد ذكرنا فيما سبق قسماً من الروايات الصريحة في إمامة الإثني عشر، وأنه أبو الأئمة التسعة. ولقد بقي بعد أخيه الحسن عشر سنين قضاها في خلافة معاوية ابن أبي سفيان، وحين جعل معاوية أمر الخلافة الإسلامية لولده يزيد من بعده، كان عليه السلام لا يدع فرصة إلا ويعلن فيها للملأ الإسلامي عن رأيه في تلك البيعة وعن مصير المسلمين إن استقام الأمر ليزيد بعد أبيه. ولما مات معاوية اضطربت أعصاب يزيد من الحسين عليه السلام، لعلمه بما له في نفوس المسلمين من العظمة والقداسة، وأنهم لا يعدلون به أحداً إن هو تعرض لأمر الخلافة.

فكان كل همه أن يستلب منه البيعة، ليستغلها في إخماد كل ما يمكن أن يحدث ضد سلطتهم الجائرة، التي استجاب لها الكثير من المسلمين بتأثير السيف والدينار، وفي نفس الوقت يخدع بها الملايين من المسلمين. لذلك فقد أرسل إلى أمير المدينة يأمره بأخذ البيعة من الحسين خاصة ومن الناس عامة، وكان من الطبيعي أن لا يتم له ذلك، وأن لا ينزل الحسين عند طلبه.

وبعد جدال دار بينه وبين أمير المدينة وحاشيته، أعلن لهم الحسين عليه السلام عن رأيه في خلافة يزيد بقوله: إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ويزيد رجل فاسق معلن بالفجور ومثلي لا يبايع مثله. وخرج من المدينة قاصداً

قال: طرقت النبي ﷺ ذات ليلة في حاجة لي، فخرج النبي وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو فلما فرغت من حاجتي، قلت ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشف فإذا الحسن والحسين على وركيه، فقال: هذان ابناي وإبنا ابنتي، اللهم إني أُحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما، وكان يرشف ثناياه تارة، ويمتص من لعابه أُخرى وانتقل بعد وفاة جده إلى أحضان أبيه علي عليه السلام، فنشأ الحسين كما تشاء له تلك التربية العالية، مخلصاً لرسالة جده متنكراً للباطل شديداً على الظالم: لا تغريه الدنيا بنعيمها ومغرياتها، ينشطه الجور ويوقظه الظلم ويثيره أنين الضعفاء وعويل المنكوبين، يرسل صوته قوياً ينفذ إلى الأعماق فتلتهب له ضمائر المظلومين، **ألا وإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما.**

فشق الطريق لكل من ينشد الإصلاح، ويحب المعروف ويحارب المنكر ويعمل لتقويض دولة الظالم وسلطان أهل البغي وكان له النصر في النهاية.

ولرب نصر عاد شر هزيمة تركت بيوت الظالمين طلولا

نص على إمامته وإمامة أخيه الحسن من قبله جده الرسول ﷺ بحديث مشهور بين الرواة. الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا. ونص على إمامته وإمامة أخيه الحسن بن علي عليه السلام في آخر أيام حياته، كما روي ذلك في الوافي، عن حماد بن عيسى عن اليماني وابن أُذينة، عن أبان عن سليم بن قيس، قال: شهدت وصية أمير المؤمنين عليه السلام حين أوصى إلى ابنه الحسن عليه السلام وأشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده، ورؤساء شيعته وأهل بيته. ثم دفع إليه الكتاب والسلاح، وقال لابنه الحسن عليه السلام: يا بُني أمرني رسول الله أن أوصي إليك، وأدفع كتبي وسلاحي كما أوصى إلي رسول الله ودفع إلي كتبه وسلاحه. وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى الحسين. ثم أقبل على ولده الحسين وقال له: وأمرك رسول الله

أن تدفعها إلى إبنك هذا. ثم أخذ بيده علي بن الحسين عليه السلام وقال له: وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي وأقرئه من رسول الله ومني السلام. وفي رواية الوافي عن المفضل بن عمر في حديث طويل، أن الحسن عليه السلام استدعى محمد بن الحنفية وقال له: يا محمد بن علي إن الحسين بعد وفاتي إمام من بعدي، إلى أن قال إن الله قد اصطفى محمداً، فاختار محمد علياً، واختارني علي للإمامة، واخترت أنا الحسين. وغير هاتين كثير، وكلها صريحة في إمامته وإمامة أخيه الحسن عليه السلام. وقد ذكرنا فيما سبق قسماً من الروايات الصريحة في إمامة الإثني عشر، وأنه أبو الأئمة التسعة. ولقد بقي بعد أخيه الحسن عشر سنين قضاها في خلافة معاوية ابن أبي سفيان، وحين جعل معاوية أمر الخلافة الإسلامية لولده يزيد من بعده، كان عليه السلام لا يدع فرصة إلا ويعلن فيها للملأ الإسلامي عن رأيه في تلك البيعة وعن مصير المسلمين إن استقام الأمر ليزيد بعد أبيه. ولما مات معاوية اضطربت أعصاب يزيد من الحسين عليه السلام، لعلمه بما له في نفوس المسلمين من العظمة والقداسة، وأنهم لا يعدلون به أحداً إن هو تعرض لأمر الخلافة.

فكان كل همه أن يستلب منه البيعة، ليستغلها في إخماد كل ما يمكن أن يحدث ضد سلطتهم الجائرة، التي استجاب لها الكثير من المسلمين بتأثير السيف والدينار، وفي نفس الوقت يخدع بها الملايين من المسلمين. لذلك فقد أرسل إلى أمير المدينة يأمره بأخذ البيعة من الحسين خاصة ومن الناس عامة، وكان من الطبيعي أن لا يتم له ذلك، وأن لا ينزل الحسين عند طلبه.

وبعد جدال دار بينه وبين أمير المدينة وحاشيته، أعلن لهم الحسين عليه السلام عن رأيه في خلافة يزيد بقوله: إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ويزيد رجل فاسق معلن بالفجور ومثلي لا يبايع مثله. وخرج من المدينة قاصداً

مكة حيث يجتمع المسلمون فيها لأداء فريضة الحج. وفي تلك السنة كان الحج أكثر منه في غيرها، وكثرت الوفود لتعرف ما يؤول إليه أمر الأمة، في عهدها الجديد المظلم: وانعكفوا على الحسين يجددون العهد برسول الله. وفيهم الكثير ممن وعى حديث الرسول فيه وفي أخيه الحسن ولم يغب عنهم قوله: حسين مني وأنا من حسين. وكانت الكوفة أشد الأقطار الإسلامية نقمة على الأوضاع، وتحفزاً للثورة. وقد اذاقهم معاوية من قبل الواناً من العذاب، وهو المعروف عند الكثير من أتباعه بالحلم، فماذا يكون حالهم إذا كان أميرهم هذا الأرعن الجبار الأحمق؟ فاستغاثوا بالحسين، وكتب إليه أكثرهم، حتى اجتمعت عنده آلاف الكتب، وفي جميعها يقولون ليس لنا إمام غيرك، ولا سلطان علينا لسواك، فرأى نفسه بإزاء أمر لا مفر منه، ولا محيد عنه وملايين المسلمين يستغيثون به، ويرونه المنقذ الوحيد من هذا السلطان الجائر. فظن أنهم رجعوا عن ماضيهم الأسود مع أبيه وأخيه، إلى الطريق الواضح وتابوا لله سبحانه من سوء صنيعهم، ومع ذلك فلم يقذف بنفسه في ذلك التيار الهائج، ولم يكن لتلك الكتب ولا لأصواتهم المتعالية بالاستغاثة، ما يكفي بحسابه للركون إليهم والاطمئنان بصدقهم، فأرسل إليهم إبن عمه مسلماً، وهو من خيرة قومه، العارفين بتدبير الأمور وقيادة الجماهير، ليستعلم له الحال ويستطلع له القلوب، وزوده برسالة إلى أهلها يعلمهم فيها بقدومه عليهم، إن كتب له سفيره بصدق نياتهم، ومضاء عزيمتهم، ورجوعهم عما سبق منهم مع أبيه وأخيه من قبل. فاحتفوا بمسلم ورحبوا بقدومه، وبايعه الرؤساء والأتباع على الموت، وبدأوا يجمعون الأموال والسلاح استعداد للوثبة على سلطان يزيد الجائر، فلم ير مسلم بداً، وقد رأى منهم الإيمان بهذه الدعوة، والعزم على التضحية في سبيلها مهما كلفهم ذلك، إلا أن يكتب إلى الحسين يعلمه عن نتائج رحلته، وتماسك أهل الكوفة في أمرهم، وعظيم ولائهم لأهل هذا البيت.

فاستجاب عند ذلك حسين عليه السلام دعوتهم، وخطب في مكة المكرمة في حشد من المسلمين فقال: إني لم أخرج بطراً، ولا أشراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمة جدي، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين، وتوجه على اسم الله وفي سبيل الله، وهو يتلو قول ربه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾. ومنذ وصل إلى مقره الأخير من أرض العراق، فوجئ بغدر أهل الكوفة وخيانتهم مسلماً، وقتله مع نفر من وجوه شيعته، فحاول أن يرجع إلى مدينة الرسول، أو إلى جهة أخرى من بلاد الله الواسعة، فلم يتم له ذلك، وأصبح بين أمرين إما أن يقاتل بتلك الحفنة القليلة من صحبه وولده وبني عمه وإما أن يستسلم لهم ويبايع إبن زياد ليزيد. أما البيعة فقد أعلن عن رأيه فيها يوم استدعاه الوليد حاكم المدينة ليلاً بقوله: إن يزيد معلن بالفجور ومثلي لا يبايع مثله، وكأنه يشير بذلك إلى شروط الخلافة الإسلامية وأن الخليفة حامي القرآن، ونائب الرسول والمعني بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فلا بد وأن يكون رمز الدين لتجب إطاعته على الأمة، أما إذا كان فحاشاً لماظاً، كانت مبايعته ضلالاً وكفراً، فكان من المحتم أن يرفضها اليوم، كما رفضها بالأمس، فاختار القتال وهو يردد لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما.

وإذا لم يكن من الموت بد    فمن العار أن تموت جبانا

وهو يعلم أن يزيداً لا يتركه حياً، ما دام يفكر أن في بقائه خطراً على عرشه، وقد أشار في خطبته التي ألقاها في البيت قبل خروجه من مكة إلى ما سيكون من حاله فقال: كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفا وأجربة سغبا.

مضى هو وصحبه وهو يقول والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد، فماتوا ميتة الكرامة، واستقبلوا الله بوجوههم المشرقة، وكان النصر في النهاية لهم. فكانت شهادة الحسين عليه السلام من أشهر الحوادث في تاريخ الإسلام وأفجعها وأشرفها، وأعظمها أثراً في التاريخ، سنة إحدى وستين من الهجرة، في العاشر من المحرم، ولا يعنينا في هذا الموضوع أن نتوسع في تاريخ أئمة الشيعة أكثر من ذلك.

# علي بن الحسين
# الإمام الرابع من أئمة الشيعة

علي بن الحسين الملقب بزين العابدين والسجاد، والمشهور بين الرواة أن أُمه من أشراف السبي الذي استولى عليه المسلمون في حربهم مع الفرس زمن الفتح الإسلامي. تزوجها الحسين عليه السلام فأولدت له علياً سنة ثمان وثلاثين من الهجرة في أواخر أيام جده علي عليه السلام في الكوفة. فنشأ علي في بيت أبيه، بيت النبوة ومهبط الوحي بيت تحمل أقسى ما يتصور من الألم والمحن في سبيل الله وفي سبيل القرآن فقاسى ما قاساه آباؤه من قبله، واستقبل في صباه محنة جده الأعظم، وهو صريع في محرابه، ومحنة عمه الحسن وهو يلفظ كبده بين يديه من السم الذي دسه إليه خليفة المسلمين معاوية بن هند، وجاءت بعد ذلك أيام أبيه، والإسلام يستغيث بمن ينقذه من الأخطار المخيفة التي أحدقت به من جميع نواحيه، فكانت ثورة الحسين عليه السلام مفروضة عليه بحكم الظرف الذي وجد فيه، وكان لها أحسن الأثر وأبلغه في تاريخ الإسلام واتساع التشيع، كما نتج منها انهيار العرش الذي بناه معاوية لولده من بعده.

أسفرت تلك الثورة المباركة عن قتله وقتل اسرته وبنيه وصحبه الكرام.

ولولا مشيئة الله سبحانه لكان السجاد في عداد القتلى. كل ذلك شاهده الإمام زين العابدين، وشاهد ما هو أمر على النفس من جميع ذلك، شاهد رأس أبيه على الرماح، من كربلاء إلى الكوفة، ومنها إلى الشام وجسده يداس بحوافر الخيل، وعماته وأخواته ونساء المسلمين تساق بالقوة والعنف إلى عبيد الله بن مرجانة، وإلى يزيد في الشام.

وكان القيد في ساقيه، والحبل من عنقه إلى عنق عماته وأخواته، ومع كل تلك المصائب فقد رأى أن ذلك في طاعة الله قليل. فلم يكن الموت شيئاً عند علي وآله، ولا القتل مهانة في حسابهم وإنما الحياة مع الظالمين هي العار. أرادوا الله فاجتباهم إليه وأنكروا الباطل فهان كل شيء في سبيل الحق والحرية والعدالة التي كانوا ينشدونها، خفق الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى العراق فسمع من يقول، القوم يسيرون والمنايا تسير في أثرهم فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال ولده علي مما استرجعت؟ فقص عليه رؤياه. فقال: أولسنا على الحق يا أبتاه؟ قال الحسين عليه السلام نعم! والذي إليه مرجع العباد قال إذن لا نبالي بالموت ما دمنا على الحق.

ولقد نص على إمامته جده علي عليه السلام كما نص عليه أبوه الحسين. وفي بعض الروايات أن الحسين عليه السلام أودع وصيته أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيها عهده إلى الإمام زين العابدين.

وعاش بعد أبيه ما يزيد على الثلاثين عاماً، والكآبة تبدو عليه، والحزن باد في وجهه، وكلما اجتمع إليه وفد من وفود الأقطار الإسلامية كان يردد عليهم تلك المأساة ويقص عليهم من أخبارها ما يلهب النفس، ويحز فيها أقسى ما يتصور من الألم، فكان لذلك أثره البالغ في العواصم الإسلامية، الكوفة تعلن الثورة وتظهر الندم، وأهل المدينة يحسون بتلك الصدمة التي أصابت الإسلام في الصميم، فأنكروا أمر يزيد وطغيانه، ونتج عن هذا

الإنكار أن أتم يزيد رسالة أبيه الإصلاحية، فسرح جيشه لحرب صحابة النبي وأبنائهم وأمر قائده أن يأخذ البيعة من أهلها على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية، وكان له ما أراد، بعد قتال ذهب ضحيته آلاف الصلحاء والأبرياء وأباح قائد مسلم مدينة الرسول لجيشه الظافر، واستعرض الصلحاء والعلماء فبايعوا على أنهم عبيد أذلاء، إلا الإمام زين العابدين، فلقد انجاه الله من شره ودفع عنه بأسه وكيده.

قال المسعودي في مروج الذهب: بايع الناس على أنهم عبيد ليزيد، ومن أُتي أمره مسرف[1] على السيف، غير علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقد لاذ بالقبر وهو يدعو الله، فأتي به إلى مسرف وهو مغتاظ عليه يتبرأ منه ومن آبائه فلما رآه وقد أشرف عليه، ارتعد وقام له وأقعده إلى جانبه، وقال له سلني حوائجك! فلم يسأله من أحد ممن قدم إلى السيف إلا شفعه فيه، ثم انصرف عنه فقيل لعلي عليه السلام رأيناك تحرك شفتيك فما الذي قلت؟ قال قلت اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، رب العرش العظيم، رب محمد وآله، أعوذ بك من شره، وأدرأ بك في نحره، أسألك أن تؤتيني خيره، وتكفيني شره. وقيل لمسلم رأيناك تسب هذا الغلام وسلفه فلما أُتي به إليك رفعت منزلته فقال: ما كان ذلك لرأي مني لقد مُلِئَ قلبي منه رعباً.

وفي مروج الذهب أن المختار الثقفي كتب إلى علي بن الحسين السجاد، يريده على أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته. وأنفذ إليه مالاً كثيراً فأبى أن يقبل ذلك منه وسبه على رؤوس الملأ في مسجد النبي[2] وهكذا بقي الإمام زين العابدين في الأعوام الثلاثين التي قضاها بعد

(١) هو مسلم بن عقبة.
(٢) وكان ذلك منه خوفاً من بني أُمية، وبني الزبير الطامعين في الحكم.

أبيه عليه السلام معرضاً عن الدنيا وبهجتها لا تغريه أُبهة السلطة ولا بلهنية الحياة، وانقطع إلى عبادة ربه ونشر تعاليم الإسلام. فإذا جاء الليل ونامت العيون، قام هو وغلمانه يحمل الطعام والأموال وصرر الدراهم والدنانير إلى بيوت الأيتام والمساكين ثم يرجع إلى مناجاة ربه، يدعو لنفسه تارة وللمسلمين أخرى وللمرابطين في الثغور ثالثة بأبلغ منطق وأروع بيان وأعذب الكلمات. يشتري الرقاب ويعتقها بالغاً ثمنها ما بلغ ابتغاء مرضاة ربه. وفي تذكرة الخواص عن طبقات ابن سعد أن علي بن الحسين كان كثير الحديث عالياً رفيعاً خائفاً ورعاً عابداً. وفي الكتاب المذكور كان إذا توضأ للصلاة اصفر لونه، وإذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فيقال له مالك؟ فيقول ما تدرون لمن أُريد أن أناجي! ولقد وقع حريق في داره وهو ساجد فقال الناس: النار! النار! يا ابن رسول الله فما رفع رأسه حتى أطفئت. فقيل له ما الذي ألهاك عنها؟ قال النار الكبرى.

وكان إذا أتاه سائل يقول: مرحباً بمن يحمل زادي إلى الآخرة وفي التذكرة عن أحمد بن حنبل أن علي بن الحسين كان يعول مائة بيت في المدينة، وكان يبعث إليهم ما يكفيهم ليلاً، فقال أهل المدينة بعد موته، ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين. وكان يقول: عجبت للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة، وهو غداً جيفة، وعجبت لمن شك في الله وهو يرى عجائب مخلوقاته وعجبت لمن شك في النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت ممن عمل لدار الفناء وترك دار البقاء.

وفي طبقات ابن سعد كان علي بن الحسين يقول أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فوالله ما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً. وفي رواية حتى بغضتمونا إلى الناس. وروى الرواة أن علي بن الحسين خرج من المسجد يوماً فاعترضه رجل وسبه، فلحقه جماعة من المسلمين وهموا به

شراً، فقال عليه السلام دعوه! ثم قال للرجل: ما ستر الله عنك من أمرنا أكثر مما ذكرته، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحى الرجل منه، ثم خلع عليه خميصة كانت عليه وأعطاه ألف درهم فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول: أشهد أنك ابن رسول الله، وفي التذكرة عن جماعة من الرواة أن ضيوفاً طرقوا باب الإمام زين العابدين، فاستعجل خادماً له فأخرج شواء من التنور وأقبل عجِلاً وبيده (السفود) وبين يدي علي عليه السلام غلام صغير، فسقط السفود على الصغير فنش ومات فبهت الخادم واضطرب فنظر إليه علي عليه السلام وقال: إنك لم تتعمد ذلك أنت حر لوجه الله.

وكان مما أوصى به ولده الإمام محمد الباقر: يا بني لا تصحبن خمسة، ولا ترافقهم في طريق أبداً: لا تصحبن فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة، فما دونها، ولا بخيلاً فإنه يقطع بك عن ماله أحوج ما كنت إليه، ولا كذاباً فإنه بمنزلة السراب يبعد منك القريب، ويقرب منك البعيد. ولا أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. ولا قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في مواضع من كتاب الله.

ولقد أجمع المؤرخون على اختلاف نزعاتهم، على أنه وحيد زمانه في كل نواحيه. وانتقل إلى ربه سنة خمس وتسعين من الهجرة وعاش سبعاً وخمسين عاماً. وقيل أكثر من ذلك. ودفن في المدينة مع عمه الحسن وجدته فاطمة عليهما السلام.

# محمد الباقر
# الإمام الخامس من أئمة الشيعة

الإمام أبو جعفر محمد بن علي الملقب بالباقر، ولد عليه السلام في المدينة سنة سبع وخمسين من هجرة النبي صلى الله عليه وآله، وعاش مع جده الحسين عليه السلام ثلاث سنين، وختمت الأعوام الثلاثة التي قضاها مع جده الحسين عليه السلام بأعظم محنة مرت على أهل البيت. وفي طفولته شاهد أعظم الرزايا والمصائب التي توالت على أبيه من حكام ذلك العصر، الذي انغمس فيه الحكام بالشهوات، وابتعدوا عن مفاهيم الرسالة السماوية، رسالة القرآن الكريم، واستهتروا إلى أبعد حدود الاستهتار بمقدسات الإسلام، أُولئك الذين كانت تعج قصورهم بالفسق والفجور، وتقوم دعائمها على الظلم والجور وجميع أنواع الرذيلة والمنكرات. وقد غمر هذا التيار الذي استولى على قصور الخلفاء والحكام، الكثير من المسلمين. والسلطة لها أثرها في توجيه الشعوب، لاسيما وأن للخلافة الإسلامية طابعها الديني. والناس على دين ملوكهم في جميع العصور. فمارس المسلمون لذائذ العيش ومغريات الدنيا، وجميع المنكرات، عاش الإمام الباقر عليه السلام في تلك الظروف مع هشام بن عبد الملك وغيره من الجبابرة، واستدعاه هشام إلى الشام وهو يلتهب غيظاً عليه، فأنجاه الله من شره في حين أن البقية الصالحة من

المسلمين كانت تئن وتضج من تلك الأوضاع الفاسدة، وتستغيث به للتخلص من سلطان أمية الذي أوشك أن يأتي على تعاليم الإسلام، وجهود صحابة النبي وسيرة خلفائه من بعده. وأحس الكثير منهم بالمسؤولية الملقاة على عاتق كل مسلم للتخلص من هذا السلطان الجائر. ولكن الإمام الباقر وقد رأى من قبل خذلان الناس لآبائه وتركهم في ساعات المحنة، وشاهد في أيام أبيه كيف بالغ الحكام في تعذيب الشيعة والتنكيل بالأبرياء، وفي شرح النهج المجلد الثالث، نقل حديثاً طويلاً عن الإمام الباقر صور فيه الإمام حالة الشيعة، وسوء صنيع الولاة معهم، وكثرة الدس في أخبار أهل البيت، مما يشين في سمعتهم، ويفسد علاقتهم بالناس. وقال عليه السلام في الحديث: ثم جاء دور الحجاج فقتلهم شر قتلة، وأخذهم بكل ظنة وتهمة، حتى أن الرجل كان يتمنى أن يتهم بالكفر والزندقة ولا يتهم بالتشيع لعلي عليه السلام. لذلك ولما شاهده بنفسه آثر أن يعيش منعزلاً عن السياسة، منصرفاً إلى التعليم والإرشاد ونشر الأحاديث فكانت مدرسته تضم آلاف الرواة ومجالسه لا تخلو من المناظرة في التوحيد والأئمة وغيرهما من الأصول الإسلامية حتى غلب عليه اسم الباقر. وروى الرواة أن النبي سماه بهذا الاسم يوم أخبر جابراً بأنه سيبقى إلى أن يدرك رجلاً من ولد فاطمة سميّ رسول الله يبقر العلم بقراً.

وقال الجوهري في الصحاح والتبقر هو التوسع في العلم، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين، الباقر لتبقره في العلم.

ووصفه ابن سعد في طبقاته كما في التذكرة، أنه كان عالماً عابداً، ثقة، روى عنه أبو حنيفة وغيره من أعلام الأمة. وقال أبو يوسف قلت لأبي حنيفة لقيت محمد بن علي؟ قال نعم! وسألته يوماً فقلت له: أراد الله المعاصي؟ فقال: أفيعصي الله قهراً، قال أبو حنيفة: فما رأيت جواباً أفخم منه. وقال عطاء: لقد رأيت الحكم بن عيينة عنده كأنه عصفور مغلوب وقد كان الحكم

عالماً نبيلاً جليلاً في زمانه كما يصفه الاخباريون.

ويظهر من التاريخ أن سني إمامته بعد أبيه البالغة تسع عشرة سنة تهيأ له فيها ما لم يتهيأ لأبيه من قبل، فلقد كثر الرواة عنه، واتسع له المجال لنشر الحديث في مختلف الجهات، وأصبح هو وولده الصادق عليه السلام من أعظم المصادر الإسلامية في التشريع وغيره من فنون الإسلام. وروى عنه جابر الجعفي، وهو من ثقات الرواة وأعاظم نقلة الحديث، أكثر من خمسين ألف حديث. وروى عنه محمد بن مسلم وكان من أعيان أصحابه وأصحاب ولده الصادق ثلاثين ألف حديث، وكثير غير هذين كزرارة وحمران ابني أعين وابن أبي يعفور والصيرفي والأعمش. وقد أدرك هؤلاء الصادق ورووا عنه أيضاً، وكانوا عنده من المقربين. ولعل الذي هيأ هذا الجو للإمام الباقر هو عدم تعرضه لأمر الخلافة واطمأن الحكام منه بذلك وقد أيقنوا بأنه لم يساهم في ثورة أخيه زيد وولده يحيى وعرفوا منه أنه كان يشير على أخيه وغيره من العلويين بالخلود والسكينة.

وقد بدأ المسلمون في عصره يدرسون الدين عن طريق المنطق والمحاكمة العقلية، فكثرت الشبه فيما يرجع إلى أُصول الإسلام، في التوحيد والقضاء والقدر والجبر والتفويض. وأراد الخلفاء أيضاً أن تروج تلك البضاعة لتشغلهم عن التفكير في الخلافة وسوء تصرفات الحكام.

وكان للإمام الباقر السهم الوافر في الدفاع عن العقيدة الإسلامية. وجاء في الوافي وغيره من كتب الحديث، أن نافع بن عبد الله الأزرق كان يقول: لو علمت أن بين قطريها أحداً تبلغني إليه المطايا، يخصمني أن علياً عليه السلام قتل أهل النهروان، وهو غير ظالم لهم لرحلت إليه. فقيل له ولا ولده؟ فقال: أفي ولده عالم؟ فقيل له: هذا أول جهلك. وهل يخلون من عالم؟ قال فمن عالمهم اليوم؟ قيل محمد بن علي، فرحل إليه في جمع من

أصحابه، حتى أتى المدينة، فاستأذن على أبي جعفر عليه السلام، فقيل له هذا عبد الله بن نافع! فقال: وما يصنع بي وهو يبرأ مني ومن آبائي؟ ثم قال الإمام لغلامه: أخرج إليه، وقل له إذا كان الغد فأتني، فلما أصبح دخل عليه عبد الله في أصحابه، وقد جمع الإمام أبناء المهاجرين والأنصار وقال: فمن كانت عنده منقبة لعلي عليه السلام إلا ذكرها. فتحدث جماعة منهم بما اشتهر من فضله ومناقبه، فلم ينكر عبد الله الأزرق شيئاً مما ذكروه ولكنه نسب له الكفر بعد تحكيم الحكمين في صفين، فذكر الإمام عليه السلام ومن معه حديث خيبر، وقول النبي لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ثم استنطق الإمام خصمه فاعترف بصدق الحديث. فقال له أبو جعفر أخبرني عن الله سبحانه، أحب علياً يوم أحبه وهل يعلم أنه يقتل أهل النهروان أو أنه لا يعلم؟ وهنا أخذته الحجة من جميع نواحيه فإن قال لا يعلم فقد نسب الجهل إلى الله وإن قال أنه يعلم، فإذا لم يستحقوا القتل كان علي مجرماً بقتالهم، والله لا يحب المجرمين فكيف أحبه الله. فقام الخارجي من مجلسه مخصوماً، وفي توحيد الصدوق عن عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر عليه السلام فدخل عليه رجل من الخوارج، فقال له يا أبا جعفر عليه السلام أي شيء تعبد؟ قال أعبد الله! قال رأيته؟ قال لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يُعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه الناس، موصوف بالآيات لا يجور في حكم، ذلك الله لا إله إلا هو. فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته. وفي توحيد الصدوق عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر فقلت قوله عز وجل: يا إبليس، ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ فقال عليه السلام اليد في كلام العرب القوة والعظمة. قال سبحانه: والسماء بنيناها بأيد، أي بقوة. وقال: أيدهم بروح منه، أي قواهم. ويقال لفلان عندي أيادي كثيرة أي فواصل وإحسان، وله عندي يد بيضاء أي نعمة.

وسأله عمر بن عبيد عن قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ وما ذلك الغضب؟ فقال أبو جعفر هو العقاب يا عمر! أنه من زعم أن الله عز وجل زال من شيء، إلى شيء فقد وصفه بصفة المخلوقين، إن الله لا يستفزه شيء ولا يغيره شيء، إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة عنه في مقام المناظرة مع أهل الشبه والآراء الفاسدة. وكان يقول ما أنعم الله على عبد نعمة فشكرها إلا استوجب المزيد قبل أن يظهر شكره على لسانه، وقال ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخل أو أكثر، وقال والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابداً، وروى عنه بعض أصحابه فقال: قال لنا محمد بن علي: أيدخل أحدكم يده جيب صاحبه فيأخذ منها ما يريد وهو لا يعلم؟ قلنا: لا يا ابن رسول الله! فقال: اذهبوا فلستم اخواننا كما تزعمون.

وكان لا يمل من مجالسة الأخوان ويقول: بئس الأخ أخ يرعاك غنياً ويقطعك فقيراً. ولقد نص على إمامته أبوه علي بن الحسين عليه السلام بحضور نفر من خلص الشيعة، كما ذكر في الكافي وغيره من كتب الحديث. وانتقل إلى جوار ربه وهو ابن سبع وخمسين سنة في أيام هشام، وقيل في أيام يزيد بن عبد الملك سنة ١١٤ وقيل غير ذلك، ودفن في البقيع مع أبيه وعمه الحسن وجدته الصديقة عليهم السلام.

# جعفر الصادق
# الإمام السادس من أئمة الشيعة

جعفر بن محمد الملقب بالصادق، ولد سنة ثلاث وثمانين للهجرة، وانتقل إلى ربه سنة مائة وثمان وأربعين، فمدة إمامته خمس وثلاثون سنة، أو أقل من ذلك حسب اختلاف الروايات في سنة وفاته وولادته. وعاش مع أبيه الباقر وجده زين العابدين أكثر من ثلاثين سنة، قضى شطراً منها مع جده وأبيه الباقر في بيت لا عهد له إلا بالمصائب والمحن والنوازل، جديد عهد بمأساة الدهر وكارثة الأيام والليالي فاجعة كربلاء، وفي صباه شاهد كارثة عمه زيد وولده يحيى، وسمع انين المظلومين من شيعة آبائه الأطهار وعويل الأيتام، فاستقبل في طفولته النكبات والأصوات المتعالية من الظلم والجور والتنكيل بالصلحاء من عباد الله.

وعاش مع أبيه زمناً ليس بالقصير، يلقنه فيه علوم الدين وشؤون الدنيا، حتى بلغ فوق ما تبلغه طاقة الإنسان. وأجمع المؤرخون على أنه كان أعلم أهل زمانه وأورعهم وأنصحهم لله ولأمة جده رسول الله وملأت آثاره دنيا العرب والإسلام.

قال الشهرستاني: كان أبو عبد الله الصادق ذا علم غزير في الدين

وأدب كامل في الحكمة، وزهد في الدنيا، وورع تام عن الشهوات وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع أحداً في الخلافة، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شطط، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط، ومن أنس بالله استوحش من الناس. إلى أن قال: وبرئ من القول بالرجعة والبدء والتناسخ والغلو والحلول والتشبيه ولا يحتاج الإمام الصادق إلى قول كاتب أو عالم أو مؤرخ، فهو غني عن كل ذلك، وفي سيرته الطيبة وجهاده المتواصل في سبيل نشر رسالة الإسلام خير شاهد على ما ندعيه، وكل أئمة الشيعة هم الصفوة من الناس، والخيرة من البشر، لم تعثر بهم قدم، ولا وجد لهم أخصامهم ما يشين، بالرغم من حرصهم على ذلك وعدائهم السافر لهم ولكن الظروف التي تهيأت للإمام الصادق لم تتهيأ لغيره، فمنذ بزغ فجره، وابتدأ بنشر رسالته، بدأ الضعف يدب في جسم الدولة الأموية، واشتعلت فيها الفتن، فاستغل أخصامهم هذه الظروف، فأعلنوا الثورة على حساب العلويين، تضليلاً للرأي العام الإسلامي الذي كان يتحرق لما نزل بأهل هذا البيت من الكوارث والنوائب.

في هذا الظرف وجد الإمام بين الأمويين وأخصامهم، وكلاهما في أمس الحاجة إلى سكوته ورضاه. فالحزب الأموي الحاكم قد أحس بنتيجة ما سلف منهم مع آبائه، والحزب الآخر قد اتخذ من حادثة الطف وما تلاها من الحوادث على هذا البيت، سلاحاً أمضى من السيف لتكتل المسلمين ضد العهد الأموي الجائر، ففي أواخر أيام تلك الدولة وأوائل أيام الدولة الجديدة استطاع الإمام الصادق أن يملأ الدنيا بآثاره، ويحيي أمة ما كان لها وجود في تاريخ الإسلام، لولا جهاده وجهاد آبائه المتواصل في سبيل رسالة الإسلام.

وأنى اتجهت تسمع من يقول حدثني جعفر بن محمد، وهكذا كان إلى

أن انتهى عهد السفاح العباسي، وجاء عهد المنصور الدوانيقي ورسالته تزداد اتساعاً، واسمه يسير في أرجاء دنيا الإسلام العريضة بأسرع ما يكون من الخطى، فخافه المنصور واستدعاه إليه مرات عديدة، وهو حاقد عليه. ولكن لم يجد السبيل إلى قتله، لأن الملايين من المسلمين يأخذون عنه معالم الدين، وكلهم يشهدون بأنه لم يفكر يوماً من أيامه بأمر الخلافة، فبماذا يعتذر إليهم إن قتله؟ كما كان يصنع بالأقربين من اسرته الثائرين عليه. والإمام لم يخلع طاعة، ولم يفارق جماعة المسلمين، ولا حدث نفسه بأمر الخلافة، لذلك فإن ما رواه بعض الرواة من أنه مات مسموماً لا تؤيده النصوص القطعية وإن كان ممكناً. وجاء في التذكرة أن المنصور حج في سنة سبع وأربعين، وبعد انتهاء الحج قدم مدينة الرسول، فأمر وزيره الفضل بن الربيع أن يأتيه بجعفر بن محمد عليه السلام وكان حاقداً عليه، قال الفضل فتغافلت عن ذلك، طمعاً أن ينسى المنصور وتهدأ نفسه، فأعاد علي القول ثانياً وثالثاً، فلم أر بداً من أن أستدعيه فلما جاءنا الإمام، قلت له لقد أرسل إليك لأمر عظيم، وما أظنك بناج منه، فلم يكن من الإمام إلا أن قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم دخل على المنصور فسلم عليه، فلم يرد السلام، وقابله بما شاء له الحقد والحسد والطغيان والجبروت، وقال له: اتخذك أهل الأمصار إماماً يجبون إليك الزكاة، وتلحد في سلطاني وتبغيه الغوائل، قتلني الله إن لم أقتلك. فقال الإمام عليه السلام: يا أمير المؤمنين، إن سليمان النبي أعطي فشكر، وأن أيوب ابتلي فصبر، وأن يوسف ظلم فغفر، فاقتد بأيهم شئت! فلم يجد الإمام بداً من مقابلته بهذا الأسلوب اللين الهادئ الذي هو من أبلغ ما يمكن أن يكون في مثل هذه الحالات ومع ذلك فهو ينطوي على الموعظة البالغة لقد قصد الإمام بذلك أن يلفت نظره إلى أن الله إذا أنعم على عباده استحق شكرهم، وأنت في أعظم نعم الله، وليس من الشكر التنكيل بالأبرياء على الظنة والتهمة، وإذا كنت تراني بلاء عليك فالله

وأدب كامل في الحكمة، وزهد في الدنيا، وورع تام عن الشهوات وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ما تعرض للإمامة قط، ولا نازع أحداً في الخلافة، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شطط، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط، ومن أنس بالله استوحش من الناس. إلى أن قال: وبرئ من القول بالرجعة والبدء والتناسخ والغلو والحلول والتشبيه ولا يحتاج الإمام الصادق إلى قول كاتب أو عالم أو مؤرخ، فهو غني عن كل ذلك، وفي سيرته الطيبة وجهاده المتواصل في سبيل نشر رسالة الإسلام خير شاهد على ما ندعيه، وكل أئمة الشيعة هم الصفوة من الناس، والخيرة من البشر، لم تعثر بهم قدم، ولا وجد لهم أخصامهم ما يشين، بالرغم من حرصهم على ذلك وعدائهم السافر لهم ولكن الظروف التي تهيأت للإمام الصادق لم تتهيأ لغيره، فمنذ بزغ فجره، وابتدأ بنشر رسالته، بدأ الضعف يدب في جسم الدولة الأموية، واشتعلت فيها الفتن، فاستغل أخصامهم هذه الظروف، فأعلنوا الثورة على حساب العلويين، تضليلاً للرأي العام الإسلامي الذي كان يتحرق لما نزل بأهل هذا البيت من الكوارث والنوائب.

في هذا الظرف وجد الإمام بين الأمويين وأخصامهم، وكلاهما في أمس الحاجة إلى سكوته ورضاه. فالحزب الأموي الحاكم قد أحس بنتيجة ما سلف منهم مع آبائه، والحزب الآخر قد اتخذ من حادثة الطف وما تلاها من الحوادث على هذا البيت، سلاحاً أمضى من السيف لتكتل المسلمين ضد العهد الأموي الجائر، ففي أواخر أيام تلك الدولة وأوائل أيام الدولة الجديدة استطاع الإمام الصادق أن يملأ الدنيا بآثاره، ويحيي أمة ما كان لها وجود في تاريخ الإسلام، لولا جهاده وجهاد آبائه المتواصل في سبيل رسالة الإسلام.

وأنى اتجهت تسمع من يقول حدثني جعفر بن محمد، وهكذا كان إلى

أن انتهى عهد السفاح العباسي، وجاء عهد المنصور الدوانيقي ورسالته تزداد اتساعاً، واسمه يسير في أرجاء دنيا الإسلام العريضة بأسرع ما يكون من الخطى، فخافه المنصور واستدعاه إليه مرات عديدة، وهو حاقد عليه. ولكن لم يجد السبيل إلى قتله، لأن الملايين من المسلمين يأخذون عنه معالم الدين، وكلهم يشهدون بأنه لم يفكر يوماً من أيامه بأمر الخلافة، فبماذا يعتذر إليهم إن قتله؟ كما كان يصنع بالأقربين من اسرته الثائرين عليه. والإمام لم يخلع طاعة،ولم يفارق جماعة المسلمين، ولا حدث نفسه بأمر الخلافة، لذلك فإن ما رواه بعض الرواة من أنه مات مسموماً لا تؤيده النصوص القطعية وإن كان ممكناً. وجاء في التذكرة أن المنصور حج في سنة سبع وأربعين، وبعد انتهاء الحج قدم مدينة الرسول، فأمر وزيره الفضل بن الربيع أن يأتيه بجعفر بن محمدعليه السلام وكان حاقداً عليه، قال الفضل فتغافلت عن ذلك، طمعاً أن ينسى المنصور وتهدأ نفسه، فأعاد علي القول ثانياً وثالثاً، فلم أر بداً من أن أستدعيه فلما جاءنا الإمام، قلت له لقد أرسل إليك لأمر عظيم،وما أظنك بناج منه، فلم يكن من الإمام إلا أن قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم دخل على المنصور فسلم عليه، فلم يرد السلام، وقابله بما شاء له الحقد والحسد والطغيان والجبروت، وقال له: اتخذك أهل الأمصار إماماً يجبون إليك الزكاة، وتلحد في سلطاني وتبغيه الغوائل، قتلني الله إن لم أقتلك. فقال الإمامعليه السلام: يا أمير المؤمنين، إن سليمان النبي أعطي فشكر، وأن أيوب ابتلي فصبر، وأن يوسف ظلم فغفر، فاقتد بأيهم شئت! فلم يجد الإمام بداً من مقابلته بهذا الأُسلوب اللين الهادئ الذي هو من أبلغ ما يمكن أن يكون في مثل هذه الحالات ومع ذلك فهو ينطوي على الموعظة البالغة لقد قصد الإمام بذلك أن يلفت نظره إلى أن الله إذا أنعم على عباده استحق شكرهم، وأنت في أعظم نعم الله، وليس من الشكر التنكيل بالأبرياء على الظنة والتهمة، وإذا كنت تراني بلاء عليك فالله

سبحانه إذا ابتلى عبداً من عباده لزمه الصبر لينال أجر الصابرين، وإذا ظلم العبد فالعفو أقرب للتقوى والله مع المحسنين. ولم يكن الإمامعليه السلام في هذا الأسلوب اللين يخاف على نفسه فحسب، وإنما كان يعظه أحياناً بمثل هذا الأسلوب أو أشد منه خوفاً على شيعته وبني عمه وعلى عامة المسلمين.

فأطرق المنصور ملياً، ثم رفع رأسه، وأدناه إليه وطيب نفسه، ودعا له بالخير وأجلسه على سريره، ومسح على لحيته بالغالية، وأجازه بالأموال والهدايا النفيسة، ثم ودعه بكل إجلال وإكبار، وهكذا كان يصنع كلما استدعاه إليه.

وذكر أبو نعيم في الحلية أن المنصور استدعى الإمام الصادق إليه يوماً، فأجلسه إلى جانبه فوقع الذباب على وجه المنصور، ولم يزل يقع عليه حتى ضجر المنصور منه، فقال يا أبا عبد الله وكانت كنية الإمام الصادق، لم خلق الله الذباب؟ فقال الصادق: ليذل به أنف الجبابرة! فوجم المنصور وأصابه انقباض. ويروي الرواة أن المنصور استدعاه إليه يوماً فعاتبه على قطيعته له وقال له: لم لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فأجابعليه السلام ليس لنا من أمر الدنيا ما نخافك عليه! ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوه منك ولا أنت في نعمة نهنئك بها، ولا في نقمة فنعزيك.

فقال المنصور: «تصحبنا لتنصحنا!» فقال له الإمام: «إن من يريد الدنيا لا ينصحك، ومن يريد الآخرة لا يصحبك» فلم يكن الإمام في عظته هذه من اللين ما كان في سابقتها. كان في عظته هذه كأنه صاعقة على أهل الباطل والظالمين، وأهل الدنيا، وكشف له في جوابه عن أن دنياه هذه ليس لنا فيها من نصيب، لأنها تقطع الصلة بينك وبين أهل الآخرة وأوضح له في هذا الجواب بأن من يريد الآخرة لا يصحبك، لأن أبوابها مغلقة دونك، ولا سبيل لك ولأتباعك إليها، ما دام الجور سبيلك والباطل منهجك، والحق من وراء ظهرك.

وقال لولده موسى عليه السلام يا بني إن من مد عينه إلى مال غيره مات فقيراً، ومن لم يرض بما قسم الله له اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه، ومن كشف حجاب عورة غيره انكشفت عورات بيته، ومن سل سيف البغي قتل فيه، ومن حفر لأخيه بئراً أوقعه الله فيها، يا بني قل الحق وإن كان سراً لك وعليك.

وفي مجالس المفيد عن كثير بن علقمة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله، والورع والعبادة وطول السجود، وأداء الأمانة وصدق الحديث، وحسن الجوار فبهذا جاءنا محمد صلى الله عليه وآله، صلوا في عشائركم، وعودوا مرضاكم واحضروا جنائزكم وكونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً، حببونا إلى الناس ولا تبغضونا إليهم، جروا لنا كل مودة، وادفعوا عنا كل شر، فما قيل فينا من خير فنحن أهله، وما قيل فينا من شر فوالله ما نحن كذلك، لنا حق في كتاب الله، وقرابة من رسول الله، وولادة طيبة، هكذا قولوا إلى الناس.

ووعظ رجلاً فقال: لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك! فقال له الرجل: زدني! قال: لا أجد.

وفي مجالس المفيد عن خيثمة قال: دخلت على أبي عبد الله أُودعه، وأنا أُريد الشخوص إلى المدينة، فقال: أبلغ موالينا السلام، واوصهم بتقوى الله والعمل الصالح، وأن يعود صحيحهم مريضهم، وليعد غنيهم على فقيرهم وأن يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم ويتفاوضوا على الدين، فإن في ذلك حياة لأمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا، وأعلمهم أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً إلا العمل الصالح، فإن ولايتنا لا تنال إلا بالورع، وإن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره.

وقال عليه السلام: الأخوان ثلاثة: مواس بنفسه، وآخر بماله، وهما الصادقان في الإخاء، والآخر يأخذ منك البلغة، ويريدك لبعض اللذة، فلا تعده من أهل الثقة.

ولست بصدد ذكر آثاره عليه السلام، ولقد كتب الكتاب وأكثروا في الإمام الصادق، وقل من استطاع أن يحيط بنواحي عظمته.

ولقد نص على إمامته أبوه الإمام الباقر كما ذكر في الكافي وغيره، كما نص على إمامة ولده موسى بن جعفر عليه السلام ومات سنة ثمان وأربعين ومائة، وله من العمر خمس وستون سنة، وأمه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الخليفة الأول، ودفن في البقيع مع جده وأبيه وجدتهم فاطمة عليها السلام.

# موسى الكاظم

## الإمام السابع من أئمة الشيعة

موسى بن جعفر الملقب بالكاظم عليه السلام ولد بالمدينة سنة مائة وثمان وعشرين، وذكر الرواة أن الإمام جعفر، ترك من الأولاد موسى، ومحمد المعروف بالديباج لحسنه، وإسحق، وعلي بن جعفر، وعبد الله الأفلح، واسماعيل وإليه تنتسب الطائفة الاسماعيلية، ويحيى والعباس وغير هؤلاء من الأناث. وكانت وفاة الصادق بعد أن مضى على خلافة المنصور عشر سنين.

وكان للإمام موسى يوم ذاك من العمر عشرون سنة قضاها مع أبيه: ورافق جميع الأدوار التي مر بها والده الإمام عليه السلام ورأى المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها بين المسلمين وكثرة الملتفين حوله ليأخذوا عنه معالم الدين، ومن المعلوم أن المنصور لم يكن يعجبه أن يرى رجلاً في سلطانه له مثل هذا الظهور، ولاسيما وأنه من بيت علي عليه السلام صاحب الحق الشرعي، ولكنه لم يرَ بداً من الإبقاء عليه والاحتفاظ بحياته، تحت الرقابة الشديدة، والإمام يعلم ذلك، ويعلم أن الظروف التي وجد فيها الإمام، هي التي حالت بينه وبين ما كان يضمر له من التنكيل به أو قتله وكان من المفروض على الإمام

في مثل هذه الظروف أن يتكتم في أمر خلفه الجديد من بعده، فأوصى وصية عامة ظهرت لسائر الناس، بلغها الوالي في المدينة للمنصور، ودل الخاصة من أصحابه على إمامهم الجديد لعلمه أن المنصور سيبذل قسماً كبيراً من إمكانياته للقضاء على أئمة هذا البيت. ويؤكد ذلك ما رواه أبو أيوب الجوزي قال: بعث إلي أبو جعفر المنصور في جوف الليل، فدخلت عليه، وهو جالس على كرسي وبين يديه شمعة وفي يده كتاب فلما سلمت عليه رمى الكتاب إلي وهو يبكي، وقال هذا كتاب محمد بن سليمان والي المدينة، يخبرني أن جعفراً قد مات، فإنا لله وإنا إليه راجعون ثلاثاً، وأين مثل جعفر، ثم قال لي اكتب فكتبت صدر الكتاب، ثم قال اكتب إن كان أوصى إلى رجل بعينه فقدمه وأضرب عنقه فرجع الجواب إليه أنه أوصى إلى خمسة أحدهم أبو جعفر المنصور، ومحمد بن سليمان وعبد الله وحميده وموسى، فقال المنصور ليس إلى قتل هؤلاء سبيل.

وهذه الرواية تكشف لنا عن النوايا السيئة التي أضمرها المنصور لخليفة الإمام الصادق عليه السلام وأنه سيتتبع خلفه ويضيق عليه مهما كلفه ذلك من ثمن وهذا أمر لمسه الإمام الصادق وأيقن بوقوعه ولذا أدخل المنصور وحاكم المدينة في وصيته، وأرشد الخواص من أصحابه إلى الإمام موسى كما أودع علم ذلك عند البعض من بنيه كعلي بن جعفر وأخيه إسحاق، وكلاهما يرويان عن أخيهما موسى عليه السلام وما ينسب إليهما من الروايات يعد من القسم الصحيح في عرف المحدثين في الغالب.

وفي الإرشاد للمفيد عن المفضل بن عمر، قال كنت عند أبي عبد الله الصادق عليه السلام: فدخل أبو إبراهيم ولده موسى عليه السلام وهو غلام فقال أبو عبد الله استوصي به وضع أمره عند من تثق به من أصحابك.

وفي الإرشاد عن عبد الرحمن بن الحجاج، قال دخلت على جعفر بن

محمد في منزله فإذا هو في مسجد له في داره وهو يدعو، وعلى يمينه موسى ابن جعفر يؤمن على دعائه، فقلت جعلني الله فداك قد عرفت انقطاعي إليك وخدمتي لك، فمن ولي الأمر من بعدك؟ فقال يا عبد الرحمن أن موسى قد لبس الدرع واستوى عليه إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة التي تؤكد إمامته بعد أبيه وفي أكثرها يبدو على الإمام التخوف من إعلان هذا الأمر، ومن هنا نعرف السبب في انتشار المذاهب في تلك الفترة.

فالإعلان عن الإمام الجديد لم يكن عاماً، وأولاد الإمام الصادق كثيرون، والشيعة ينتظرون خليفة الإمام ليأخذوا عنه معالم الدين، والإمام عليه السلام لم يرشد الناس إلى خليفته موسى بشكل يرفع الالتباس ويقطع أمل أهل الأطماع، وإنما أرشد إليه الخواص من شيعته وبنيه، وأوصاهم بالتكتم الشديد. فكان من المنتظر في مثل هذه الأحوال أن يرجع بعض الفئات من الشيعة لكل من يدعي الأمر من أولاد الإمام الصادق وفيهم من له البروز والظهور، فرجع جماعة إلى عبد الله الأفطح، وآخرون إلى إسماعيل، وبلغ من تشتت أمر الشيعة أن افترقوا خمس فرق كما ذكر ذلك النوبختي في كتابه فرق الشيعة.

ولكن القائلين بإمامة موسى عليه السلام هم خلص الشيعة وأعيانهم وذوو البصائر والدرجات الرفيعة منهم، وأهل العلوم والفقه والنظر، ورجع إلى مقالتهم الكثير من الشيعة ممن كان قد رجع إلى أخويه عبد الله وإسماعيل كما ذكر النوبختي وغيره من كتاب الفرق.

وتدلنا الحوادث والروايات أن حياة الأئمة عليهم السلام كانت بلون واحد تغمرها الآلام والمصائب، فلا دلال في طفولة كما تشاء الطفولة، ولا نعيم في عيش، ولا راحة في شيخوخة.

استقبل الإمام موسى إمامته خائفاً هو وشيعته الذين عرفوا بأمره وبقية

الشيعة من أصحاب أبيه كانوا ينشدون الحق ويطلبون إمامهم فلا يصلون إليه ولا يستطيع أن يدلهم على نفسه خوفاً من أُولئك الطغاة الجبارين.

وروى المفيد في إرشاده عن هشام بن سالم، قال: كنا بالمدينة بعد وفاة أبي عبد الله عليه السلام أنا ومحمد بن النعمان صاحب الطاق، والناس مجتمعون على عبد الله بن جعفر، ظناً منهم أنه صاحب الأمر بعد أبيه، فدخلنا عليه والناس عنده، فسألناه عن الزكاة في كم تجب، فقال في مائتي درهم خمسة دراهم. فقلنا له ففي مائة! قال درهمان ونصف، قلنا والله ما تقول المرجئة هذا فقال والله ما أدري ما تقول المرجئة، قال فخرجنا ضلالاً ما ندري إلى أين نتوجه، وإلى من نقصد فبينما نحن كذلك إذ رأيت رجلاً شيخاً لا أعرفه يومي إلي بيده، فخفت أن يكون عيناً من عيون أبي جعفر المنصور، وكان له بالمدينة جواسيس، ليعرف على من يجتمع إليه الناس، فيؤخذ وتضرب عنقه، فخفت أن يكون ذاك منهم، فقلت للأحول: تنحّ فاني خائف على نفسي وعليك، وإنما يريدني ليس يريدك. فتنحى الأحول عني بعيداً، وتبعت الشيخ وقد ظننت أني لا أقدر على التخلص منه. فما زلت أتبعه، وقد عزمت على الموت، حتى ورد بي باب أبي الحسن موسى، ثم خلاني ومضى، فإذا خادم على الباب فقال لي ادخل رحمك الله، فدخلت فإذا أبو الحسن موسى عليه السلام، ومضى الراوي في روايته إلى أن قال: فقلت أفأنت الإمام بعد أبيك؟ قال لا أقول ذلك! فقلت في نفسي لم أصب طريق المسألة، ثم قلت له أعليك إمام؟ قال لا! قال فدخلني شيء لا يعلمه إلا الله إعظاماً وتهيباً، ثم قال له: أسألك كما كنت أسأل أباك، قال سل ولا تذع فإن أذعت فهو الذبح، وبعد أن سأله عما يريد قال له إن شيعة أبيك ضلال، فالق إليهم هذا الأمر وادعهم إليك، فقد أخذت علي الكتمان قال من أنست منهم رشداً فالق بهم وخذ عليهم الكتمان.

ومهما يكن الحال، فقد عاش بقية أيام المنصور وموسى الهادي

والمهدي العباسيين إلى أن كانت خلافة هارون الرشيد ومضى في هذه المدة ينشر رسالته ويجتمع عليه رواة الشيعة ممن كانوا مع أبيه وغيرهم. وفي أيام الرشيد ظهر من أمره ما كان يخفي من قبل، فانتشر صيته واتسع أمره وكثر الرواة عنه وناظر أهل العقائد الفاسدة في أُصول الدين وفروعه وكاد أن يتم له ما كان لأبيه فوشى به ابن أخيه علي بن إسماعيل إلى الرشيد فحبسه في البصرة وبغداد.

وكان يقول في دعائه: اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك وقد فعلت فلك الحمد على ذلك، وانقطع عليه السلام إلى عبادة ربه، وأخيراً دس إليه الرشيد السم بواسطة أمير الحبس السندي بن شاهك.

وكانت وفاته سنة مائة وثمانية وثمانين، وله من العمر خمس وخمسون سنة، وقيل أكثر من ذلك ودفن في مقابر قريش حيث قبره الآن في المدينة المعروفة بالكاظمية.

# علي الرضا
# الإمام الثامن من أئمة الشيعة

علي بن موسى الرضا عليه السلام وذكر المسعودي في مروج الذهب أن الإمام موسى عليه السلام قضى سنة ست وثمانين بعد المائة، وكان قد مضى على خلافة الرشيد أربع عشرة سنة أو أكثر من ذلك، وأن إمامة الرضا بعد أبيه عشرون سنة وسنه يوم وفاته خمس وخمسون سنة كما روى ذلك المفيد.

عاش مع أبيه خمساً وثلاثين سنة، والقسم الوافر منها كان في خلافة هارون والإمام موسى عليه السلام في حبسه بين البصرة وبغداد مكبوت المشاعر لا يستطيع أن يجهر بالحق ويقوم بأداء رسالته، وظل في تلك المدة تحت غطاء من الأحزان والألم، لم تثر له ثائرة ولم يجهر بالخلاف على أحد من الحكام، تجتمع إليه الحفنة بعد الحفنة من أصحاب أبيه، تحت ستار من التقية، ويشاهد ما يحز من نفسه الألم مصارع الأقربين من بني عمه وآل أبي طالب، والشك يعترض الكثير من شيعة آبائه فيرجع بعضهم إلى غير الإمام الشرعي، والبعض الآخر تصارعه الحيرة، والحكام وأعوانهم البرامكة يضللون الرأي العام الشيعي في أمر الإمام موسى عليه السلام ليرجعوا على إمامته، والإمام الرضا يشاهد كل ذلك ولكنه لا يملك أن يفصح عما في نفسه

ليسترشد به الضال ويهتدي إليه الحائر فيلتزم جانب الهدوء والتستر خوفاً من سلطان الرشيد، فما أشبه أيامه هذه بأيام من تقدمه من آبائه، تاريخ يشبه بعضه بعضاً، وسلسلة من الكوارث يتصل طرف منها بعلي عليه السلام وطرفها الآخر بآخر أئمة هذا البيت. وهكذا بقي الإمام الثامن إلى أن كانت فاجعة أبيه وهو على أكتاف أربعة من الحمالين من السجن إلى الشوارع التي تحتشد فيها المارة إلى الجسر الذي يربط كلاً من طرفي المدينة بالآخر، والحمالون ينادون بموته بلهجة تنم عن الامتهان والتحقير حتى لا يبقى لأحد من الشيعة المتسترين أمل في حياة إمامهم وخروجه من سجنه.

وعاش الإمام بعد أبيه عشرين سنة، قضى شطراً منها فيما بقي من أيام الرشيد، وهو الإمام بعد أبيه، وانحرف كثير من الشيعة في آرائهم، وكثرت المذاهب وتعددت الفرق، فبين من رجع في الإمامة إلى غيره من اخوانه، وبين من قال بأن الإمام غائب وسيظهر بعد حين إلى الناس، وفرقة من الشيعة قالت بإمامته وهم الخواص الذين سمعوا من أبيه النص عليه، وبدأ أصحابه يتصلون به ويدعون الشيعة إلى إمامته فرجع إليه جماعة من الشيعة وظهر أمره بين أصحاب أبيه، وقام بأداء رسالته، ينشر تعاليم الإسلام ويناضل أهل الشبه والعقائد الفاسدة على خوف ووجل شديدين. وعاش السنين الثمانية بعد إمامته حتى تقلص ظل الرشيد، وكانت أيام ولديه وما وقع فيها من أحداث أدت إلى خلافة المأمون العباسي وفي هذا الظرف تهيأ له الجو المناسب لأداء رسالته كما يريد، وقد جاء المأمون في هذه الدولة كما جاء قبله عمر بن عبد العزيز في أيام بني أمية، ولم يكن المأمون في سيرته يشبه أحداً ممن تقدمه من البيت العباسي، الذي أنسى الناس ظلم الأمويين، وأصبح يجري على لسان أكثر الناس قول القائل:

يا ليت جور بني مروان دام لنا    وليت عدل بني العباس في النار

فعلي عنده أفضل الخلق بعد الرسول، وأبناء علي هم الصفوة من بعده، لهم حق في كتاب الله، وقرابة من رسول الله وولادة طيبة، ولقد صاهر علياً عليه السلام وولده محمداً بعد موت أبيه الرضا عليه السلام وكان يدعو الناس إليه ويجتمع إليه العلماء للمناظرة، فانبسط التشيع في أيامه ورجع إلى إمامة الرضا أكثر الضالين بعد وفاة أبيه وجده عليه السلام، وامتدت جذور التشيع إلى أعضاء الدولة فكان الفضل بن سهل وزير المأمون شيعياً وقائده طاهر بن الحسين يميل إلى التشيع، وغيرهما كثير من أعيان الدولة. وكثر الموالون لأهل البيت وحقنت دماء الشيعة، وكان عليه السلام شديداً على بني عمه واخوته الذين استغلوا لين المأمون وحسن صنيعه مع الإمام، فوثب محمد بن إبراهيم من أولاد الحسن عليه السلام في الكوفة واستفحل أمره، ووثب في مكة الحسين بن الحسن الأفطح ولم يبق قطر إلا وفيه علوي يمني نفسه الأمارة ويمنيه الناس بالوثبة. وكان من جملة الثائرين اخوه زيد، فظفر به المأمون وبعث به إلى أخيه علي من غير أن يمسه بأذى، فوبخه الإمام وأنكر عليه هذا الأمر وكان مما قال له سوأة لك يا زيد! ما أنت قائل لرسول الله إذا سفكت الدماء وأخفت السبل وأخذت المال من غير حله! غرك حمقاء أهل الكوفة! وقول رسول الله أن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار، إن هذا لمن خرج من بطنها مثل الحسين والحسين لا لي ولك، والله ما نالوا ذلك إلا بطاعة الله، فإن أردت أن تنال بمعصية الله ما نالوه بطاعة الله إنك إذن لأكرم على الله منهم.

ويروي بعض الرواة أن المأمون لما رأى الإمام يعظم في أعين الناس، والتشيع يزداد انتشاراً واتساعاً، حتى دب التشيع في أركان الدولة، أحس أن الخطر قد أحدق به إن هو مضى مع الرضا كما كان، ورأى في الوقت نفسه أن الأقربين إليه من أسرته قد أعلنوا التمرد والعصيان على مخافة أن ينتقل الأمر من أيديهم إلى ولد علي عليه السلام فاستدعى الإمام إلى مقر ملكه خراسان،

وأظهر أنه سيوليه الأمر من بعده ليكون الإمام تحت رقابته في العاصمة التي اتخذها مقراً لعرشه.

فانتقل الإمام إليها وكانت ولاية العهد على كره من الإمام عليه السلام وكان موته مسموماً بعد ذلك كما تزعم هذه الطائفة من الأخبار، وليس في التاريخ ما يؤيد هذا الرأي، وأنه استدعاه إليه نتيجة لتلك المؤثرات التي أشرنا إليها، فيمكن وليس بالبعيد أن يكون ذلك نتيجة لحسن نواياه، ولأنه عرف الحق لأهله وتنكر لسيرة الماضين من آبائه الذين أمعنوا في ظلم أهل البيت قتلاً وسماً وتشريداً.

كما لم يثبت التاريخ أن المأمون كان يتصنع في تقريب الإمام لم يثبت كونه مات بعنب مسموم أهداه إياه المأمون وكانت به نهايته.

وقد نص على إمامته الإمام موسى عليه السلام ودل عليه الأعيان من شيعته وأوصاهم كما ذكرنا بالتكتم خوفاً عليه من الرشيد.

روى المفيد في إرشاده عن داود الرقي قال: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام جعلت فداك إني قد كبرت سني فخذ بيدي وأنقذني من النار من صاحبنا بعدك؟ قال فأشار إلى ابنه أبي الحسن الرضا فقال: هذا صاحبكم بعدي، وفي الإرشاد عن داود بن سليمان قال: قلت لأبي إبراهيم أني أخاف أن يحدث حدث ولا ألقاك فأخبرني من الإمام بعدك؟ فقال هذا وأشار إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام وغيرها كثير كما ذكر المحدثون في مجاميع الحديث كالكافي وغيره.

وكانت وفاته بطوس من أرض خراسان حيث قبره الآن يقصده الشيعة من جميع الأقطار وأُمه يقال لها أم البنين.

# محمد الجواد
# الإمام التاسع من أئمة الشيعة

الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام، قال النوبختي في كتابه فرق الشيعة: ولد محمد بن علي الجواد سنة خمس وتسعين ومائة، وأشخصه المعتصم في خلافته إلى بغداد لليلتين بقيتا من المحرم من سنة عشرين ومايتين، وتوفي بها في آخر ذي القعدة، ودفن في مقبرة قريش عند جده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وله من العمر خمس وعشرون سنة وشهران وكانت إمامته سبع عشرة سنة.

قد يختلج الشك أذهان البعض من الناس في إمامة هذا الشاب الذي فقد والده واستقبل في صباه أمر الإمامة، في عصر كان الساسة فيه يبذلون قسماً من إمكانياتهم للحط من مقام أهل البيت، لأنهم يرون في بيت علي وحده المنافس الوحيد لسلطانهم ولم تجتمع العناصر التي تؤهل للخلافة في بيت من بيوت المسلمين كما اجتمعت لأهل هذا البيت، نسب رفيع وجهاد في سبيل الله متواصل، وإعراض عن الدنيا ومغرياتها، ووصية من رسول الله وعتها أجيال وأجيال، كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، وعلم يتدفق كالسيل صغيرهم وكبيرهم فيه سواء، بهذه الخصائص

ملكوا القلوب، واستولوا على الألباب رغم الصعاب التي اعترضتهم، والستار الحديدي الذي بنته السلطات بينهم وبين الناس: ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون.

عناصر لم تكن إلا في بيت محمدﷺ، بيت الإلهام والحكمة والقرآن والمعجزة. بيت كان وحده ينافس الجبابرة وعباد الشهوات، فلا غرابة إذا كان سليل هذا البيت، وهو لم يتجاوز العقد الأول من عمره إماماً للشيعة بمشيئة الله، كما كان عيسى حين ولادته نبياً بإذن الله. ولقد كانت الأسرة الحاكمة في زمانه تعمل بكل ما لديها للتخلص منه أو إهماله، فثارت ثائرتهم على المأمون الذي أحسن صحبته كما أحسن لأبيه من قبل، يريدون بذلك إقصاءه والحط من مقامه الرفيع في نفس المأمون، مخافة أن يكون له من ولاية العهد ما كان لأبيه محتجين عليه بالخروج على سيرة آبائه وأسلافه مع أبناء علي‌عليه‌السلام فرد عليهم بقوله: إن ما كان يفعله آبائي مع أهل هذا البيت، فقد كانوا به قاطعين للرحم وأعوذ بالله من ذلك.

والله ما ندمت على استخلاف الرضا، ولقد سألته أن يقوم بالأمر وأنزعه عن نفسي، فأبى وكان أمر الله قدراً مقدوراً، أما أبو جعفر محمد بن علي‌عليه‌السلام فقد اخترته لبروزه على كافة أهل الفضل في علمه وفضله مع صغر سنه والإعجوبة فيه ذلك، وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفته من فضله فيعلموا أن الرأي ما رأيت. وألحت أُسرة الخليفة على إقصاء الإمام الجوادعليه‌السلام، وأخيراً وبعد جميع محاولاتهم الفاشلة،استقر رأيهم أن يجمعوا له العلماء للمناظرة أملا منهم أن يسأل فلا يجيب، وبذلك يتم لهم ما يريدون، فأجابهم المأمون إلى ذلك بكل انطلاق ومذ استقر المجلس الحافل بالعلماء وأعيان الدولة ومختلف الطبقات، تقدم يحيى بن أكثم إلى الإمام وسأله عمن قتل الصيد في الحرم وهو يأمل أن الجواب سيستعصي

على الإمام، فاستوضح الإمام سؤاله بشكل يتضمن عشرات الأسئلة، فلم يدر كيف يجيب. ثم سأله الإمام ثانياً فوجم حائراً، فكانوا في اقتراحهم هذا قد ضاعفوا منزلة الإمام في نفس المأمون. وبقي الإمام عليه السلام مدة خلافة المأمون ينشر أحكام الله بين عباده، ويروي للناس الفرائض والسنن، ويناضل أهل الآراء الفاسدة إلى أن رجع إلى إمامته الكثير من الشيعة.

واتسعت سمعته في دنيا المسلمين وزوجه المأمون من ابنته، وبعد انتقال الخلافة إلى المعتصم العباسي استدعاه من المدينة إلى بغداد وأقام بها نحواً من سنة، وانتقل إلى ربه وقد نص على إمامته الإمام الرضا عليه السلام، روى المفيد في إرشاده عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام قد كنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر، فكنت تقول سيهب الله لي غلاماً، وقد وهبه لك وأقر عيوننا به، فلا أرانا الله يومك، فإن كان كون فإلى من؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه، فقلت: جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين، قال: وما يضره من ذلك؟ قد قام عيسى بالحجة وهو ابن أقل من ثلاث سنين! وفي الكافي والإرشاد والوافي روايات كثيرة عن أبيه الرضا تنص على إمامته.

# علي الهادي
# الإمام العاشر من أئمة الشيعة

علي بن محمد الملقب بالهادي، ولد الإمام الهادي في المدينة سنة مايتين واثنتي عشرة للهجرة، وكان له من العمر يوم توفي أبوه ثمان سنوات، وأشخصه المتوكل إلى سامراء سنة ثلاث وثلاثين، وكان له من العمر إحدى وعشرون سنة. وبقي في سامراء إلى أربع وخمسين ومائتين، فيكون عمره يوم توفي اثنين وأربعين سنة أو أقل من ذلك، كما ذكر النوبختي والمفيد وغيرهما.

وقد نص على إمامته أبوه قبل وفاته، وفي الإرشاد عن إسماعيل بن مهران قال: لما خرج أبو جعفر من المدينة إلى بغداد في المرة الأولى، قلت له جعلت فداك، إني أخاف عليك من هذا الوجه، فإلى من الأمر بعدك؟ فرجع إلي بوجهه ضاحكاً وقال ليس كما ظننت في هذه السنة.

فلما استدعاه المعتصم في الثانية سرت إليه فقلت له جعلت فداك، أنت خارج فإلى من هذا الأمر من بعدك؟ فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم التفت إلي فقال عند هذه تخاف علي. . الأمر بعدي إلى ابني علي، ورواه الكليني في أُصول الكافي، وقاله المفيد في إرشاده.

والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً إن أثبتناها هنا ضاق بها الكتاب. وفي اجتماع العصابة على إمامة أبي الحسن عليه السلام وعدم من يدعيها سواه في وقته ممن يلتبس فيه الأمر، اغنانا عن إيراد الأخبار على التفصيل. وفي فرق الشيعة للنوبختي: أن أصحاب محمد بن علي عليه السلام قالوا بإمامة ابنه علي بن محمد فلم يزالوا على ذلك سوى نفر منهم يسير عدلوا إلى القول بإمامة أخيه موسى بن محمد ثم رفضوا إمامة موسى ورجعوا إلى امامة علي بن محمد الهادي عليه السلام ولم يزالوا على ذلك حتى كانت وفاته بسر من رأى.

فاستقبل الإمامة قبل أن يبلغ العاشرة من عمره كما استقبلها أبوه من قبل، وبقي في المدينة إلى أن بلغ العشرين أو أكثر منهلاً عذباً لرواد العلم، وموئلاً لشيعة آبائه الكرام يأخذون عنه أحكام الدين حتى اتسعت شهرته في إيران والعراق وسائر البلاد الإسلامية يرجع إليه القريب منه، ويكتب إليه البعيد عنه في مشاكلهم، وعاش زمناً على هذه الحالة.

ورواية التذكرة تدلنا على مقدار عظمته في النفوس، قال إن المتوكل بعد أن عرف ميل الناس إليه خاف منه، فدعا يحيى بن هرثمة، وقال: إذهب إلى المدينة وانظر حاله وأشخصه إلينا، قال يحيى: فذهبت إلى المدينة فلما دخلتها ضج أهلها ضجيجاً عظيماً، ما سمع الناس بمثله خوفاً على علي الهادي، وقامت الدنيا على ساق لأنه كان كثير الإحسان إلى الناس، معرضاً عن الدنيا، فجعلت أُسكتهم وأحلف لهم أني لم أُومر فيه بمكروه، وأنه لا بأس عليه حتى هدأت الحالة، وكان المتوكل معروفاً بالعداء لأهل البيت، وبلغ به العداء كما ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٣٦، وابن جرير الطبري، أنه حرث قبر الحسين، ومنع الشيعة من زيارته ونكل بهم وفرض عليهم الضرائب إن هم استمروا على زيارة الحسين عليه السلام وإلى ذلك يشير ابن السكيت في أبياته التالية:

تالله إن كانت أُمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتته بنو أبيه بمثله ... فغدا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما

وقيل أن هذه الأبيات للبسامي، وأياً كان قائلها فهي تعطينا صورة صادقة عن مبلغ ما كان يضمره خليفة المسلمين لأهل بيت النبي من العداء والنصب فلا غرابة إذا تحامل على الإمام الهادي وهو معاصر له وقد يتخوف منه على سلطانه.

والشيعة في أيامه، أكثر منهم في الأدوار السالفة وكلهم قال بإمامته، وكانت الحاشية المحيطة بالمتوكل تدين بالنصب والعداء لأهل البيت، كعلي بن الجهم، ومحمد بن داود الهاشمي، وأبو السمط، فزينوا له الوقيعة بالإمام، وخوفوه من كثرة الشيعة واتساع سمعته، وما زالوا به حتى استدعاه إلى سامراء سنة ثلاث وثلاثين، فكان الإمام تحت رقابته، ومنع الناس من الإتصال به. خلا نفر من أصحابه كانوا يأتونه متسترين، فيأخذون عنه، ويبلغوا من لا يقدر على الوصول إليه، ويكتبون بما يأخذون لأهل الأمصار النائية، وفي المجلد الثاني من مروج الذهب:

إن جماعة من حاشية المتوكل سعوا بأبي الحسن علي بن محمد إلى المتوكل، وقالوا له أن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرهما، فوجه إليه ليلاً عدداً كبيراً من الأتراك وغيرهم هجموا عليه في منزله على حين غفلة، فوجدوه في بيت وحده مغلق عليه، وعليه مدرعة من الشعر، وليس في البيت شيء من الأثاث والفراش سوى الرمل والجص، وعلى رأسه ملحفة من الصوف متوجهاً إلى ربه يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، فأخذ على ما وجد عليه، وحمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفي يده الكأس...

فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شيء مما قيل فيه، ولم يكن على حالة يتعلل بها عليه، فناوله المتوكل الكأس الذي بيده فقال الإمام يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني منه فعفاه. ثم قال له أنشدني شعراً أستحسنه فاعتذر الإمام بقلة روايته للشعر وخصوصاً إذا كان من النوع الذي يستحسنه المتوكل في وصف الغلمان والخمر والجواري، ولكن الجبار ألح في طلبه، فأنشده الإمام عليه السلام:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم فاودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود ينتقل

واستمر الإمام ينشد المتوكل شعراً من هذا النوع، حتى خاف عليه الحاضرون من بطشه.

لقد فشل الساعون بدسيستهم على الإمام عليه السلام ولم يرَ المتوكل مجالاً للتنكيل به. فأراد أن يحقره في مجلس يضم حاشيته وندماءه السكارى، فناوله كأساً كان قد أعدها لنفسه وهو يعلم أن الإمام يحارب الخمر كما يحارب جميع المنكرات ويرى أن شارب الخمر كعابد الوثن، كما روي ذلك عن آبائه واحداً بعد واحد عن النبي عن ربه. وبعد أن يئس منه عدل في تحديه إلى لون آخر، فاستنشده الشعر الذي يلتذ بسماعه، ولم يكن يحسب أن الإمام سينزل عليه تلك الصواعق، ويصفعه بتلك العظات البالغات، ويلمسه بكلتا يديه ما يكون من أمره وأمر غيره من الجبابرة العاتين عبيد الشهوات والأهواء، أراد المتوكل أن يصغر من أمر الإمام فكبر في نفوس الملايين من الناس من حيث لا يقصد فصور له الإمام حالة الجبابرة والسلاطين بعد قليل الزمن، يسألون فلا يجيبون، فيفصح القبر عن سوء حالهم، وقبح مصيرهم. التيجان يرثها قوم آخرون، والوجوه الناعمة يعبث

فيها الدود والحشرات، والأموال تنتقل إلى أعدائهم، والقصور العالية يسكنها قوم آخرون وبالتالي ستكون عبرة للأجيال.

تلك عظة من عظات القرآن قصها الله على نبيه لتكون عبرة لأهل الدنيا، صاغها الإمام شعراً، نزولاً عند رغبة المتوكل فأبكاه بها وأبكى حاشيته، وانصرف الإمام من مجلسه مشيعاً بكل حفاوة وإكرام، وما زال الإمام الهادي في أيام المتوكل عرضة للأذى والإساءة، قضى الأعوام في السجون بين حين وآخر، وانتقل إلى ربه الكريم راضياً مرضياً في عهد المعتز العباسي سنة مائتين وأربع وخمسين، وقيل اثنين وخمسين ونص على إمامة ولده الحسن العسكري من بعده كما فعل آباؤه من قبله.

# الحسن العسكري
## الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة

الحسن بن علي الملقب بالعسكري عليه السلام، قال النوبختي والمفيد وغيرهما، أن الحسن بن علي عليه السلام ولد سنة اثنين وثلاثين ومايتين، وتوفي سنة ستين ومايتين، وإذا رجعنا إلى وفاة أبيه عليه السلام سنة أربع وخمسين، تكون إمامته ست سنين، ولعل السبب فيما غلب عليه من اللقب، هو أن الدار التي كان يسكنها مع أبيه في سر من رأى تقع في محلة أسمها العسكر كما جاء في بعض كتب الحديث.

عاش مع أبيه اثنين وعشرين سنة، كان القسم الوافر منها في سامراء مع المتوكل والمعتز العباسيين ولحقه من الأذى ما لحق بأبيه في جوار المتوكل، وبعد وفاة أبيه قام بأعباء الإمامة، وقال بإمامته أكثر الشيعة ورجع إليه عامتهم سوى نفر يسير قالوا بإمامة أخيه جعفر، المعروف عند الشيعة وجماعة من المحدثين بالكذاب والموصوف كما جاء في كتب التاريخ بالاستهتار في دينه، وكانت الدعوة إلى إمامته عن طريق السلطة الحاكمة في زمانه، ومع ذلك لم يرجع إليه ولا اطمأن به أحد من الشيعة سوى من ذكرنا، وفي الإرشاد عن الحسن بن محمد ومحمد بن يحيى وغيرهما قالوا:

جرى في مجلس أحمد بن عبيد الله ابن الخاقان يوماً ذكر العلوية ومذهبهم، وكان أحمد بن عبيد الله شديد التعصب والانحراف عن أهل البيت، فقال ما رأيت وما عرفت بسر من رأى رجلاً من العلوية مثل الحسن بن علي بن محمد في هديه وسكونه ونبله وكبرته عند أهل بيته وبني هاشم كافة وتقديمهم إياه على ذوي السن والخطر، وكذلك كانت حاله عند القواد والوزراء وعامة الناس، ثم ذكر حديثاً طويلاً حكاه أحمد بن عبيد الله عن أبيه استعرض فيه ما كان لأبي محمد العسكري من مكانة عالية عند العلماء والوزراء وجميع الطبقات. واستعرض أيضاً ما كان عليه أخوه جعفر من الفسق والخلاعة، وذكر في الحديث نفسه ما كان يبذله جعفر لحاشية الخليفة من الأموال الكثيرة وكيف كان يتملق للسلطان، كي يحمل الشيعة على القول بإمامته.
وأن عبيد الله قال له يوماً وقد جاء يستعين به على الدعاية له: يا أحمق إن السلطان جرد سيفه في الذين زعموا أن أباك وأخاك أئمة ليردهم عن ذلك فلم يتهيأ له، فإن كنت عند شيعة أبيك وأخيك إماماً فلا حاجة لك إلى السلطان وغيره، وإن لم تكن عندهم بهذه المنزلة لم تنلها بالسلطان وغيره، والحديث طويل نقلنا منه اليسير لبيان ما كان للإمام عليه السلام عند جميع الطبقات من المنزلة الرفيعة، ولأجل ذلك كان تحت الرقابة الشديدة وحالوا بينه وبين الاتصال بشيعة آبائه، ومع كل هذه المحاولات التي كانت تقوم بها السلطة كان التشيع في عصره قد اتسع وامتد إلى أكثر المدن والعواصم، وكانت مدينة قم في عهده وعهد أبيه من العواصم الشيعية الكبرى، بالإضافة إلى سامراء وبغداد والمدائن والكوفة وغيرها من المدن والعواصم التي كانت تضم عدداً كبيراً من الشيعة، يشكل مجموعة تتجاوز الملايين في ذلك العصر وكانوا على اتصال دائم بالإمام العسكري. وقد نص على إمامته أبوه قبل وفاته. روي في أُصول الكافي عن علي بن عمر النوفلي أنه قال: كنت مع أبي الحسن في صحن داره فمر بنا محمد ابنه، فقلت له جعلت فداك هذا

صاحبنا بعدك؟ فقال لا! صاحبكم بعدي الحسن. وفي الكافي عن علي بن مهزيار قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام إذا كان كون وأعوذ بالله فإلى من؟ قال عهدي إلى الأكبر من ولدي! وكان الحسن أكبر ولده، والأخبار في أُصول الكافي وغيره كثيرة، وكلها تفيد بصراحة تامة أن الإمام بعد علي أبي الحسن الهادي ولده الحسن العسكري عليه السلام وقد انتقل إلى ربه في خلافة المعتمد العباسي سنة ستين ومايتين ودفن مع أبيه في سر من رأى.

# المهدي محمد بن الحسن
# الإمام الثاني عشر من أئمة الشيعة

محمد بن الحسن الملقب بالمهدي، ولد في النصف من شعبان سنة خمس وخمسين ومايتين وعاش مع أبيه خمس سنين، وقد أخفى أبوه أمره إلا عن نفر يسير من خاصته، ولذا لم يعرف أكثر العامة أن له ولداً وافترق الشيعة بعده فرقاً كثيرة، والسلطة الحاكمة يوم ذاك هاجمت دار أبي محمد الحسن عليه السلام ووضعت عليه الرقابة وفتشته تفتيشاً دقيقاً للقبض على خليفته الجديد، وأخيراً أصدرت المراسيم بأن إمام الشيعة قد مات ولا خلف له، وانحصر إرثه بنظر السلطة الحاكمة بأخيه جعفر، وكان صنيعة الحاكم فحاولت السلطة إرجاع الشيعة إلى إمامته ليتم لها القضاء على عقيدة التشيع لأهل البيت، ولكن الخواص من الشيعة الذين سمعوا النص عليه من أبيه وشاهدوه بأعينهم بين يدي أبيه في خلواته، ظلوا متمسكين بولائه وعملوا تحت ستار من التقية لإرجاع الشيعة إليه. وساعدهم على ذلك ما نقله المحدثون عن أئمة الشيعة من إمامة الثاني عشر، وأنه ابن الإمام العسكري. وعدم توفر شروط الإمامة في جعفر بن علي المستهتر الخليع صنيعة الحكام في عصره لهذا ولما هو المعروف من أُصول الشيعة المأخوذة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

والأئمة من بعده، أن الإمام المعصوم الحافظ للشريعة لا بد من وجوده في كل عصر ولا تخلو منه الأرض، وأنه خاتمة خلفاء النبي الإثني عشر كما روي ذلك بالطرق الصحيحة، لجميع هذه الإعتبارات بقي العدد الأكبر من الشيعة متمسكاً بهذه الفكرة، حتى رجع جمهورهم إليها، وقالوا بإمامته، وبإمامته تنتهي سلسلة الخلفاء الإثني عشر من ذرية النبي كما نص على ذلك مرات عديدة.

وقد أصبح اسم الشيعة الإمامية مختصاً بمن قال بإمامتهم على الترتيب الذي ذكرناه. فمن زاد واحداً أو نقص لا يصدق عليه هذا الاسم.

كما وأن الفِرَق التي كانت تفرضها السياسة، والضغط الشديد على الأئمة حتى اضطرهم إلى التستر وأدى تسترهم إلى رجوع صعفاء الشيعة إلى غير الإمام الشرعي هؤلاء لا يدخلون في اسم الشيعة اليوم وإذا تحدثنا عن عقائد الشيعة أو تحدث غيرنا عن ذلك فإنما يراد الشيعة الإمامية.

وأعداء الشيعة كانوا لا يزالون يدسون على الشيعة بسبب ما يرونه من الشذوذ في معتقدات الفرق التي كانت تدين بولاء أهل البيت وانتحلت لنفسها مذهباً لا يتفق مع قواعد الإسلام، ولم يكتفوا بذلك حتى اتخذوا من عقيدة الشيعة بإمامة الثاني عشر سلاحاً يطعنون به عقيدة الإمامية، مع أن أحاديث المهدي ليست من مختصات الإمامية بل هي متواترة عند جميع فرق المسلمين ودونتها طوائف كثيرة من أئمة نقلة الحديث في كتبهم حتى أصبحت عقيدة لطوائف من المسلمين من أيام محمد بن الحنفية إلى زمن متأخر عن الإمام الثاني عشر كما يظهر ذلك من الكتب التي تعنى بالفرق الإسلامية.

ومن رجع إلى عقيدة الشيعة في الإمامة، وكيف انتهت إلى الثاني عشر لوجد ما يكفي لرد هذا العدوان.

إن النبي الكريم الذي لا ينطق عن هوى في نفسه ولا يقول إلا ما يوحى إليه من ربه، نص على الأئمة الإثني عشر بأحاديث كثيرة بعضها صريح فيما تدعيه الإمامية، وبعضها الآخر وإن كان مطلقاً، إلا أنه لا ينطبق إلا على ما يقول به الشيعة. والمتتبع يرى ارتباكاً شديداً من شراح السنة في الخلفاء الإثني عشر المعنيين بهذه الأحاديث، وهل يساعدنا المنطق السليم على تفسير خلفائه الإثني عشر بخلفاء بني أُمية وفيهم يزيد بن معاوية، والوليد الذي جعل القرآن غرضاً لنباله، وأمثال هذين ممن يشهد التاريخ باستهتارهم وخروجهم على مبادئ الإسلام ومقدساته، أو خلفاء بني العباس الذين أسرفوا في الظلم والعدوان والاستهتار بالقيم والمقدسات وأفسحوا المجال للترحم على عهد أسلافهم الأمويين وقال أحد الشعراء معبراً عن مدى الاستياء والتذمر من جور العباسيين:

يا ليت جور بني مروان دام لنا … وليت عدل بني العباس في النار

ومهما يكن الحال فالشيعة على أُصولهم في الخلافة الإسلامية مرتاحون من كل هذه الإعتبارات والتأويلات. لأنهم يقولون بعصمة الأوصياء والأنبياء، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وقد نص الرسول على الأئمة بعددهم وأسمائهم كما أُوحى إليه من ربه، ونص كل واحد منهم على إمامة من يليه.

فمن النصوص الخاصة على إمامته ما رواه الصدوق وغيره عن أبي هاشم الجعفري، قال: قلت لأبي محمد عليه السلام جلالتك تمنعني من مسألتك فتأذن لي أن أسألك.

فقال: سل. قلت: سيدي هل لك ولد؟ فقال: نعم، قال: فإن حدث بك حدث فأين أسأل عنه؟ قال: بالمدينة! وفي الكافي عن عمر الأهوازي، قال: أراني محمد ابنه وقال هذا صاحبكم بعدي.

وذكر الشيخ الطوسي في كتابه المسمى بالغيبة وعشرات الأحاديث

الصريحة بإمامته وتجد في غير الكتاب المذكور عدداً كبيراً من الروايات التي تنص على أن الإمام الثاني عشر هو محمد بن الحسن العسكري، وأنه المهدي الذي عنته أحاديث المهدي المنتشرة بين أحاديث السنة والشيعة.

وكما نصت الروايات عن النبي وأوصيائه الأحد عشرعلى إمامته بعد أبيه كذلك نصت على حياته الطويلة وخروجه في الظرف المناسب، ليميت الباطل ويحيي الحق، وتلك آية من آيات الله وقع نظيرها من قبل كما حكى سبحانه من أمر نوح وأنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولقد كذّب الله سبحانه اليهود فيما ادعوه من صلب المسيح، فقال: ﴿...وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ فموته لم يقع بمقتضى هذه الآية، ولم يقتل بمقتضى الآية السابقة. وقوله سبحانه ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ لا يراد من الوفاة هنا الموت وعلى تقديره فلا ظهورفيها على أنه وقع، فلعله سيقع فيما بعد ذلك، والعطف بالواو لا يفيد الترتيب. ولو أغمضنا النظر عن حياة عيسى، ففيما حكاه الله سبحانه من قصة نوح مع قومه خير شاهد على وقوع ما يخالف المألوف من حياة الإنسان. وليس في طبيعة الإنسان ما يمنع من طول حياته، وفي الأحاديث والتاريخ قصص للمعمرين ذكرها أكثر المؤرخين، وكأنها من الحقائق التي لا تفترضها شبهات.

منهم لقمان بن عاد وقد عاش ما يزيد على خمسماية سنة على أقل التقادير، وأدرك سبعة أنسر في حياته وعاش حتى أدرك آخرها (لبد) وفي المثل السائر (طال الأمد على لبد) وقال فيه الأعشى:

لنفسك إذ تختار سبعة أنسر ... إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
وقال لأدناهن إذ حل ريشه ... هلكت وأهلكت ابن عاد وما تدري

وذكر الرواة أن قيس بن ساعدة الأيادي عاش سبعمائة سنة وقيل أقل من ذلك وكثير غير هذين عاشوا بين الثلاثمائة والأربعمائة منهم عمر بن ربيعة بن كعب المعروف بالمستوغر.

قال أصحاب الأنساب أنه عاش ثلاثمائة وعشرين عاماً، وقاربت وفاته ظهور الإسلام. وهو القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة أتت من بعدها مائتان لي ... وازددت من عدد الشهور سنينا
هل قد بقي إلا كما قد فاتنا ... يوم يكرّ وليلة تحدونا

وينقل له التاريخ قصصاً كثيرة.

ومنهم زهير بن حبَّاب أو خبَّاب عاش مائتين وعشرين سنة وهو من الشعراء، ذكره المرتضى في أماليه. ومنهم ذو الأصبع العدواني وهو حرثان بن حرث، عاش ثلاثمائة، وقيل أقل من ذلك وهو القائل:

لا يبعدن عهد الشباب ... ولا لذاته ونباته النضر

ومنهم الربيع بن ضبع الفزاري، ولقد قال عن نفسه أنه عاش مائتين في فترة عيسى، وأكثر من مائة في الجاهلية، وقد أدرك عبد الملك ابن مروان وأنشده:

إذا عاش الفتى مائتين عاما ... فقد ذهب اللذاذة والفتاء

وقد دون له التاريخ حديثاً طويلاً مع عبد الملك يوم دخل عليه كما نص على ذلك أكثر المؤرخين.

ومنهم حنظلة بن الشرقي عاش مائتي سنة.

وهو القائل:

حنتني حانيات الدهر حتى ... كأني خاتل يدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رآني ... ولست مقيداً اني بقيد

ومنهم عبد المسيح بن بقيلة الغساني، عاش أكثر من ثلاثماية وخمسين عاماً، وذكر التاريخ غير هؤلاء، وحديث الدجال مثبت في صحاح اخواننا المسلمين، وللخضر أحاديث كثيرة تنص على حياته مشهورة بين المسلمين، وبعد هذا لا يبقى مجال للشك في أن الإنسان قد يعيش المئات من الأعوام، وإن كان ذلك شذوذاً بالنظر إلى غالب أفراد الإنسان.

والشيعة لا يقولون بأن حياته الطويلة على وفق المألوف من حياة البشر، وإنما يرون أن ذلك لأمر اقتضته مشيئة الله سبحانه واحتجابه لا يمنع من إمامته بعد أن كان لمصلحة تقتضيه، كما قد يحتجب النبي عن قومه خوفاً منهم على حياته وقد وقع ذلك لبعض الأنبياء كموسى ويونس ومحمد ﷺ ولا يتفاوت الحال في طول المدة وقصرها، فكما يكون الاحتجاب في مدة قصيرة لمصلحة تقتضيه، كذلك قد تقتضي المصلحة غيبة أكبر وأطول، والمسؤولية في ذلك تقع على عاتق الأمة التي اضطرته لهذا الاحتجاب، كما اضطرت آباءه من قبل للتستر في دعوتهم وعدم الإعلان بها في كثير من الأوقات. ولقد كانت الأمم السابقة تقتل الأنبياء وتشردهم، ولا يضر ذلك في نبوتهم وصدق دعوتهم.

ولا أُريد أن أتبسط في الموضوع فالمجال أوسع من ذلك، والشبهة حوله ليست وليدة العصر الحاضر، بل تساير حياته الشريفة، وعلماء الشيعة المنتشرون في أقطار الدنيا الواسعة ما زالوا يكتبون ويدفعون شبه أهل الباطل بالبراهين والأخبار الصحيحة من التاريخ الذي وجد فيه واحتجب عن الناس إلى يومنا هذا، ولو أردنا أن نحصي ما كتبه علماء الشيعة حول هذا الموضوع، لتجاوز العشرات من الكتب.

# عقيدة الشيعة
# في الأئمة الإثني عشر

إن الشيعة الإمامية يرون أن الإمامة بما لها من صلاحيات واسعة من الضرورات التي تقتضيها الحياة حفظاً للنظام، وتطبيقاً للعدالة الإجتماعية وقد كانت النبوة قبل أن تكون الإمامة، فكانت السلطة للدين، والأعمال تقاس بميزان العقيدة والإخلاص، وجاء القرآن الكريم يهدف إلى ذلك بجميع مواده وفصوله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يستمده النبي ﷺ من وحي السماء لا من تفكيره واختباراته.

وما ثبت للإمام من بعده هو عين ما كان للنبي، فلا بد وأن يكون عالماً بخفايا تلك الشريعة محيطاً بمحتويات ذلك النظام إحاطة كاملة لا عن طريق الاجتهاد الناشئ عن التفكير والاستنتاج لأن ذلك لا يمنع الخطأ في كثير من الأحيان.

أجل إن الإمام يجب أن تتوفر فيه أكمل الصفات والمواهب ولا ندعي له الإلهام وعلم الغيب، وإن جاز على أصحاب النفوس الصافية المجردة عن المادة أن يدركوا الواقع أحياناً، وإنما أقول أن الرئيس الثاني يأخذ العلم من الأول ولا نصيب لكليهما في أمر الغيب، لأنه من مختصاته

سبحانه، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. فالرسول لا يعلم إلا ما علمه إياه ربه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ولقد قال ﷺ مالي ولهم يسألوني عما لا أعلم، وإنما أنا عبد لا علم لي إلا ما علمني ربي، فلقد أودع فيه الله قوة كاملة تؤهله أن يكون أميناً على وحيه وحافظاً لأمانته، والإمام الذي يخلفه بعد أن ثبت أن أمر تعيينه لا يرجع إلى الأمة لا بد وأن يكون عنده من العلم والقدرة ما يؤهله للقيام بالمهمة التي ألقيت على عاتقه ويمكنه من أدائها ولا يكون ذلك عن طريق الوحي، لأنه من مختصات الأنبياء، فلا بد وأن يكون عن طريق تعليم النبي له، فالنبي الكريم بعد أن أُوحي إليه أمر المختار للإمامة أعده لهذه المهمة إعداداً كاملاً، وأفاض عليه مما أوحاه إليه ربه حتى ملك شعاب نفسه وجوانب روحه لينقطع العذر ويزول الريب من نفوس المرتابين، ولزمته ملكة العصمة التي تسيطر على جميع القوى الشريرة الموجودة في الإنسان ليمتنع عن ارتكاب الجرائم ويرتفع عن الوقوع في الخطأ، وبذلك يسهل التصديق به ويصبح بإمكانه أن يستظهر على جميع الصعاب، ويبلغ للناس عهد الله كاملاً لا نقصان فيه ولا زيادة.

فنسبة علم الغيب لغير الله تكذيب لنصوص القرآن ومخالفة لصريح آياته، والذي ندعيه وندين به هو أن النبي ﷺ علمه الله سبحانه بطريق الوحي تارة والإلهام اخرى ما يتعلق بأمور الدين، وشيئاً مما يتعلق بأمور الدنيا، ولقد قال ﷺ لا علم لي إلا ما علمني ربي. ولقد كان يسأل أحياناً عن بعض أسرار الكون فلا يجيب، وينتظر أمر الوحي فيما كان يُسأل عنه، وما عند الإمام من معلومات تتعلق بأمور الدين وبعض الشؤون الأخرى، كانت عن طريق النبي لا غير، فلقد كاشفه بعض الحوادث التي ستمر على الناس في مستقبل الزمان وأخبر عنها الإمام عليه السلام قبل وقوعها بعشرات السنين، كما أخبر بقتله وقتل ولديه وما جرى عليهما، وقيام الدولتين

الأموية والعباسية، وجرائم الحجاج الثقفي واخباره وعن التتر والزنج، وفي شرح النهج للمعتزلي فصول حول هذه المواضيع، وذكرها غيره من المؤرخين كاليعقوبي وغيره وهذا لا يعني أنه يعلم ما وراء المستقبل، وإنما هو عن طريق وحي الله إلى رسوله كما ذكرنا.

ولقد ورد في بعض الروايات أن الإمام الصادق وغيره كانوا يعرفون ضمائر بعض الأفراد ويخبرون بما في النفوس، والشيعة لا تمنع من ذلك، ولا تراه مستحيلاً، لجواز كونه عن طريق الفراسة وصفاء النفس، أو عن طريق الإلهام من الله سبحانه، وليس الإلهام من مختصات الأنبياء، فقد حكى القرآن الكريم ما كان من قصة أم موسى، لما اشتد فرعون في طلب الحوامل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وعلى جميع التقادير فليس ذلك من شروط التشيع، ولا من شروط القول بإمامتهم. قال المفيد في كتابه أوائل المقالات:

إن الأئمة من آل محمد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد، ويعرفون ما يكون قبل كونه.. وليس ذلك بواجب في صفاتهم، ولا شرط في إمامتهم، وإنما أكرمهم الله به وأعلمهم للطف في طاعتهم والتمسك بإمامتهم، وليس ذلك بواجب عقلاً، ولكنه وجب لهم من جهة السماع، وأما إطلاق القول عليهم بأنهم يعلمون الغيب فهو منكر بين الفساد، لأن الوصف بذلك إنما يستحقه من علم الأشياء بنفسه لا بعلم مستفاد، ولا يكون هذا لغير الله سبحانه.

وقال رشيد الدين محمد بن شهراشوب كما نقل عنه في التعليقة على الكتاب المذكور: النبي والأئمة يجب أن يعلموا علم الدين والشريعة، ولا يجب أن يعلموا الغيب، وما كان وما يكون، لأن ذلك يؤدي إلى أنهم

مشاركون للقديم تعالى في جميع معلوماته، إلى أن قال: ويجوز أن يعلموا الغائبات والكائنات الماضيات أو المستقبلات بإعلام الله تعالى لهم..

ومجمل القول أن الشيعة يقولون: أن الإمام يجب أن يكون أفضل أهل زمانه وأكملهم ويبرأون من كل من ينسب إلى أئمتهم أكثر من ذلك ويقفون عند المنزلة التي وضع الأئمة أنفسهم عندها، وحددها الإمام الرضا عليه السلام في دعائه: اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نعلمه في أنفسنا، اللهم لك الخلق، ومنك الأمر وإياك نعبد وإياك نستعين، اللهم أنت خالقنا وخالق آبائنا الأولين وآبائنا الآخرين، اللهم لا تليق الربوبية إلا بك ولا تصلح الإلهية إلا لك، اللهم نحن عبيدك وأبناء عبيدك، لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، اللهم إن من زعم أن لنا الخلق وعلينا الرزق فنحن إليك منه برءاء، اللهم إنا لم ندعهم إلى ما يزعمون فلا تؤاخذنا بما يقولون واغفر لنا ما يزعمون.

وفي منهج المقال عن عبد الرحمن بن كثير، قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام يوماً لأصحابه، لعن الله المغيرة بن سعيد، لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق، أن المغيرة كذب على أبي وأن قوماً كذبوا علي مالهم أذاقهم الله حر الحديد، فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا الله واصطفانا، ما نقدر على ضر ولا نفع، إن رحمنا فبرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا. لعن الله من قال فينا ما لم نقله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا، وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا.

وما رواه المفيد في إرشاده، والصدوق في الكافي، وغيره من رواة الحديث من أحاديث الجفر الكبير ومصحف فاطمة عليها السلام وغير ذلك، فلا تمنع منه الشيعة، ولا تقول بأنه من علم الغيب. فمن الجائز القريب أن

النبي ﷺ أملى على علي عليه السلام بعض ما نزل عليه من الوحي، مما يرجع إلى عالم التشريع وغيره من الحوادث، ودونها علي عليه السلام، وبقيت عند أبنائه في جملة ما ورثوه من العلم، ويؤيد ذلك ما ذكره المفيد في إرشاده عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام أنه قال: أما الجفر الأحمر فوعاء من أدم فيه سلاح رسول الله ولن يخرج حتى يقوم قائمنا أهل البيت وأما الجفر الأبيض فوعاء فيه توراة موسى، وانجيل عيسى، وزبور داود، وكتب الله الأولى. وأما مصحف فاطمة ففيه ما يكون من حوادث، وأما الجامعة فهي كتاب بإملاء رسول الله وخط علي عليه السلام، فيها والله ما يحتاج الناس إلى يوم القيامة من حلال وحرام، حتى أن فيها إرش الخدش والجلدة، فليس في شيء من الروايات الصحيحة ما يدل على أنهم يعلمون شيئاً عن غير طريق النبي ﷺ.

ومما لا شك فيه عند أكثر الرواة، أن النبي قال: أنا مدينة العلم وعلي بابها، وقال علي عليه السلام كما في كتب الحديث: علمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي في كل باب ألف باب. وكلامه صريح في أن ما أخبر به من الحوادث التي وقعت بعده بعشرات السنين إنما كان عن طريق الرسول الأعظم.

ومع ذلك فهذا النوع من العلم، لا تتوقف عليه إمامتهم، ولا يزيدهم فضلاً وشرفاً. ففي سيرتهم وحياتهم، ما يكفي لكونهم أفضل ما أنجبته الإنسانية وأنبل ما يمكن أن تبلغه إمكانيات المخلوق، لذا فإن من ينفي عنهم هذا النوع من العلم لا يخرج عن كونه إمامياً موالياً صحيح العمل والعقيدة ما دام لم يؤد نفيه إلى مخالفة الكتاب الكريم، أو تكذيب رواية معلومة الصدور عن النبي أو أحد خلفائه الطيبين وقد بحثنا هذا الموضوع مفصلاً في كتابنا دراسات في الكافي والبخاري بحثاً وافياً مفصلاً يقيناً عن إعادته في المقام.

# اليقين بأصول الإسلام

إن الشيعة يرون أنه لا بد من اليقين الجازم بأصول الدين والمذهب، والمراد بأصول الدين التوحيد، وما يتبعه من صفاته تعالى الثبوتية والسلبية، والنبوة وما يتعلق بها من العصمة وغيرها، والمعاد وما يتبعه من الثواب والعقاب والجنة والنار، وما كان من الأصول راجعاً للمذهب فهو الإمامة وتتبعها إمامة الإثني عشر. ولا بد من اليقين الجازم بهذه الأمور للآيات الكريمة الدالة على عدم كفاية الظن، وعدم جواز التعويل عليه مطلقاً في الأصول والفروع فمن ذلك قوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وغيرها من الآيات الكريمة. وهي بإطلاقها تدل على عدم جواز الاعتماد على الظن في إثبات الواقع في الفروع والأصول ولكن قام الدليل على جواز الاعتماد على الأدلة الظنية في الفروع فتبقى الآيات بالنسبة إلى الأصول على حالها، وحيث كان مفادها عدم جواز الاعتماد على الظن، فلا بد من اليقين الجازم الموجب لسكون النفس واطمئنانها، وينص الشهيد الثاني في رسالته حقائق الإيمان وغيرها من العلماء، على وجوب معرفة الله سبحانه وبقية الأصول بالنظر والدليل، وعدم الإكتفاء فيها بالتقليد، وخالف في ذلك جماعة من أعلام المسلمين فجوزوا التقليد في العقائد الأصولية.

ثم أن القائلين بوجوب المعرفة بالنظر، بين قائل بوجوبها بالعقل وآخر بكفاية الأدلة المؤدية إلى اليقين الجازم، وصريح كلام الشهيد الثاني وجوب المعرفة بالأدلة العقلية عند الإمامية والمعتزلة لأن شكر المنعم يتوقف على الاعتراف بنعمه والاعتراف بها يتوقف على معرفته ولا تحصل معرفته في الغالب بالطرق الظنية ولا بالتقليد لجواز الخطأ في الإمارات وكذب المخبر في اخباره، وقال العلامة في كتابه الحادي عشر:

أجمع العلماء على وجوب معرفة الله وصفاته الثبوتية، وما يصح عليه ويمتنع منه والنبوة والإمامة والمعاد بالدليل لا بالتقليد.

وقال العلامة الأنصاري في فرائد الأصول: وقد ذكر العلامة في الباب الحادي عشر، فيما يجب معرفته على كل مكلف من تفاصيل التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد، أموراً لا دليل على وجوبها، مدعياً أن الجاهل بها عن نظر واستدلال خارج عن ربقة الإيمان مستحق للعذاب، وهو في غاية الاشكال.

نعم يمكن أن يقال أن مقتضى عموم وجوب المعرفة مثل قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ليعرفون. وقول النبيﷺ ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلوات الخمس وكذا عمومات وجوب التفقه في الدين الشامل للمعارف، بقرينة استشهاد الإمام بها لوجوب النفر لمعرفة الإمام بعد موت الإمام السابق، وعمومات طلب العلم، فمقتضى جميع ذلك هو وجوب معرفة الله جل ذكره، ومعرفة ما جاء به النبي على كل قادر يتمكن من تحصيل العلم، فيجب الفحص حتى يحصل اليائس، فإن حصل العلم بشيء من هذه على وجهه وحقيقته اعتقد وتدين، وإلا توقف ولم يتدين بالظن. إلى أن قال: هذا حال وجوب المعرفة مستقلاً، وأما اعتبار ذلك شرطاً في الإسلام والإيمان فلا دليل عليه. بل تدل على خلافه الأخبار

الكثيرة المفسرة لمعنى الإسلام والإيمان. ففي رواية محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام المروية في الكافي أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وهو بمكة عشر سنين، فلم يمت بمكة أحد في تلك الفترة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا دخل الجنة بإقراره، ولم يعتبر في الإيمان أزيد من التوحيد والتصديق بالنبي وبكونه رسولاً صادقاً فيما بلغ، وليس المراد معرفة تفاصيل ذلك، وإلا لزم أن تكون حقيقة الإيمان بعد انتشار الشريعة غيره في صدر الإسلام لأن النبي صلى الله عليه وآله كان يكتفي بالاعتقاد الإجمالي من أكثر الناس ويرتب عليهم آثار الإسلام والإيمان.

وهناك روايات كثيرة تدل على أن الإسلام والإيمان هما الإقرار والاعتقاد بهذه الأصول، من غير تعرض فيها إلى ناحية الدليل، كصحيحة ابن اليسع قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أخبرني من دعائم الإسلام التي لا يسع أحداً التقصير في معرفة شيء منها، ومن قصر عن معرفة شيء منها فسد عليه دينه ولم يقبل منه عمله، ومن عرفها وعمل بها صلح دينه وقبل عمله فقال عليه السلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان بأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحق في الأموال، والولاية التي أمر الله بها وهي ولاية آل محمد صلى الله عليه وآله وقال الشيخ الأنصاري بعد أن بنى على اعتبار الجزم والتصديق في الأصول: وكيف كان فالأقوى كفاية الجزم الحاصل من التقليد لعدم الدليل على اعتبار الزائد على المعرفة والتصديق والاعتقاد، وتقييدها بطريق خاص لا دليل عليه، مع أن الإنصاف أن النظر والاستدلال بالبراهين العقلية للشخص المتفطن لوجوب النظر في الأصول لا يفيد بنفسه الجزم لكثرة الشبه الحادثة في النفس والمدونة في الكتب ويمكن أن يقال أن المراد من الاعتقاد الحاصل على الدليل هو الدليل الإجمالي نظير استدلال الإعرابي، البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام على المسير، وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا يدلان على اللطيف الخبير، وهذا المقدار من

الدليل ميسور لدى أغلب الناس بمجرد الانتباه والالتفات ولذا كان الإسلام مقبولاً بمجرد الإقرار الكاشف عن الاعتقاد، وأما الاستدلال التفصيلي فلا يتسنى إلا للقليل من الناس ولازم اعتباره نفي الإيمان عن أكثر المسلمين، ولا يمكن الالتزام بذلك فلا بد من القول بكفاية الجزم الحاصل من التقليد فيما يتعذر حصوله من الدليل التفصيلي بالنظر لنوع الإنسان.

# أدلة الأحكام
# عند الشيعة الإمامية

يرجع الشيعة الإمامية في أُصول الدين وفروعه وجميع أحكام الدين إلى الأدلة الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل. وكل واقعة من الوقائع النظرية لا يخلو الوقوف على حكمها من أحد هذه الأدلة الأربعة التالية.

# الكتاب

المرجع الأول هو الكتاب الكريم. والشيعة من أشد الناس تمسكاً فيه، ومحافظة عليه، والتزاماً بنظمه وقوانينه وتشريعاته، وعليه يعتمدون في دفع شبه المبطلين والملحدين، ويرونه المقياس الصحيح للحق والهداية، ومعجزة النبي ﷺ الخالدة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا تحريف فيه ولا تبديل فهو كما نزل على النبي ﷺ، قد أعجز الفصحاء والبلغاء في أسلوبه ونظمه، وأخباره عما كان وسيكون من حوادث الأمم ومعتقداتها، وأحوال الأنبياء وما جرى لهم في أيامهم. وقص علينا قصصاً لولاه لما كان لها وجود في تاريخ الأمم، وتناول الكثير مما يرجع إلى عالم التشريع في المواريث والوصايا والمعاملات والعبادات والصدقات وغيرها، فأحصيت آيات الأحكام فيه بما يبلغ خمسماية آية، وألف علماء الشيعة الإمامية كتباً في آيات الأحكام منهم الجزائري والمقدادي وغيرهما، والكتب التي تعنى بهذا الموضوع تحمل اسم آيات الأحكام.

والمهم الآن هو أن القرآن، هو المرجع الأول في أحكام الدين أصولاً وفروعاً وفي كل واقعة يعرض الاشتباه في حكمها وقد أمر النبي ﷺ كما في الحديث المشهور المتفق عليه بين جميع المسلمين بالرجوع إليه، «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي». وفي الوافي عن أبي عبد

الله الصادق عليه السلام أنه قال: القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة، ورشاد من الغواية، وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة، وفيه كمال دينكم، وما عدل أحد عن القرآن إلا إلى النار، وفي الوافي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معاشر قراء القرآن اتقوا الله تعالى فيما حملكم من كتابه، فإني مسؤول وإنكم مسؤولون، إني مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأما أنتم فتسألون عما حملتم من كتاب الله وسنتي، وفي القرآن العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ

فالعام والخاص فيه مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وقوله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ وأمثالها. والمجمل هو الكلام الذي ليس له ظاهر، بنحو يكون بحسب متفاهم العرف قالباً لمعنى خاص ليس له ظهور فيه والمبين على خلافه، ومن ذلك قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾والإجمال في الآية إما لأن اليد تستعمل في الأنامل والأصابع ونفس الكف، وأما الأن تعليق القطع باليد لا ظهور له في محل القطع، نظير قول القائل قطعت الحبل، من حيث عدم ظهوره في محل القطع.

ومنه قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، و﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ حيث يمتنع تعلقها بالأعيان فلا بد من تقدير محل صالح لذلك، والصالح لذلك متعدد وليس بعضه معيناً من اللفظ بدون قرينة تدل عليه. وأما المحكم والمتشابه، فقد ذكر في مجمع البيان لهما معان متعددة، منها أن المحكم، ما علم المراد من ظاهره من غيره قرينة تقترن به نحو قوله أن الله لا يظلم الناس شيئاً، ولا يظلم مثقال ذرة، والمتشابه ما لم يعلم المراد من ظاهره حتى يقترن به ما يدل على المراد منه نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فهو بحسب المعنى اللغوي محتمل لأن يكون كاستواء الجالس على السرير، وأن يكون بمعنى التسلط والاستيلاء، فكل من المعنيين يمكن دلالة اللفظ عليه، ولكن الأول منهما ليس بمراد قطعاً، لأنه يؤدي لما لا يجوز عليه سبحانه، فيتعين الثاني ولكن ليس من ظاهر اللفظ.

وأما النسخ فيدل على أصل وقوعه قوله في سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي نؤخرها، فلا ننزلها وننزل بدلاً منها مما يقوم مقامها في المصلحة، وذكر هذا المعنى في مجمع البيان في جملة ما ذكره من معاني هذه الكلمة، وهو موافق لما ذكره أهل اللغة في المراد من قول العرب: نسأت الناقة أي تأخرت في المرعى حتى سمنت، ويدل عليه أيضاً أن التكليف الشرعي تابع للمصلحة في الفعل المكلف به، ولولاها لما أوجبه الشارع، فمن الإيجاب الشرعي نستكشف وجود المصلحة في الفعل وإذا كان وجوب الأفعال لأجل المصالح القائمة بها، فكما يجوز أن تكون المصلحة مستمرة لا تتفاوت بحسب الأزمنة كذلك يمكن أن تكون المصلحة في وقت دون آخر. أو يكون في المماثل مصلحة أقوى منها ولا يلزم من ذلك البداء المستلزم لجهل الأمر تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وذلك لعدم كون النسخ راجعاً إلى تغيير إرادته أو ظهور ما كان قد خفي عليه، بل معناه أن المصلحة الداعية إلى التشريع كانت إلى زمان وجود الحكم المماثل، فلا يكون دليل الناسخ رافعاً لدليل المنسوخ بل يفيد إثبات حكم جديد في محل قد انتهى أمد الحكم الأول فيه لانتهاء مصلحته، ومهما يكن الحال فلا خلاف في جواز نسخ الكتاب بالكتاب، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومفاد هذه الآية كما في مجمع البيان وغيره وجوب الإيصاء للأزواج بما ينتفعن به حولاً كاملاً

من النفقة والكسوة والسكن قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام كان الرجل إذا مات أنفق على امرأته من صلب المال حولاً، ثم خرجت بلا ميراث.

وقد نسخت هذه الآية بقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾. فالآية الأولى نسخت الاعتداد حولاً بالاعتداد أربعة أشهر وعشراً، والآية الثانية نسخت عدم استحقاقها للميراث بعد الحول، ومنها آية تغيير القبلة إلى المسجد الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس، ومنها قوله سبحانه: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ فامتنع المسلمون عن مناجاته غير علي عليه السلام فتصدق وناجاه، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾.

فالنسخ واقع بلا شبهة في ذلك ولست الآن بصدد التوسع في هذا الموضوع، وإنما المهم في المقام هو التنبيه على أن المرجع الأول في استنباط الأحكام هو الكتاب الكريم، وليس لكل أحد أن يرجع إليه في الأحكام وإنما يرجع إليه من درس اللغة العربية وعلم الأصول والفقه والحديث ووقف على أسباب النزول ومعاني الألفاظ وما يتبع ذلك من معرفة اللغة ومشتقاتها.

# السنَّة

المصدر الثاني من المصادر التي يستمدون منها أحكام الله الأحاديث المروية عن النبي وأئمة المسلمين من بعده، وعليها يعتمدون في جميع أبواب الفقه الإسلامي وأصوله بعد القرآن الكريم.

وقد عنوا بها العناية الكاملة للتنقيب عن الأحاديث التي تركن إليها النفس ودونوا الحديث في كتبهم وأشهر الكتب التي أعدت لتدوين الحديث الكتب الأربعة: الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني، ومن لا يحضره الفقيه لمحمد بن بابويه الصدوق، وكتابي التهذيب والاستبصار لمحمد بن الحسن الطوسي، والوافي لمحسن الفيض، والوسائل للحر العاملي وألفوا كتباً غيرها تشتمل على أسماء الرواة كل باسمه وصفاته وسيرته، وعلى القواعد والأسس التي يمكن التوصل بها إلى معرفة الأحاديث الصحيحة وتمييزها عن غيرها وقسموا الحديث إلى أقسام أربعة أو أكثر، ووضعوا أصول علمي الدراية والرجال وألفوا فيهما عشرات الكتب لتصفية الحديث وبيان ما يجوز الاعتماد عليه وما لا يجوز. والكتب التي تناولت هذه المواضيع توجد في جميع المكتبات الإسلامية في إيران والعراق وغيرهما من الأقطار. وتلك الجهود الجبارة التي قام بها فريق من علماء الطائفة الشيعية، كانت من النتائج الطبيعية للظروف القاسية التي اجتاحت الشيعة في عهد الدولتين

الأموية والعباسية وكانت من أقسى الأدوار التي مرت في تاريخ الطوائف الإسلامية ونتج عنها آلاف الأحاديث المكذوبة على أهل البيت، وأول من غرس نواتها معاوية بن أبي سفيان يوم صالح الحسن بن علي عليه السلام على شروط لم يف له بشيء منها، وانصرف بعد ذلك بكل اتجاهاته يغذي تلك النواة بالاضطهاد والعسف والجور والمطاردة حتى ضيق على الشيعة الخناق، وسد عليهم منافذ الحياة إلى كثير من الوسائل التي استعملها في محاربة الشيعة، حتى بلغ الأمر أن أصبحت نسبة التشيع لعلي جريمة تجر من ورائها ألواناً من العذاب وأصبح الرجل يتمنى أن ينسب للكفر والزندقة ولا ينسب للتشيع لعلي وأبنائه عليهم السلام. وفي شرح النهج كتب معاوية نسخة واحدة بعد عام الجماعة، أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقام الخطباء، في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً عليه السلام ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أهل الكوفة من أشد الناس بلاء يومئذ لكثرة من فيها من الشيعة، وقد استعمل عليها زياد بن سمية وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل، وشردهم عن العراق، فلم يبق فيها معروف منهم، وكتب معاوية إلى جميع عماله في جميع الآفاق، أن لا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة. ثم كتب نسخة إلى جميع عماله قال فيها انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، الذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا بكل ما يروي رجل منهم باسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك، حتى أكثر المرتزقة في فضائل عثمان.

ولما كثر ذلك كتب إلى عماله يأمرهم أن يحملوا الناس على الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ليكون له ولأبيه وأقاربه نصيب من ذلك، لأنهم عاصروا النبي مع من أدركوه وعاصروه، ثم أمر عماله أن لا

يتركوا منقبة يرويها أحد في فضل أبي تراب إلا ويأتوا بناقض لها في الصحابة ومشى على منهاجه من جاء بعده من الخلفاء الأمويين طيلة حكمهم.

فهيأت هذه الفرصة مجالاً واسعاً لعدد غير قليل من الزنادقة والمنافقين من أهل الأطماع والمنافع، الذين كانوا يتمرغون على أعتاب قصر الحمراء وغيره من قصور الخلفاء التي كانت تعج بالظلم والفساد والمنكرات لوضع الحديث والكذب على الرسولﷺ. ولقد روى أبو هريرة عنه أكثر من ستة آلاف حديث مع أنه أسلم قبل وفاة الرسول بثلاث سنين، وغيره من الصحابة الذين صحبوا الرسول طيلة حياته ولم يرووا عنه نصف هذا العدد، وليس من البعيد أن يكون قد نتج من هذا الاتجاه المعاكس لأهل البيت من يضع الأحاديث عن الأئمة عليهم السلام في الطعن على الخلفاء والصحابة وفي المناقب والفضائل ثم جاء عهد العباسيين أشبه ما يكون بعهد من مضى فأنسى الشيعة ما لاقوه في العصر الأموي المرهق بجميع أنواع الظلم والأذى والطغيان ووضع الحديث الذي يحط من شأن علي وبنيه عليهم السلام ولقد كثر الدس والافتراء في عهد المنصور العباسي يوم انطلق الإمام الصادق وأبوه الباقر عليهما السلام ينشران أحكام الإسلام وتعاليمه وفي الوقت ذاته كان آلاف الرواة ممن أخذوا عنهما يروون أحاديثهما في مختلف المواضيع، فثقل ذلك على المنصور وأعوانه، واتجه إلى مكافحة هذا النشاط بالتشويش على أهل البيت بما لا يتفق مع أُصول الإسلام ومبادئه وسخر فئة من المأجورين كعبد الكريم بن أبي العوجا، والمغيرة بن سعيد وأمثالهما.

وجاء عن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله الصادقعليه السلام يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا إذا وافق القرآن والسنة أو كان معه شاهد من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله، قد دس في كتب أصحاب أبي

أحاديث كثيرة لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا، وفي منهج المال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا عند الناس يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا. ثم ذكر المغيرة وبزيغ الحائك والسري وأباالخطاب ومعمر وبشار الأشعري وحمزة اليزيدي وصائد النهدي، وقال لعنهم الله أجمع وكفانا مؤونة كل كذاب، والأحاديث عن الصادقين حول هذه الفرقة الضالة المستأجرة من الدساسين تنص على أنهم خلفوا مجموعة من الأحاديث أضافوها إلى التراث الإسلامي النبوي ليخلطوا الحق بالباطل والصحيح بالفاسد، لذا فإن علماء الطائفة بذلوا قسماً من إمكاناتهم فصنفوا الحديث، ووضعوا الكتب في علمي الرجال والدراية، لتمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها. ثم قسموا الحديث إلى متواتر وآحاد، ويعنون بالمتواتر أن ينقله جماعة بلغوا من الكثرة حداً يمنع من اتفاقهم على الكذب، ولا إشكال عندهم بحجية هذا النوع من الأخبار، والآحاد هو الذي لا ينتهي إلى حد التواتر سواء كان الراوي واحداً أو أكثر. وقد اتفق الأكثر على جواز العمل بأخبار الآحاد في الأحكام واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة، ذكرها الشيخ الأنصاري في فرائد الأصول وذكرها غيره ممن تقدم عليه وتأخر عنه. وهذا النوع من المرويات حسب التصنيف الآخر للأحاديث على أربعة أصناف صحيح وحسن وموثق وضعيف، فإن كان رواته إماميين ممدوحين بالوثاقة سموه صحيحاً، وإن كانوا إماميين ممدوحين ولكن لم يعرفوا بالوثاقة أو كان الممدوح بعضهم مع توثيق الباقي سموه حسناً.

وإن كانوا كلاً أو بعضاً غير إماميين وكانوا معروفين بالوثاقة سموه موثقاً، وما عدا ذلك فهو من نوع الضعيف الذي لا يجوز الاعتماد عليه إلا إذا اقترن ببعض القرائن التي تؤكد صدوره عن المعصوم والأنواع الثلاثة

كلها تشترك في جواز العمل بها، وإن كان بعضها أعلى من بعض، ويقدم على غيره في مقام التعارض. وذكر في الوافي أن هذا الإصطلاح حدث في زمان العلامة الحلي، وتبعه عليه جمع ممن تأخر عنه، ولم يكن معروفاً عند المتقدمين: وإنما المتعارف عندهم إطلاق الصحيح على كل حديث اعتضد بما يقتضي الاعتماد عليه، واقترن بما يوجب الوثوق به والركون إليه، كوجوده في الأصول الأربعمائة المشهورة بينهم المنقولة عن مشايخهم بطرقهم المتصلة بأصحاب العصمة، أو وجوده في أصل معروف الإنتساب إلى أحد الجماعة الذين أجمعوا على تصديقهم، كزرارة ومحمد بن مسلم، والفضيل بن يسار، أو وجوده في أصل من الأصول المنسوبة إلى أحد الجماعة الذين أجمعوا على تصحيح ما يصح عنهم كصفوان بن يحيى، ويونس بن عبد الرحمن وغيرهما، أو يكون مأخوذاً من أحد الكتب التي شاع بين سلفهم الوثوق بها والاعتماد عليها، سواء كان مؤلفها من الإمامية ككتاب الصلاة لحريز بن عبد الله، وكتب بني سعيد، وعلي بن مهزيار أو من غير الإمامية ككتاب حفص بن غياث القاضي والحسين بن عبد الله السعدي وغيرهما، وقال الصدوق في كتاب الفقيه: إن كل ما أذكره في هذا الكتاب هو ما أُفتي فيه وأحكم بصحته، وأعتقد أنه الحجة فيما بيني وبين ربي تقدس ذكره وما يرويه في كتابه المذكور فيه الإمامي وغيره، وفي الوافي قال: وسلك على هذا المنوال كثير من علماء الرجال فحكموا بصحة حديث بعض الرواة كعلي بن رياح مع أنه من غير الإماميين. والمقصود من هذا التبسيط هو رد عدوان بعض الكتاب القائلين بأن الشيعة لا يعملون بأخبار إخوانهم أهل السنة ويلصقون بهم عيوب تلك الفرق البائدة الضالة وفي الوقت ذاته يدعون أنهم يتجردون في دراستهم لخدمة الحق والواقع ويتحررون عن النزعات القديمة. قال الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه الديموقراطية: والشيعة في إيران والعراق لا يعترفون بالسنة، وأحاديث الرسول التي يرويها

وينقلها أئمة أهل السنة، مع أن هذا التراث الهائل يمثل المذكرة التفسير لمبهم القرآن ومجمله.

إن من يكتب عن الشيعة وينسب إليهم هذه الأراجيف لا عذر له في زماننا هذا، وقد ملأت كتب الشيعة الدنيا الواسعة، ومكاتب العالم مشحونة بكتبهم، نعم إن هؤلاء يكتبون بما ورثوه عن تلك العصور المظلمة التي تسابق فيها المرجفون إلى الدس والتشويش عن الشيعة تلبية لرغبات الحكام والمستغلين.

# الإجماع

المصدر الثالث: إن الإجماع الذي يرجع إليه الشيعة، عند عدم وجود الدليل المعتبر من كتاب أو سنة، هو إجماع العلماء في عصر واحد أو عصور متعددة بحيث يكشف عن دخول المعصوم في المجمعين ولا يضر في ذلك وجود المخالف إذا كان معلوم النسب أما إذا كان مجهولاً نستثقي فائدة الإجتماع لاحتمال كون المخالف هو الإمام عليه السلام، إذ لا يوجد عصر يخلو من الإمام المعصوم ومدعي الإجماع يكون حاكياً لقول المعصوم بلا واسطة، فالدليل الدال على حجية خبر الواحد، يدل على حجية الإجماع، كما هو ظاهر الأكثر.

وخالف بذلك الشيخ الأنصاري في فرائده، مدعياً أن الأدلة على حجية أخبار الآحاد إنما تدل على حجيتها عن حسن، باعتبار أن الراوي ينقل ما سمعه من الإمام عليه السلام والإجماع ليس كذلك ولا يهمنا أن تتوسع في هذه الناحية، وإنما المقصود هو أن الإجماع لا دليل على اعتباره دليلاً في الأحكام الشرعية إذا لم يكن كاشفاً عن رأي المعصوم وعلى هذا تنحصر فائدة الإجماع فيما إذا لم يتعين قول الإمام كما يتفق ذلك في أكثر الأوقات وبخاصة في زمن الغيبة ولو فرض أن علمنا بقول المعصوم بعينه بين المجمعين فلا تبقى للإجماع فائدة، ومهمايكن الحال فإن الشرط في حجية

الإجماع كون المعصوم إحدى المجمعين، ولا يضر خروج الواحد والإثنين والأكثر إذا عرفوا بأسمائهم ونسبهم، للعلم ببقاء الإمام مع الباقين، بل لو كان الإمام أحد ثلاثة ولم يعرف بعينه كان قولهم حجة بالغاً المخالف ما بلغ، قال العلامة:

وكل جماعة قلت أو كثرت، وكان قول الإمام في جملة أقوالها فإجماعها حجة لأجله لا لأجل الإجماع فيكون المدعي للإجماع يحكي قول الإمام بلا واسطة.

والعلم بدخول الإمام مع المجمعين، إما أن يكون عن طريق الحس كما إذا سمع قول الإمام في جملة جماعة لا يعرف أعيانهم، فيعلم بقول الإمام وإن لم يعرفه بعينه، وإما أن يكون لقاعدة اللطف كما يذهب إلى ذلك الشيخ الطوسي، قال: إذا كان على القول الذي انفرد به الإمام دليل في كتاب أو سنة، فلا يجب إظهار قوله لإمكان معرفته عن طريق الدليل، وإلا وجب عليه إظهار من يبين الحق في تلك المسألة لأن وظيفته ذلك ولأن وجود الإمام لطف من الله سبحانه بعباده ليدلهم على ما يقربهم من مرضاته، وقد يكون انكشاف قول الإمام لمدعي الإجماع عن طريق الحدس وهذا قد يكون منشؤه إخبار جماعة اتفق له العلم بعد اجتماعهم على الخطأ بحيث لو حصل لغيره كما حصل له، لعلم بالمطابقة لقول الإمام وقد يكون منشؤه اجتهاد المخبر خاصة بأن يكون قد اعتمد على أصل أو قاعدة أو رأي بعض من يحسن بهم الظن بفنون فاعتقد بأن الكل يقولون بمقالتهم فادعى الإجماع. وهذا النوع لا إشكال بعدم حجيته، لأنه بني على الحدس وهو لا يغني عن الحق شيئاً، ولا يكشف عن الإجماع الكاشف عن رأي المعصوم عليه السلام والذي استند إليه الطوسي لا يثبت دخول الإمام مع المجمعين وصريح كلام المرتضى أن ذلك ليس بواجب عن الإمام بعد أن كانت الأمة هي السبب في احتجابه.

وناقل الإجماع إذا استند إلى مبادئ محسوسة توجب له العلم بموافقة قول الإمام من غير أن يستلزم ذلك بحسب العادة، لا يخرج في هذه الحالة عن كونه حدساً لا تشمله أدلة الأخبار، والأحكام لا تصاب بالحدس، نعم إذا تيسر لمدعي الإجماع الإطلاع على أقوال جميع العلماء في عصر من العصور، يحصل الاطمئنان بدخول الإمام معهم إذا لم يكن مخالفاً في المسألة أو كان، ولكن كان معلوم النسب، ومهما يكن الحال فمدرك الإجماع عند الشيعة هو قول المعصوم الداخل مع المجمعين.

وأما الإجماع عند أهل السنة فهو أصل من الأصول الشرعية قائم بنفسه، واستدلوا عليه بحديث: «من فارق القاعة، وخرج عن الجماعة مات ميتة جاهلية» ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تجتمع أمتي على ضلال» وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ وقول النبي ﷺ يد الله مع الجماعة. وغير ذلك كما حكاه الشيخ في كتاب العدة وغيره من المؤلفين في هذه المواضيع، واستدلوا بالإجماع على شريعة خلافة أبي بكر، وأكثر القائلين بحجيته عندهم بين من يخصه بإجماع الصحابة، وبين من يشترط اتفاق أهل المدينة، فلا بد من اتفاق الكل بالرأي ليتحقق الإجماع ومن ذلك تبين أن الإجماع الذي استدلوا به على خلافة أبي بكر لم تتوافر فيه الشروط المطلوبة بالإجماع لأن جماعة من أعيان المسلمين منهم العباس بن عبد المطلب والزبير بن العوام وغيرهما كانوا إلى جانب علي عليه السلام ومع هذا الخلاف المفروض لا تكون مسألة الخلاف مشمولة، لأدلة الإجماع المصطلح عندهم.

# العقل

المصدر الرابع: والمراد من دليل العقل الأُصول الأربعة: البراءة والاحتياط والتخيير والاستصحاب. وهذه الأصول على اختلاف مواردها إنما يصح الاعتماد عليه والعمل بهما عند الجهل بالواقع، وعدم وجود الدليل من الكتاب والسنة وعدم توافر أركان الإجماع على حكم الواقعة المشكوك حكمها فيكون الموضوع لهذه الأُصول هو الشك في الحكم الواقعي الناتج من عدم وجود الدليل على الحكم، فإن لاحظنا الحالة السابقة، على زمان الشك جرى الاستصحاب، وإن لم نلاحظ الحالة السابقة، وكان التكليف معلوماً بنوعه أو جنسه، فإن أمكن الاحتياط كان المتعين، وإن لم يكن جرت أصالة التخيير، وإن لم يكن التكليف معلوماً وشك في حكم الواقعة كان أصل البراءة.

أما الأُصول الثلاثة: البراءة والتخيير والاحتياط، فلا شبهة في كونها من الاصول العقلية.

ذلك لأن البراءة إنما تجري في ظرف الشك في التكليف، الناتج عن عدم البيان الواصل إلى المكلف، بعد الفحص في مظان وجوده. وفي هذه الحالة يحكم العقل بقبح العقاب قبل أن يصل دليل التكليف بالمشكوك،

وموضوع الاحتياط هو الشك في المكلف به بعد العلم بالتكليف، وتردد المكلف به بين أمرين أو أُمور، يتمكن من الإتيان بها، فالعقل في هذه الحالة يحكم بوجوب الإتيان بها امتثالاً لأمر المولى.

ومورد التخيير هو تردد المأمورية بين أمرين لا أهمية لأحدهما على الآخر في ظرف عدم التمكن من إتيانهما معاً فيدور الأمر بين تركهما معاً أو الإتيان بأحدهما مخيراً. والثاني هو المتعين بنظر العقل ارتكاباً لأقل المحذورين، وفراراً من أعظم الخطرين.

أما الاستصحاب وهو الأخذ بالحالة السابقة والبناء على ما كان بالأمس إلى زمان الشك فليس من الأصول العقلية بل يدور أمره بين أن يكون أصلاً تعبدياً إن كان المدرك فيه الأخبار كقوله عليه السلام لا تنقض اليقين بالشك وقوله: إذا شككت فابني على اليقين إلى غير ذلك من المرويات التي تعرضت لهذا الأصل، وبين أن يكون إمارة تفيد الظن بالواقع إذا كان مدركه بناء العقلاء، الراجع إلى أن العقلاء بفطرتهم يلتزمون ببقاء المتيقن السابق إلى زمان الشك إلى أن يحصل العلم بزواله، ويجوز أن نسميه عقلياً بهذه الملاحظة.

وإذا وجد الدليل المعتبر على حكم الواقعة المشكوكة يمتنع جريان هذه الاصول لأن الشك بالواقع أخذ في موضوعها، ومع وجود الدليل يرتفع الشك تعبداً فلا يبقى موضوع للاصول المذكورة. والحكم المستفاد من أحد هذه الأُصول يسمى حكماً ظاهرياً، وقد يسمى بالواقعي الثانوي بلحاظ الحكم الواقعي المشكوك ولا يلزم اجتماع الحكمين المتضادين على تقدير مخالفة الحكم المستفاد من الأصل للحكم الواقعي المجعول للواقعة المشكوك حكمها، إما لاختلاف الرتبة بينهما ووحدتها من جملة الوحدات الثمانية التي يتوقف عليها التضاد، أو لأن المجعول في بعضها

كالإستصحاب هو البناء العملي على أن المؤدي هو الواقع. فإن صادف الواقع لم يكن غيره وإلا كان الجري العملي واقعاً في غير محله، وفي بعضها الآخر كالاحتياط إنما يجب في مورده للمحافظة على الواقع فيشبه الوجوب الغيري من هذه الناحية والمسألة محررة تحريراً واسعاً في كتب الإمامية التي تبحث عن هذه الأُصول الأربعة ويجد الباحث فيها مادة من أخصب المواد وأعظمها نفعاً وأوثقها صلة بالفقه الإسلامي وقد جاءت هذه نتيجة لفتح باب الإجتهاد على مصراعيه، الذي أضاف إلى الثروة الإسلامية ثروة أُخرى أنتجها الفكر الشيعي. وعند الشيعة أُصول أُخرى غير هذه الأربعة يعتمدون عليها في فقههم كقاعدة الفراغ والتجاوز وأصالة الصحة، وقاعدة اليد، والولد للفراش، وغير ذلك مما هو موجود في كتبهم الفقهية والأصولية التي تتجاوز أرقامها المئات.

وتسمى الأُصول والقواعد عندهم بالأدلة الاجتهادية، ولا يرجع إليها الفقيه إلا بعد بذل الجهد في نصوص الكتاب والسنة والتثبت من أدلتها ومواردها ومقدار عمومها، إلى غير ذلك مما هو مدون في المجاميع الفقهية والأصولية.

# موقف الشيعة من القياس

بعد أن اتسعت رقعة الإسلام وانتقل المسلمون من حياتهم البدائية المحدودة من جميع نواحيها إلى المرحلة الثانية من حياتهم التي استقبلوا فيها حضارة الفرس والرومان وتفتحت لها قلوبهم وعقولهم وجدوا أنفسهم في وضع يختلف أشد الاختلاف عما كانوا عليه، ودعتهم الحاجة إلى التعرف على أحكام تلك الحوادث المتجددة، فوجد الفقهاء أنفسهم مضطرين إلى الفحص والبحث في الكتاب والسنة، ولكن الكتاب لم يستوعب جميع الأحكام لأنه في بعض الأحيان يضع المبادئ والقواعد ويترك التفاصيل للنبي ﷺ. والمرويات عن الرسول لم تتوافر شروط الأخذ بها والاعتماد عليها لجميع الفقهاء وبخاصة العراقيين منهم لبعض الملابسات والاعتبارات فرجعوا إلى اجتهاداتهم، وكان من نتائجه الأصول الثلاثة: الاستحسان. والاستصلاح، والقياس.

أما الاستحسان فهو من أُصول التشريع عند الاحناف والمالكية والحنابلة، ووقف منها الشوافع موقفاً سلبياً، وجاء عن الشافعي أنه قال: من استحسن فقد شرع.

وعرفه أبو الحسن الكرخي، بأنه هو العدول عن الحكم في المسألة بمثل ما حكم به في نظائرها لوجه يقتضي العدول عن الحكم الأول سواء

كان الحكم المعدول عنه ثابتاً بعموم أو دليل خاص أو قياس أو غير ذلك من أدلة الأحكام.

الاستصلاح وهو من أدلة الأحكام عند المالكية والحنابلة ولم يأخذ به الشوافع والأحناف، وجاء عنهم أنهم قالوا من استصلح فقد شرع، وهو عبارة عن الحكم في مسألة لا حكم فيها لمصلحة يهتدي إليها المجتهد برأيه.

أما القياس فقد اشتهر به الأحناف وغالوا في استعماله حتى كاد الحديث أن يكون مهجوراً بينهم، وأخذ به الفقهاء الثلاثة ولكنه عند الحنابلة من أضعف الأدلة، وعرفه بعضهم بأنه إثبات مثل حكم الأصل في الفرع لعلة جامعة بينهما، واستدلوا على ذلك بأمور كثيرة منها أن العلة الموجودة في الأصل هي التي أوجبت تعلق الحكم به، وهي بعينها موجودة في الفرع فيجب أن يثبت له مثل ذلك الحكم، هذا بالإضافة إلى الوثيقة التي كتبها عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري اعرف الأشياء والنظائر وقس الأمور بعضها ببعض، وبما جاء عن بعض الصحابة مما يشير إلى جواز الاعتماد عليه عند الحاجة.

ووقف الشيعة منه موقفاً سلبياً حتى أصبح ذلك معروفاً من مذهبهم لأن القرآن الكريم قد منع من الاعتماد على الظن. والقياس لا يفيد أكثر من ذلك. وقال الشيخ الطوسي في كتابه «العدة» لقد جاء عن علي عليه السلام أنه قال: لو كان الدين يؤخذ بالقياس لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره.

وعن أبي بكر أنه قال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله برأيي. وعن عمر بن الخطاب إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء للسنن، لقد أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا. وقال: إياكم والمكايلة. قيل له وما هي؟ قال المقايسة: ونقل في

العدة عن جمع من الصحابة النهي عن استعمال القياس. وروايات أهل البيت صريحة في حرمة العمل به. منها ما ذكره في الوافي عن أبان بن تغلب عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: السنة لا تقاس، ألا ترى أن المرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها، يا أبان! إن السنة إذا قيست محق الدين. وفي الوافي عن أبي الحسن موسى عليه السلام أنه قال: ما لكم والقياس إن الله لا يسأل كيف أحل وكيف حرم. وعن الصادق عليه السلام: أن أصحاب المقاييس لم تزدهم المقاييس إلا بعداً عن الحق وإن دين الله لا يصاب بالقياس.

والشيعة قد يعتمدون على العلة المنصوصة أحياناً، ويلحقون غير المنصوص عليه بالمنصوص، إذا اقترن بالعلة على شرط أن تكون علة للحكم. كما إذا ورد لا تشرب الخمر لأنه مسكر، فيثبتون الحرمة لكل مسكر، ولكن ذلك ليس من باب القياس وإنما هو لأن موضوع الحرمة في واقع الأمر هو المسكر، فتكون كسائر القضايا الحقيقية التي يتعلق فيها الحكم على الموجود، وما يفرض وجوده، فكل ما فرض وجوده وكان مسكراً يحرم شربه، وبهذا تمتاز علل الأحكام على حكمة التشريع التي لا يلزم من تخلفها انتفاء الحكم، على أن القياسيين يعتمدون على اجتهادهم في استخراج العلل، والاجتهاد يخطئ ويصيب كما لا يخفى.

# الفرق التي تفرعت عن الشيعة

يهمنا في هذا الفصل أن نقارن بين عقيدة الشيعة الإمامية وعقائد الفرق التي تفرعت عن التشيع لعلي وبنيه عليهم السلام لذلك فإنا نتحدث عنهم من ناحية العقيدة، ليظهر للملأ مقدار الظلم الفاحش الذي يقع به من يكتب عن الشيعة الإمامية، ويلصق بهم أوزار تلك الفرق التي كانت تدين بالولاء لعلي وولده، ثم خرجت عن التشيع والإسلام معاً.

وقد أسرف بعضهم إسرافاً لا مبرر له فعد الخوارج من فرق الشيعة، كما يظهر من الشهرستاني في الملل والنحل قال في المجلد الأول: أول من خرج على أمير المؤمنين علي عليه السلام جماعة ممن كانوا معه في حرب صفين، وأشدهم خروجاً عليه ومروقاً من الدين الأشعث بن قيس، ومسلم بن فدك التميمي، وزيد بن حصن الطائي، حين قالوا: القوم يدعون إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف..

لقد سبق منا أن التشيع في عرف الشيعة يعني أن علياً هو صاحب الحق الشرعي في الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا غيره، وليس كل من أظهر له الطاعة، بعد أن صارت الخلافة إليه من الشيعة فالجمهور من الناس يقولون بخلافته بعد مقتل عثمان عدا معاوية وأتباعه من أهل الشام، وأول من قام

بفكرة الخوارج هو الأشعث وجماعة معه في صفين، وليس كل من كان معه إذا لم يرَ رأي الشيعة في الخلافة يكون شيعياً، وإن دان له بالطاعة في أيام خلافته، لذلك فإن عد الخوارج من فرق الشيعة من الأخطاء التي لا يساعد عليها التاريخ ولا يقرها البحث والدراسة لتاريخ الفِرَق ومعتقداتها .

# الغلاة

وأول هذه الفِرَق كما يدعي أكثر الكتاب أُولئك الذين أفرطوا في الولاء لعلي عليه السلام ونسبوا إليه الأُلوهية، قال في المجلد الأول من شرح النهج: وأول من جهر بالغلو في أيامه عبد الله بن سبأ[1]، قام إليه وهو يخطب فقال له أنت أنت، وجعل يكررها، فقال له ويلك من أنا؟ فقال أنت الله! فأمر بأخذه وأخذ قوم كانوا معه وعرضهم على النار، فمن تاب ورجع خلى سبيله، ومن أصر على مقالته أحرقه بالنار، وكان عبد الله بن سبأ ممن أظهر التوبة، وتشفع فيه عبد الله بن العباس فنفاه علي عليه السلام إلى المدائن فأقام بها إلى أن قتل علي عليه السلام ولما بلغه قتله قال: والله لو جئتمونا بدماغه في سبعين صرة، لعلمنا أنه لم يمت ولا يموت، حتى يسوق العرب بعصاه. ونقل هذه المقالة النوبختي في كتابه فِرَق الشيعة، وقال الشهرستاني في المجلد الأول: الغلاة هم الذين غلوا في حق أئمتهم، حتى أخرجوهم عن حدود الخليقة، وحكموا فيهم بأحكام الآلهة. وفي الكتاب المذكور: لقد تشعبت أصناف الغلاة حين زعموا أن علياً حي لم يقتل، وفيه الجزء الإلهي وهو الذي يجيء في السحاب، والرعد صوته والبرق سوطه، وأنه سينزل بعد

(١) لقد أثبتت الدراسات العلمية أن عبد الله بن سبأ من الشخصيات الوهمية التي لا وجود لها في تاريخ المسلمين.

ذلك إلى الأرض فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً. وإنما أظهر ابن سبأ هذه المقالة بعد انتقال علي عليه السلام إلى ربه، واجتمع على مقالته جماعة ممن كان من شيعة علي عليه السلام وفي شرح النهج المجلد الثاني ثم ظهر المغيرة بن سعيد مولى بجيلة، فأراد إن يحدث لنفسه مقالة يستهوي بها قوماً وينال بها ما يريد الظفر به من الدنيا.

فغلى في علي عليه السلام، وقال لو شاء علي عليه السلام لأحيا عاداً وثمودا وقروناً بين ذلك، ثم تفاقم أمر الغلاة بعد المغيرة وأمعنوا في الغلو فادعوا حلول الذات الإلهية المقدسة في قوم من سلالة أمير المؤمنين، وقالوا بالتناسخ وجحدوا البعث والنشور، وأسقطوا الثواب والعقاب، وقال قوم منهم إن الثواب والعقاب ملاذ هذه الدنيا ومشاقها، وتولدت من هذه المذاهب القديمة التي قال بها سلفهم مذاهب أفحش منها قال بها خلفهم حين صاروا إلى المقالة المعروفة بالنصيرية وهي التي أحدثها محمد بن نصير النميري وكان من أصحاب الحسن العسكري عليه السلام، والمقالة المعروفة بالإسحاقية وهي التي أحدثها إسحاق بن زيد بن الحرث: وكان من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. وكان يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف، وقال في علي أنه شريك للرسول في النبوة. وأما محمد بن نصير فلقد ادعى أنه وكيل لأبي الحسن علي الهادي، ففضحه الله بما أظهره من الإلحاد والغلو، والقول بالتناسخ، ثم ادعى أنه نبي أرسله علي بن محمد بن الرضا عليه السلام، وجحد إمامة الحسن العسكري، ثم ادعى بعد ذلك الربوبية. وما جاء في فرق الشيعة للنوبختي مواقف لما في شرح النهج، عن محمد بن نصير. وزاد النوبختي، أن أتباع أبن نصير يسمون النميرية.

ومن فرق الغلاة الكاملية أصحاب أبي كامل، وهؤلاء كفروا جميع الصحابة بتركهم بيعة علي عليه السلام، وطعنوا في علي لأنه لم يطالب بحقه،

وقالوا بالتناسخ، وأن الإمامة نور يتناسخ من شخص لآخر، وهو في شخص نبوة وفي آخر إمامة كما ذكر ذلك الشهرستاني.

وعن خطط المقريزي أن المغيرية من الغلاة، وصاحبهم المغيرة بن سعيد، لقد ادعى أولاً أن الإمام بعد الباقر عليه السلام هو محمد بن عبد الله الحسن، ثم ادعى الإمامة لنفسه وادعى بعد ذلك النبوة، وقال بالتشبيه كما في الملل للشهرستاني.

ومنهم الخطابية أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب، وكان متصلاً بالإمام الصادق فلما وقف الإمام عليه السلام على غلوه الباطل تبرأ منه ولعنه وأمر أصحابه بالبراءة منه ولعنه، وقد زعم أن الأئمة أنبياء، ثم قال بألوهية جعفر بن محمد وآبائه كما في الملل للشهرستاني وغيره من كتب الفرق.

ومنهم المنصورية أصحاب أبي منصور العجلي، وكان من أصحاب الباقر عليه السلام فلما أظهر الغلو تبرأ منه الإمام عليه السلام فادعى الإمامة لنفسه، وادعى الألوهية لعلي عليه السلام وأنه عرج إلى السماء، وأن الجنة والنار رجلان أمرنا بمعاداة أحدهما، وموالاة الآخر، كما في الملل والنحل وغيره.

ومنهم العلبائية أصحاب العلباء بن دراع الدوسي أو الأسدي وكان يقول أن علياً هو الذي بعث محمداً، وأن محمداً بعث ليدعو إلى علي عليه السلام، ومن هذه الفرقة من قال بإلهية خمسة أشخاص وهم أصحاب الكساء، وأنهم شيء واحد، وقد حلت الروح فيهم بالسوية، ذكر ذلك في الملل، وفي كتاب الشيعة في التاريخ عن خطط المقريزي.

وللغلاة فرق كثيرة وأقوال كلها فاسدة، لا تتفق مع العقائد التي استمدها المسلمون من الكتاب الكريم، والسنة الشريفة فضلاً عن عقائد الشيعة الإمامية. ولقد تبرأ منهم أئمة الشيعة، وأعلنوا عن رأيهم بكل صراحة في أصحاب هذه الشبه والآراء الفاسدة، ولقد قال الإمام الصادق عليه السلام في

رواية رواها عنه أبان بن عثمان: كان والله أمير المؤمنين عبداً طائعاً والويل لمن كذب علينا إني ذكرت عبد الله بن سبأ، فقامت كل شعرة في جسدي، لقد ادعى أمراً عظيماً، ما له لعنه الله، كان علي والله عبداً صالحاً، ما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله، وما نال رسول الله الكرامة من الله تعالى إلا بطاعته لله.

وذكر الشهرستاني في الملل أن أبا جعفر الباقر عليه السلام قال: برئ الله ورسوله من المغيرة بن سعيد، وبيان ابن سمعان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت.

وروى زرارة أن أبا جعفر عليه السلام كان يقول: لعن الله بياناً التبان، إن بياناً كان يكذب على أبي، وأشهد أن أبي علي بن الحسين كان عبداً صالحاً.

وعن هشام بن الحكم أنه قال: قال أبو عبد الله الصادق: أن بياناً والسري وبزيغاً لعنهم الله تراءى لهم الشيطان بأحسن صورة من قرنه إلى سرته، كما جاء في الكافي والوافي وغيرهما.

وقد تقدمت الرواية عن الصادق عليه السلام، في جملة من الكذابين منهم أبو الخطاب، وحمزة اليزيدي، والنهدي، وبشار الأشعري والسري، وقد لعنهم جميعاً، وعن اسحاق ابن عمار، إن أبا عبد الله قال لبشار الأشعري لما دخل عليه: اخرج عني لعنك الله، والله لا تظلني وإياك سقف ابداً. فلما خرج قال عليه السلام ويله ما صغر الله تصغير هذا الفاجر أحد. إنه شيطان ابن شيطان خرج ليغري أصحابي وشيعتي فاحذروه، وليبلغ الشاهد الغائب..

وفي منهج المقال عن أبي محمد الحسن العسكري، أنه كتب ابتداء منه إلى أحد مواليه، إني أبرأ إلى الله من محمد بن نصير الفهري وابن بابا القمي، فأبرأ منهما، وأني محذرك وجميع موالي ومخبرك أني ألعنهما عليهما لعنة الله فتّانين مؤذيين آذاهما الله، يزعم ابن بابا أني بعثته نبياً، وأنه

بابي، ويله لعنه الله، سخر منه الشيطان فأغراه، فلعن الله من قبل منه ذلك، يا محمد إن قدرت أن تشرخ رأسه فافعل.

وفي حديث للإمام زين العابدين، مع جماعة من أصحابه قال لهم: ما برح حبكم لنا حتى أصبح علينا عاراً، يريد بذلك أن ينهاهم عن الإسراف في المدح والولاء البالغ مرتبة الغلو، والخارج عما تألفه طباع البشر. وقال الإمام الصادق وهو يعلم أصحابه، كيف يذكرون أئمة أهل البيت. لنا ذكر في كتاب الله، ونسب من رسول الله، وولادة طيبة، هكذا قولوا إلى الناس!! ولعل من أهم العوامل لتفشي هذه الآراء الفاسدة في زمن العباسيين حرص الحكام على إضعاف السلطة الروحية التي كان يتمتع بها أئمة الشيعة، فرفعت من مكانتهم العالية في نفوس الجماهير، فظن الحكام أن في هذا الاتجاه الدنيء سبيلاً للحط من مكانتهم، بعدما رأوا أن القتل والتشريد والاضطهاد قربهم إلى الناس، وجر عليهم العطف والتظلم لحالهم، فلجأوا إلى هذا الاسلوب، ويشهد لذلك ما رواه المفيد في إرشاده، أن المتوكل قال يوماً لبعض خاصته: ويحكم قد أعياني أمر ابن الرضا عليه السلام، وجهدت أن يشرب معي وينادمني، فامتنع، وجدت أن أجد فرصة في هذا المعنى، فلم أجدها. فقال له بعض من حضر: إن لم تجد من ابن الرضا ما تريد، فهذا أخوه موسى يشرب ويخالع، فأحضره وأشهره فإن الخبر يشيع عن ابن الرضا بذلك، فلا يفرق الناس بينه وبين أخيه، ومن عرفه من بسطاء الناس اتهم أخاه بمثل فعاله.

# الكيسانية

قال الشهرستاني: الكيسانية هم أصحاب كيسان مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقيل أنه تلميذ محمد بن الحنفية، ويعتقدون فيه الإحاطة بالعلوم كلها، واقتباسه من الإمامين الحسن والحسين الأسرار بجملتها، ويرون أن الدين طاعة رجل حتى حملهم ذلك على تأويل الأحكام الشرعية، كالصلاة والصوم والزكاة والحج، وقال بعضهم بجواز تركها بعد الوصول إلى طاعة الرجل. وقالوا بالتناسخ والحلول والرجعة، وهؤلاء بين قائل بأن الإمامة في واحد لا يموت، حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وبين من يقول بانتقال الإمامة إلى غيره. وعد الشهرستاني منهم المختارية أصحاب المختار الثقفي، كما عده من الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفلية، وأن محمداً تبرأ منه لما اطلع على سوء عقيدته، ونسب إليه القول بالبداء، وأن الملائكة تنزل عليه على صورة حمام أبيض، وعنده كرسي مغشى بالديباج، يدعي أنه من ذخائر أمير المؤمنين عليه السلام ومنهم الهاشمية أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وقد انتقلت إليه الإمامة من أبيه على حد زعمهم ونسبوا إليه علم الظاهر والباطن، وجميع أسرار العلوم وأنه ورث ذلك عن أبيه، وأخذها أبوه عن جده علي عليه السلام، وافترقوا بعد ذلك إلى فرق خمسة الفرقة الأولى تدعي أنه

أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وصارت الخلافة في ولده حتى انتهت إلى أبي العباس السفاح، ولهم الحق في ذلك لاتصالهم برسول الله ﷺ، وفرقة منهم تدعي انتقال الخلافة من أبي هاشم إلى ابن أخيه الحسن ابن علي بن محمد بن الحنفية، وفرقة تدعي انتقالها من أبي هاشم إلى أخيه علي بن محمد. وقالت فرقة بخروجها من بني هاشم إلى عبد الله بن عمرو الكندي بوصية من أبي هاشم وأن روح أبي هاشم تحولت إليه، ولكنه كان مستهتراً في الدين لذلك رجع من قال بإمامته إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. وكان يرى تناسخ الأرواح من شخص إلى آخر، وأن روح الله تناسخت حتى وصلت إليه، وحلت فيه، وادعى الألوهية والنبوة معاً، وأنكر القيامة والثواب والعقاب، وبعد أن مات بخراسان افترق أصحابه، فبين من قال بأنه حي لم يمت، وبين من زعم بأن روحه تحولت إلى إسحاق بن زيد الحارث الأنصاري وهؤلاء يسمون الحارثية. يقولون بإباحة المحارم ويعيشون عيشة من لا تكليف عليه. وقد حصل بين أصحاب عبد الله بن معاوية وأصحاب محمد بن علي بن عبد الله العباس خلاف في الإمامة، وكل يدعي الوصية من أبي هاشم إليه.

ومنهم البيانية أتباع بيان بن سمعان النهدي، القائلين بانتقال الإمامية من أبي هاشم إليه، وهؤلاء يقولون بأن علياً هو الله وقالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ إن المراد بذلك علي عليه السلام وأن الرعد صوته والبرق بسمته. ثم ادعى بيان انتقال الجزء الإلهي إليه بنوع من التناسخ، وذلك الجزء هو الذي استحق به آدم سجود الملائكة، وزعم أن معبوده على صورة إنسان، وأنه يهلك إلا وجهه، وهو المعني بقوله كل شيء هالك إلا وجهه، والنهدي صاحب هذه المقالة قتله خالد بن عبد الله القسري، ومن فرق الكيسانية الرزامية أتباع «رزام» وهؤلاء ساقوا الإمامة من علي عليه السلام إلى ابنه محمد ثم إلى أبي هاشم، ومنه إلى علي بن عبد الله بن

العباس بالوصية ومنه إلى محمد بن علي وولده إبراهيم وقد ظهر بخراسان في أيام أبي مسلم، وقيل أنه كان على مذهبه، وادعوا حلول الروح فيه، ولهذا أيده الله على بني أمية، وقالوا بتناسخ الأرواح، ومنهم المقنع الخراساني، وهو عطاء الساحر، وقد ادعى بأنه هو الله وتبعه جماعة دانوا بترك الفرائض، وإن الدين معرفة الإمام لا غير، ولهم أقوال كثيرة غير هذه، وقد اقتبسنا هذا ولخصناه من ملل الشهرستاني وغيره من كتب الفِرَق والمعتقدات وفي فرق الشيعة للنوبختي أن الكيسانية تنسب إلى المختار الثقفي، لأنه الملقب بكيسان، وينسب إليه النوبختي أنه كان يكفر من تقدم علياً، وأنه يزعم نزول الوحي عليه، كما تقدم ذلك عن «الملل»، ثم يستطرد النوبختي في تعداد فرق الكيسانية، باختلاف يسير عن صاحب الملل، ولكنهما يشتركان في نسبة العقائد الفاسدة، والآراء الشاذة، والغلو في الأئمة، والإفراط في الزندقة، لكثير من هذه الفِرَق الضالة. ويذكر النوبختي أن الكربية أصحاب ابن كرب، ومنهم حمزة بن عمار البربري، كانوا يعتقدون أولاً أن الإمامة لمحمد بن الحنفية، وهو المهدي، كما سماه أبوه بهذا الاسم، وأنه غائب لا يموت، وسيرجع فيملك الأرض، ثم تطورت عقيدتهم فادعى حمزة البربري أنه نبي هذه الأمة، وأن محمداً هو الله. وقد بعثه رسولاً من قبله، وينقل عنه غير ذلك مما يوجب الكفر والزندقة وأن أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام لعنه وتبرأ منه وكذبه في كل ما يدعيه، وأوصى أصحابه بالبراءة منه فرجع عنه أصحابه إلا بيان بن سمعان وهائد الهندي. وقد ذكرنا بعض المرويات عن الإمامين الصادق والباقر عليهما السلام في شأن هذين وأمثالهما من دعاة الكفر والزندقة، ومهما يكن الحال فجميع فرق الكيسانية، إن صح ما ينسب إليهم، فلا نشك بكفرهم، وخروجهم عن الإسلام، فضلاً عن التشيع، وإن لم يصح عنهم ذلك فهم كسائر المحكوم بإسلامهم، وإن خالفوا الإمامية في ترتيب الإمامة على النهج المتعارف عند

الشيعة، وأما المختار الثقفي فقد ذكره التاريخ والباحثون في الملل والعقائد، ونسبوا إليه بعض الأباطيل التي لا تتفق مع أركان الإسلام وأُصوله.

والفريق الكبير من علماء الشيعة الإمامية ينزه المختار مما نسب إليه من الأباطيل، منهم العلامة الحلي وابن طاووس، والمحقق الأردبيلي، وغيرهم من أعيان العلماء. كما ذكر ذلك السيد عبد الرزاق وغيره فيما كتب حول تنزيه المختار، ولقد ورد الحديث عن أئمة أهل البيت في الطعن عليه، والبراءة منه، وورد ما يدل على ولائه واستقامته في عقيدته، وفي بعضها أن الإمامين السجاد وولده الباقر عليهما السلام كانا يترحمان عليه ويذكراه بأطيب الذكر.

وليس من البعيد أن يكون للظروف القاسية التي كانت تحيط بالإمامين أعظم الأثر في ذمه والبراءة منه، وليس في تمسكه بمحمد بن الحنفية دليل قاطع على أنه قال بإمامته، ومن الغريب أن يكون أراد بذلك استجلاب الناس، ليتم له ما أراد من التنكيل بقتلة الحسين عليه السلام وفي الوقت نفسه أراد أن يبقي الإمام الشرعي زين العابدين، بعيداً عن التدخل بشؤون السلطان، خوفاً أن تناله يد السوء والبغضاء، كما نالت أباه من قبله، ومهما يكن حاله فلقد وقف موقفاً لا ينساه له التاريخ، ولا صاحب الرسالة وأبناءه أئمة الهدى، حارب البغي والجور، ونصر العترة الطاهرة وجرى على يده ما خفف عن أهل البيت من آلام تلك الفاجعة الأليمة، التي بكى لها النبي قبل وقوعها بعشرات السنين، وبقيت مرارتها في قلوب الأئمة من أهل البيت وشيعتهم طيلة حياتهم.

# الزيدية

لقد كثرت الروايات عن أئمة أهل البيت في فضل زيد بن علي ونزاهته عما نسب إليه من أمر الإمامة، وجاء في حديث الإمام الرضا عليه السلام مع المأمون: يا أمير المؤمنين! لا تقس أخي زيداً إلى زيد بن علي بن الحسين، فإنه من علماء آل محمد صلى الله عليه وآله، غضب لله عز وجل فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله. ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر عليه السلام أنه سمع أبا جعفر عليه السلام يقول رحم الله عمي زيداً إنه دعا إلى الرضا من آل محمد. ولو ظفر لوفى بما دعا إليه، ولقد استشارني في خروجه فقلت له يا عم! إن رضيت أن تكون أنت المقتول بالكناسة فشأنك، فلما ولى قال جعفر بن محمد عليه السلام ويل لمن سمع داعيته ولم يجبه. فقال له المأمون يا أبا الحسن: أليس قد جاء فيمن ادعى الإمامة بغير حقها ما جاء! قال الرضا عليه السلام: إن زيد بن علي لم يدع ما ليس له بحق، وأنه كان اتقى الله من ذلك. إنه قال أدعوكم إلى الرضا من آل محمد وفي كفاية الأثر عن عمرو بن المتوكل البلخي عن أبيه، قال: لقيت يحيى بن زيد بعد قتل أبيه وهو متوجه إلى خراسان، فما رأيت رجلاً في فضله وعقله مثله، فسألته عن أبيه فقال: قتل وصلب بالكناسة، ثم بكى وبكيت حتى غشي عليه فلما سكن قال رحم الله أبي، كان أحد المتعبدين، قائماً ليله، صائماً نهاره جاهد في سبيل الله حق جهاده، فقلت يا ابن رسول

الله هكذا يكون الإمام بهذه الصفة؟ فقال يا عبد الله إن أبي لم يكن بإمام، ولكن كان من السادة الكرام وزهادهم، وكان من المجاهدين في سبيل الله. قلت يا ابن رسول الله إن أباك قد ادعى الإمامة لنفسه وخرج مجاهداً في سبيل الله، وقد جاء عن رسول الله ﷺ فيمن ادعى الإمامة كاذباً، فقال: مه مه يا عبد الله إن أبي كان أعقل من أن يدعي ما ليس له بحق، إنما قال أدعوكم إلى الرضا من آل محمد، عني بذلك ابن عمي جعفراً عليه السلام، قلت فهو اليوم صاحب فقه قال نعم هو أفقه بني هاشم، وغير هاتين مما هو صريح في أنه لم يطلب الإمامة لنفسه. وورد عن الباقر عليه السلام ويل لمن سمع داعيته ولم يجبه، وعن الصادق: إذا دعاكم فأجيبوه وإذا استنصركم فانصروه، ويظهر من الروايات الكثيرة أنه كان في المرتبة الثانية بعد الإمامة في علمه وقداسته وإخلاصه لله سبحانه، والمبادئ الإسلامية المقدسة بعد أئمة هذا البيت، وبدافع الحرص على مبادئ الإسلام كانت ثورته، ولم ترض له نفسه الكبيرة أن يرى هشاماً يعبث بالمقدسات يشتم سيد الهاشميين في زمانه أخاه الباقر، وقد وفد عليه زيد ليشكو إليه ظلم عماله، وسوء صنيعهم مع الرعية، فحجبه هشام على بابه أياماً مع سوقة الناس ولما دخل عليه أوعز لمن في مجلسه من الأذناب وعباد الشهوات والأطماع أن لا يفسحوا له ليجلس مع الناس، فوقف زيد وهو يردد: «ما أحب الحياة أحد إلا ذل»، فتحداه هشام بقوله: بلغني أنك تذكر الخلافة وتتمناها، ولست هناك لأنك ابن أمة، فقال زيد: إن الله اختار إسماعيل بن إبراهيم وبعثه نبياً وهو ابن أمة وأخرج منه خير البشر، فلم يدرِ هشام ما يجيب، فعدل إلى أُسلوب آخر فرضه عليه حقده وعداؤه لله ولرسوله، فقال لزيد: ما فعل أخوك البقرة؟ فغضب زيد حتى كاد يخرج من إهابه وقال: سماه رسول الله الباقر، وأنت تسميه البقرة، لتخالفه في الآخرة كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة وترد النار، فأخرجه هشام من مجلسه وهو يريد به المدينة، وعلم زيد

أن في ذلك هلاكه على يد عاملها، فالتجأ إلى الكوفة وفيها أكبر مجموعة من شيعة آبائه وأعداء البيت الأموي الجبار فكان من أمره ما قصه علينا التاريخ.

ومهما يكن الحال فالذي يهمنا هو أن نتعرف إلى الزيدية من ناحية العقيدة، لنعرف مدى اتصالهم بالشيعة الإمامية. والذي يظهر من الشهرستاني أن الزيدية المنسوبين إلى زيد بن علي عليه السلام خصوا الإمامة في أولاد فاطمة عليها السلام ولكنهم يخالفون ما عليه الإمامية فهي عندهم لكل عالم زاهد شجاع خرج بالسيف، فمن جمع هذه الصفات كان إماماً، تجب طاعته، من أولاد الحسن أو الحسين عليهما السلام، ولذلك قالوا بإمامة محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن وقد خرج في أيام المنصور، وتجوز عندهم الإمامة لشخصين في عصر واحد إذا خرجا في قطرين وجمعا شروط الإمامة.

وفي الملك للشهرستاني أن زيداً تتلمذ على واصل بن عطاء المعتزلي وكان يرى رأي المعتزلة في الخلافة الإسلامية، وأن شيعة الكوفة رفضوه لأنه لم يتبرأ من الشيخين، وكان له مع أخيه الباقر جدال حول تلمذته على واصل بن عطاء، مع أنه يجيز الخطأ على علي عليه السلام في قتال أهل البصرة وأهل الشام، ويرى فيه غير ما يراه آباؤه وأكثر المسلمين، ولأنه يشترط في الإمامة الخروج بالسيف. كان الإمام الباقر ينقض عليه قوله بوجوب الخروج بالسيف بإمامة أبيه التي يقول فيها زيد مع أنه لم يخرج على أحد بالسيف. وبعد أن قتل زيد وقام ولده يحيى بالسيف قال بإمامته أصحاب هذه العقيدة ومضى إلى خراسان والتف حوله جمع ممن يرى ظلامة أهل البيت، وبعد قتال جرى لهم مع ولاة بني أمية قتل يحيى بالجوزجان وخفت أمر الزيدية إلى أن ظهر بخراسان ناصر الأطروش الحسن بن علي بن الحسن بن عمرو بن الحسين عليه السلام وكان يلقب الناصر فتبعه الوالي فخرج إلى الديلم

وأهله على غير الإسلام فدعاهم إليه على مذهب زيد بن علي فدخلوا فيه على مذهب الزيدية في الأصول والفروع وهم أصناف ثلاثة جارودية وسليمانية وبترية.

والجارودية هم أصحاب أبي الجارود وهو زيد بن المنذر الهمداني فقالوا بالنص على علي عليه السلام بوصفه لا باسمه وهو يخالف زيداً في رأيه بمن تقدم علياً من الخلفاء الراشدين ويذهب قسم منهم إلى أن الإمام بعد زيد هو محمد بن عبد الله بن الحسن وعلى رأيهم في ذلك أبو حنيفة. وفي مقاتل الطالبيين أن أبا حنفية كتب إلى إبراهيم أخي محمد بن عبد الله يشير عليه أن يقصد الكوفة سراً لأن فيها من الشيعة من يبيت المنصور ويقتله فظفر المنصور بالكتاب وبعث إليه فسقاه شربة فمات فيها وقيل أنه قتله لأنه أبى أن يتولى له القضاء. والقائلين بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن، ذهب بعضهم إلى أنه المهدي وأنه حي لم يقتل وسيخرج فيملأ الأرض عدلاً، وذهب آخرون أنه قتل وانتقل الأمر منه إلى محمد بن القاسم بن عمرو بن علي بن الحسين صاحب الطالقان. وكانت العامة تلقبه الصوفي، لأنه كان يدمن لبس الصوف وقد مات في حبس المعتصم. وفرقة تدعي انتقال الإمامة ليحيى بن عمر صاحب الكوفة، وهو يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد وقتل في أيام المستعين، فهؤلاء أتباع أبي الجارود، وكان يسمى سرجوب. سماه بذلك الإمام الباقر عليه السلام وقد فسره الإمام عليه السلام بأنه شيطان أعمى يسكن البحر وأما السليمانية فهم أصحاب سليمان بن جرير، وكان يرى أن الإمامة شورى بين المسلمين، وتصح في المفضول مع وجود الأفضل ويخطئ الأمة في اختيارها غير علي عليه السلام ويرى أن عثمان قد أحدث في الإسلام ما لم يعهد من قبل، ويرى ضلال عائشة وطلحة والزبير لإقدامهم على قتال الخليفة الشرعي، وتبعه جماعة من المعتزلة منهم كثير بن إسماعيل النواء، قالوا بوجوب الإمامة لإقامة الحدود، وولاية الأيتام،

وحفظ بيضة الإسلام، وقتال الأعداء وغير ذلك من المصالح الراجعة لشؤون المسلمين. ولا يجب أن يكون الإمام أفضل أهل زمانه، لأن هذه المصالح تقوم بالمفضول وأما البترية والصالحية وهم أصحاب كثير النواء الأبتر، فليس بين قولهم وقول من تقدمهم، فيما يرجع إلى الإمامة وأُصول الدين اختلاف جوهري غير أنهما يجيزا ظهور إمامين في عصر واحد، كل واحد في قطر خاص. وما ذكرناه من رأي الزيدية في الإمامة واختلافهم في ترتيبها، وعقيدتهم في الإمام لخصناه من ملل الشهرستاني ومن فرق النوبختي، بعد أن عدد فرقهم وذكر منها الجارودية وهم أتباع زياد بن المنذر الملقب بسرجوب، والعجلية، والبترية، نسب إلى الجارودية القول بأن جميع ما جاء به محمد ﷺ من حلال وحرام، هو عند آل النبي، صغيرهم وكبيرهم فيه سواء حتى من كان في المهد، ومن شك في ذلك فهو كافر بالله. وما غير الجارودية فلا يرون هذا الرأي في أهل البيت، ويرون أن العلم مشترك بينهم وبين سائر الناس، ويمكن أن يكون لغيرهم ما لهم، وأن يكون أعلم منهم، وجميع من كتب عن الزيدية وتعرض لعقيدتهم، لم ينسب إليهم الشذوذ والخروج على أُصول الإسلام وفروعه الضرورية، وإنما يختلفون مع غيرهم من المسلمين في أصل الإمامة، وهم كما يخالفون الشيعة يخالفون فيها أهل السنة، فهم بنظر الشيعة كغيرهم من المسلمين الحافظين لأُصول الإسلام وفروعه، كما جاءت في الكتاب الكريم، والسنة النبوية الشريفة. ويرون لهم ما لغيرهم من الحقوق التي فرضت على المسلم لأخيه المسلم. والشيعة يرحبون بكل من ينتسب إلى التشيع على أن يكون معتدلاً في عقيدته، موالياً لأهل البيت كما حددوا الولاء لشيعتهم، ذكر في كتاب الله، ونسب يتصل برسول الله، وولادة طيبة.

# الاسماعيلية

لقد ظهر مذهب (الاسماعيلية) بعد وفاة الإمام جعفر بن محمد عليه السلام في حين كانت حياة الإمام عليه السلام أثقل ما تكون على المنصور وحاول أكثر من مرة أن يجد سبباً لقتله يستطيع أن يجابه به الرأي العام فلم يجد لذلك سبيلاً.

وقبل وفاة الإمام عليه السلام أوصى إلى ستة نفر أحدهم المنصور، لعلمه أن المنصور سيتتبع خلفه كما كان يرافقه في حياته، لذلك تكتم في الوصاية إلى الإمام الشرعي ولده موسى عليه السلام وبقي شيعته المنتشرون في أنحاء الدولة في حيرة بعد وفاته وأخيراً اهتدى إليه جماعة منهم، وقالت فرقة منهم بإمامة ولده إسماعيل، وكان قد مات في حياة أبيه، وحملت جنازته على رقاب الناس، وتقدم الإمام سريره وأمر بوضعه على الأرض مراراً كثيرة وفي كل مرة يكشف عن وجهه ليراه الناس، وكأنه كان يعلم أن القوم سيخلقون الشبهة حول وفاته، فكتب سجلاً في وفاته أشهد عليه جماعة منهم أمير المدينة وأرسله إلى المنصور، كما ذكر ذلك في شرح النهج ومع كل ذلك فقد قالت فرقة من الشيعة بحياته بعد أبيه، وادعت أن الإمام أظهر موته خوفاً عليه من خلفاء بني عباس، وقالوا بإمامته. وفي الملل للشهرستاني أنه رفع للمنصور إن إسماعيل بن جعفر رؤي بالبصرة، وأنه مر على مقعد فدعا له فبرئ بإذن الله تعالى، فبعث المنصور إلى الصادق يخبره أن ولده إسماعيل

من الأحياء وأنه رؤي في البصرة وأرجع السجل إليه وعليه شهادة أمير المدينة، هذه الرواية تدلنا على أن المنصور كان يهتم في تشتيت أمر الشيعة حتى لا يتفقوا على الإمام الشرعي موسى بن جعفر عليه السلام وقد مثَّل دوراً هاماً في ترويج هذه الشائعة، لتنتشر بين ضعفاء الشيعة فيرجعوا إليه بعد أبيه، ولم يكن المنصور ممن يؤمن بصدق هذه الأسطورة ولا ممن يتردد في وفاته قبل أبيه بعد أن تلقى نبأ وفاته من عامله على المدينة، ولكنه أراد أن يخلق المزاحم للإمام الشرعي فأوصى إلى عملائه بوضعها عسى أن تجد سبيلها إلى فئة من ضعفاء الشيعة والمستضعفين منهم وتم له ما أراد وبخاصة بعدما بدأ بالتضييق على الإمام موسى بن جعفر ومطاردته حتى اضطره للتستر ولو عن الخواص من شيعته، وراجت فكرة حياة إسماعيل بعد أبيه وأصبحت حياته عقيدة لطائفة من المسلمين، لا تزال آثارها سارية حتى اليوم. ومهما يكن الحال، فالاسماعيلية يقولون بإمامة ولده محمد بن إسماعيل من بعده، وبه يبتدئ المستورون من الأئمة الذين يسيرون في البلاد سراً، ويظهرون الدعاة جهراً وهؤلاء يقولون بأن الأرض لا تخلو من إمام حي قائم إما ظاهر مكشوف وأما باطن مستور، لا بد من ظهور دعاته، ويزعمون أن الأئمة تدور أحكامهم على سبعة سبعة، كأيام الاسبوع، والسماوات السبع والكواكب السبع، وقدانتهى الدور الأول بإمامة إسماعل وابتدأ الدور الثاني بإمامة ولده محمد ابن إسماعيل. وهكذا كل دور ينتهي بسبعة من الأئمة ويقولون أن العالم السفلي تديره الكواكب السبعة: زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر.

ولهم عقائد أُخرى لا ترتكز على الأُسس الإسلامية، ولا صلة لها بعقائد الشيعة الإمامية. وقد ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل. وفي فرق الشيعة للنوبختي أن الفرقة الثانية من فرق الاسماعيلية القائلين بإمامة محمد ابن إسماعيل، قالوا أن الإمامة كانت لإسماعيل، فلما مات في حياة أبيه

جعلها جعفر بن محمد لولده محمد بن إسماعيل. ولا تنتقل الإمامة من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ولا تكون إلا في الأعقاب، وليس لعبد الله وموسى بن جعفر في الإمامة من نصيب، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق فيها مع ابن أخيه علي بن الحسين عليه السلام. وأصحاب هذا القول يسمون المباركية وينسبون إلى المبارك مولى إسماعيل بن جعفر. ويقول النوبختي أن فرقة من الخطابية أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب، دخلت في الاسماعيلية، وأقرت بموت إسماعيل في حياة أبيه وأن الإمامة لولده محمد بن إسماعيل وإنما رجع هؤلاء إلى إمامة محمد بن إسماعيل بعد أن قالوا بنبوة أبي الخطاب، وحاربهم عيسى بن موسى بن محمد أمير الكوفة، فقتلهم، وكانوا سبعين رجلاً ولم يفلت منهم إلا رجل واحد يسمى سالم بن مكرم الجمال الملقب بأبي خديجة، وبعد قتل أبي الخطاب رجع من قال بمقالته من أهل الكوفة إلى إمامة إسماعيل كما ذكرنا.

ولهؤلاء مذاهب شتى، فمنهم من قال بأن روح جعفر عليه السلام تحولت إلى أبي الخطاب، ومنه إلى محمد بن إسماعيل وساقوا الإمامة في ولده، وتشعبت منهم فرقة تسمى القرامطة، وسميت بذلك لنسبتها إلى رجل من أهل السواد من الأنباط، كان يلقب قرموطية، كما ذكر المرتضى في الفصول المختارة من كلام المفيد، وكانوا أولاً يقولون بمقالة المباركية، ثم خالفوهم إلى أن الأئمة سبعة أولهم علي وسابعهم إسماعيل، ومنه إلى ولده محمد، وهو القائم المهدي وزعموا أن النبي قد انقطعت عنه الرسالة في حياته يوم أمر بنصب علي عليه السلام في غدير خم. وأن محمد بن إسماعيل حي في بلاد الروم، وهو القائم المهدي، ويريدون بالقائم أنه يأتي بشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد صلى الله عليه وآله، وأنه من أولي العزم، وأولوا العزم عندهم سبعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلي ومحمد بن إسماعيل. واحتجوا على نسخ شريعة محمد صلى الله عليه وآله بما رووه عن جعفر عليه السلام أنه قال: لو

قام قائمنا علمتم القرآن جديداً. وأنه قال: الإسلام بدئ غريباً وسيعود كما بدئ فطوبى للغرباء، وقالوا إن الله سبحانه جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم، ويريدون بها الإباحة للمحارم، وجميع ما خلق الله في الدنيا، وهو المراد بقوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وفسروها بموسى بن جعفر وولده، يعنون بذلك أن لا نصيب لهم في الإمامة ومن يدعي إمامة موسى وولده يجب قتله، بمقتضى قوله تعالى ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ إلى كثير من تلك الآراء الفاسدة، والعقائد الباطلة التي لا تتفق وتعاليم القرآن، وأحاديث النبي الكريم وعقائد جميع المسلمين. ويظهر من الشهرستاني أن الباطنية كانوا يسمون في العراق القرامطة، وفي خراسان الملاحدة، وأنهم من فرق الاسماعيلية، وأن مذهبهم نشأ في منتصف القرن الثالث، ويمتازون عن فرق الشيعة باسم الاسماعيلية، وأنهم لا يثبتون الوجود والعدم إلى الله ولا العلم ولا الجهل، ولا القدرة والعجز، لأن الإثبات الحقيقي له سبحانه يقتضي الشركة بينه وبين سائر الموجودات، وذلك يؤدي إلى التشبيه، ولا يحكمون عليه بالإثبات المطلق، ولا بالنفي المطلق، لأنه إله المتقابلين ثم مضى يشرح آراءهم ومعتقداتهم شرحاً مسهباً لا يعنينا ذكره. وفي كتاب الشيعة في التاريخ أن القرامطة ينسبون إلى حمدان الأشعث المعروف بقرمط، لقصر قامته ورجليه، وتقارب خطوه، وقد ظهر بسواد الكوفة سنة ٢٦٤ واشتهر مذهبهم في العراق، وقام منهم عبد الله الملقب بالمدثر ببلاد الشام، وأبو سعيد الجنابي بالبحرين ودخل جماعة في دعوتهم ومالوا إلى قولهم الذي سموه علم الباطن، وهو تأويل شرائع الإسلام.

وفي مجمع البحرين: والقرمطي واحد القرامطة، ومنه تحول الرجل قرمطياً، وهم فرقة من الخوارج عن الإسلام. وعن البهائي: أن القرامطة دخلوا مكة سنة ٣١٠ في أيام الموسم، وأخذوا الحجر الأسود، وبقي

عندهم عشرين سنة، وقتلوا خلقاً كثيراً، وممن قتلوا علي بن بابويه، كان يطوف بالبيت فقطعوا عليه طوافه، وضربوه بالسيف فأنشد:

ترى المحبين صرعى في ديارهم     كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وفي التعليقة على الملل والنحل: أن مذهب القرامطة نشأ في منتصف القرن الثالث، وضعه قوم أُشرِبوا في قلوبهم بغض الدين وكراهية النبي الكريم، ومن الفلاسفة والملاحدة والمجوس واليهود، ليصرفوا الناس عن دين الله إلى أن قال: وكان أصل دعوتهم ظهور ميمون القداح سنة ١٧٦، فنصب للمسلمين الحبائل وذهب إلى أن الفرائض والسنن رموز وإشارات، وهو يقول بإمامة علي عليه السلام خاصة، ليستر بجلال الإسلام وبجاه علي وآله كفره وزندقته، وكان يسر اليهودية ويظهر الإسلام، وظهر أيام قرمط فاجتمعا وأخذا ناموساً يدعوان إليه، فسموا بالقرامطة واجتمع عليهم جماعة يفسدون في الأرض، وفي كتب السير والملل اختلاف حول مبدأ ظهورهم وأول من خرج منهم وكيفية اتساع أمرهم، وكل من كتب عنهم ذكر لهم ما لا يتفق مع تعاليم الإسلام وأُصوله، فهم عند الشيعة أسوأ حالاً من الغلاة والخوارج ومن الظلم نسبتهم إلى الإسلام فضلاً عن التشيع لأهل البيت.

# الشمطية والفطحية

قال النوبختي: قالت الفرقة الرابعة من أصحاب أبي عبد الله الصادق، أن الإمامة من بعده لمحمد بن جعفر، وهو وموسى واسحاق لأم واحدة، وفي الفصول المختارة للمفيد: إن أبا عبد الله جعفر بن محمد كان في داره جالساً فدخل عليه ولده محمد وهو يوم ذاك صبي صغير، فعدا إليه فكبا في قميصه ووقع لوجهه، فقام إليه أبو عبد الله فقبله، ومسح التراب عن وجهه وضمه إلى صدره وقال: سمعت أبي يقول إذا ولد لك ولد يشبهني فسمه باسمي، وهذا الولد شبيهي وشبيه رسول الله، وهذه الفرقة تسمى الشمطية لنسبتها إلى رجل يقال له يحيى بن أبي الشمط.

وقال المفيد في الإرشاد: كان محمد بن جعفر شيخاً شجاعاً يصوم يوماً ويفطر آخر، ويرى رأي الزيدية في الخروج بالسيف وقد خرج على المأمون بمكة، وتبعه الزيدية الجارودية، وذكر هذه الفرقة الشهرستاني، وكل من تعرض لها لم ينسب لها ما يتنافى مع عقائد المسلمين.

وفي فرق النوبختي وملل الشهرستاني وغيرهما، أن القائلين بإمامة عبد الله بن جعفر الملقب بالأفطح هم الفطحية وهو وإسماعيل لأم واحدة وأكبر أولاد الإمام جعفر، وفي فصول المفيد زعموا أن أباه قد قال: الإمامة لا

تكون إلا في الأكبر من ولد الإمام. وقد كان عبد الله أفطح الرجلين، وقيل أن لهم رئيساً من أهل الكوفة اسمه عبد الله الأفطح، ومهما يكن فقد قال بإمامة عبد الله بن جعفر جمع كبير من الشيعة، وساعده على ذلك تكتم الإمام موسى خوفاً من المنصور والرشيد. وبعد أن اختبره بعض الأعيان من الشيعة في بعض أمور الدين، رجعوا عن إمامته. وفي الإرشاد أن عبد الله بن جعفر، كان أكبر أولاد الإمام جعفر بعد إسماعيل، ولم تكن منزلته عند أبيه كغيره من ولده، وكان متهماً بالخلاف عليه في الاعتقاد ويخالط الحشوية، ويميل إلى مذهب المرجئة، وادعى لنفسه الإمامة. والمرجئة قسم من الخوارج يرون رأيهم فيما يتعلق ببعض مسائل الإمامة، وللإرجاء معنيان: أحدهما التأخير، والثاني إعطاء الرجاء. وهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية.. كما لا ينفع مع الكفر طاعة، والإرجاء بمعنى التأخير وهو تأخير صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكم في الدنيا، أو تأخير علي عليه السلام إلى الدرجة الرابعة كما سارت عليه الخلافة الإسلامية كما يدعي بعض الكتاب في تفسير الإرجاء.

# الواقفية

لقد اشتدت الأزمة على الشيعة بعد وفاة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وكان وزير الرشيد يحيى بن خالد البرمكي يقول: لقد أفسدت على الرافضة دينهم، لأنهم يقولون أن الدين لا يقوم إلا بإمام حي، وهم لا يدرون اليوم أن إمامهم حي أو ميت، كما اشتد الرشيد على الشيعة وتتبعهم بألوان من العذاب والجور، فتفرقوا في أمر الإمامة بعد موسى ابن جعفر، فقالت فرقة منهم بإمامة الرضا عليه السلام وفرقة بقيت تصر على حياة الإمام موسى بن جعفر وقالوا أنه لم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً. وذهب قوم منهم إلى أنه يرجع إلى الحياة بعد أن مات، ولكنه اختفى. ومن وقف عليه، ولم يقل بانتقال الإمامة إلى الإمام علي بن موسى عليه السلام يسمون الواقفية. ومن هؤلاء فرقة يقال لها البشرية. أصحاب محمد بن بشير من أهل الكوفة، يقولون أن موسى لم يمت ولم يحبس وأنه حي غائب وهو القائم المهدي، وقد استخلف في أيام غيبته محمد بن بشير وأوصى إليه، وعلمه جميع ما تحتاج إليه الرعية، كما أوصى محمد بن بشير إلى ولده سميع بن محمد، وهكذا تنتقل الإمامة من واحد لآخر في زمن غيبة الإمام موسى على حد زعمهم ولقد طعن هؤلاء على الإمام الرضا عليه السلام ومن جاء من بعده من الأئمة وكفروا القائلين بإمامتهم.

وزعموا أن الفرض من الله الصلاة والخمس والصيام، وأنكروا الحج وبقية الفرائض، وينسب إليهم القول بالإباحة المطلقة والتناسخ، وأن الأئمة ينتقلون من بدن إلى بدن إلى غير ذلك من المقالات الفاسدة، كما ذكر ذلك النوبختي وغيره.

وفي الغيبة للطوسي: أن أول من أظهر عقيدة الوقف علي بن أبي حمزة البطائني، وزياد بن مروان القندي، وعلي بن عيسى الرواسبي. وذكر أن السبب في ذلك الأموال الكثيرة التي كانت عند وكلائه، فكان له عند زياد بن مروان القندي سبعون ألف دينار، وعند علي بن حمزة البطائني ثلاثون ألفاً وله عند غيرهما ما يعادل هذا المبلغ أو أكثر لذا فإنهم أنكروا وفاته كي لا ينتزع خلفه الأموال من أيديهم، ومهما يكن فإن من قال بمقالة محمد بن بشير وأتباعه، فهو كغيره من فرق الضلال خارج عن الإسلام ومقدساته ولكن تلك الفرق على كثرتها لم يكتب لها البقاء الطويل، وكثير منها لم يتجاوز الأعوام القليلة. وليس لذلك سبب سوى أنها كانت وليدة الظروف والدعايات التي كانت تقوم بها السلطة الحاكمة لتشتيت أمر الشيعة، وإضعاف جانب الأئمة من عترة النبي ﷺ ولم يبق من تلك الفرق إلا الزيدية، وهم الأكثرية من سكان اليمن، ومن أئمتهم الإمام محمد البدر التي لم تدم إمامته طويلاً[1]، وهذه الطائفة تدين بما عليه بقية المسلمين في أصول الإسلام وفروعه كما جاءت في الكتاب والسنة.

والاسماعيلية ويوجد منهم عدد ليس بالقليل في الهند، ويقال لهم البهرة، ولم يعرف عنهم التمسك بما كان ينسب إلى بعض الفرق من أسلافهم المعروفين بالسبعية، وهؤلاء يترددون على النجف وكربلاء بشكل

---

(١) لقد انتقلت الإمامة من أحمد إلى ولده محمد البدر وخلال ١٩٦٤ قام جماعة من الضباط الأحرار بانقلاب ضد نظام الحكم في اليمن فسيطروا على أكثرية البلاد وتبدل نظام الحكم في اليمن وانتهى دور الإمامة عند هذه الفرقة.

متواصل لزيارة العتبات المقدسة ويتسترون في عباداتهم وأكثر معتقداتهم، ولعلهم أكثر اعتدالاً من بقية الاسماعيلية السبعية أتباع كريم خان وغيره القائلين بالحلول وإباحة جميع المحرمات.

ومن بقايا تلك الفرق الفرقة التي تحمل اسم العلويين اليوم ويوجد منهم في سوريا وشمال لبنان عدد غير قليل، والمعروف عنهم أنهم لا يقولون بمقالة أسلافهم القدامى، ويرون رأي إخوانهم المسلمين في الأصول وأكثر الفروع، ولو فرض أنهم اليوم على ما مضى عليه أسلافهم، فلا نتحاشى في خروجهم عن الإسلام فضلاً عن التشيع.

# رأي الشيعة في زيارة قبور الأئمة

إن من رجع إلى تاريخ الأُمم على اختلاف عقائدها ونزعاتها، يعلم أنها تقدس العظماء والقادة من أبنائها المصلحين، ولربما تخرج بذلك على المألوف، فترفعهم إلى حدود الآلهة، كما حدث ذلك لعظماء الهند والصين وغيرهما من عظماء العالم، فالذكريات تقام لهم على مدى الأعوام، والألقاب الضخمة تكال لهم بلا حساب اعترافاً لهم بالجميل، وتقديراً لجهودهم المبذولة في خدمة الإنسانية ولكي تتخذ الأجيال من حياتهم دروساً ينهلون من معينها ويجنون من ثمراتها أشهى ما لذ لهم وطاب من المثل والتضحيات في سبيل خير الإنسان.

ولم يكن للشيعة منذ بزغ فجر التشيع إلى اليوم الذي نعيش فيه، عرف خاص ولا عادة تخالف المألوف عند الناس، وإنما نهجوا في جميع حالاتهم نهج غيرهم من الأُمم والطوائف رأوا في علي وبنيه أفضل ما أنجبته الإنسانية بعد الأنبياء، وخير ما يقوم به العظماء والقادة من الأعمال، فكانوا معهم أحياءً وأمواتاً كما ينبغي لأمة تريد أن تفي لعظمائها وقادتها، فلم يرتفعوا بهم عن وظيفة المخلوق ولم يبلغوا بهم ما بلغته الأُمم بعظمائها من قبل، عظموهم أحياء وقدسوهم أمواتاً، لأنهم نهجوا نهج الرسول الأعظم وتمسكوا بكتابه، لن يفترقا حتى يردا على رسول الله، حاربوا الباطل وأهله، وخدموا الإنسانية

خدمة تكفل لها النجاح والسعادة لو قدر لها أن تسير على نهجهم القويم، وسبيلهم الواضح، أمعن حكام الجور في تعذيبهم وتشريدهم والدس عليهم وأمعنوا في معارضتهم غير مسلمين ولا مهادنين، مهما بالغ الحكام في تعذيبهم والتنكيل بهم، لتتوفر للإنسان حريته وكرامته التي وهبها له الله وأكدها الإسلام، يستوحشون من الدنيا إذا لم تكن سبيلاً لإسعاد الإنسان، ويأنسون بالليل ووحشته ما دام الله معهم وإياه يعبدون ويقدسون.

ولو أدرك ضرار آخرهم لوصفهم جميعاً بمثل ما وصف به علياً يوم قال له معاوية صف لي علياً يا ضرار فوصفه بتلك الصفات التي أبكت معاوية على جحوده وطغيانه ولا أُريد أن أذكر الآن فضائلهم، فلقد دون لهم التاريخ ما لم يدون لغيرهم من المزايا الطيبة، والآثار الحميدة بالرغم من الرقابة الشديدة التي وضعتها السلطات في زمانهم على الرواة وحفاظ السنن والأحاديث. وما زالت آثارهم أنفع ما يقدمه التاريخ للأجيال مهما بلغ الإنسان وتطورت الحياة، والذي أُريده أن ما تقوم به الشيعة من الذكريات والزرايات، في كل عام لشهيد الإباء والعظمة، والأئمة الهداة علي وبنيه لا يزيد عما هو متعارف عند جميع الناس من الاحتفالات والذكريات، تكريماً لما كانوا يعملون لأجله، ويهدفون إليه من الجهاد المقدس، والثورة على الظلم واغتصاب الحقوق والحريات، وتكريماً للبطولة والتضحية واعتزازاً بالإباء والكرامة.

ولم تكن أهداف علي وبنيه لشيعتهم ومحبيهم فحسب، بل كانت للإنسانية جمعاء، كرسالة الأنبياء والمصلحين.

يحتفل الشيعي بذكرى الحسين عليه السلام في العشر من المحرم من كل عام، وفي أكثر أيام السنة وستبقى ذكراه بما فيها من المآسي والفظائع ماثلة لكل متشيع لأهل البيت ولكل مسلم آمن بمحمد ومبادئه وتعاليمه، ويقصد الشيعي زيارة علي والحسين ويبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة، بقلب خاشع

ونفس مطمئنة، لا ليقدس الأحجار التي بني فيها ذلك الصرح المقدس ولا ليشاهد ذلك الذهب الوهاج، وإنما يقصد من الزيارة والذكريات أن يعاهد الله في ذلك الحفل الذي يجمع مئات الألوف من الناس على اختلاف أوطانهم ولغاتهم، وفي تلك البقعة المباركة التي أُريقت على تربتها تلك الدماء الزكية وتقطعت فوقها تلك الأجساد الطاهرة، في سبيل الحق والعدل والحرية، أن يحيا ويموت على ما مات عليه علي والحسين وأبناؤهما الطيبون ويتخذ من سيرتهم درساً نافعاً وسبيلاً إلى ربه الكريم.

وعندما يقف الزائر على قبور أولياء الله يقول: أشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، ونصحتم لله ولرسوله، إني سلمٌ لمن سالمكم، وحربٌ لمن حاربكم، محقق لما حققتم، ومبطل لما أبطلتم، فأسأل الله أن يجمعني معكم على الحق والهدى، ويجعلني معكم في الدنيا والآخرة.

يردد الزائر فضلهم في الزيارة، ويمجد بطولتهم ويعتز بإبائهم وكرامتهم ويتمنى لنفسه ولمن يحب أن ينهج على نهجهم ويحيا ويموت على ما عاشوا وماتوا عليه.

ولقد كان أئمة الشيعة يحرصون أشد الحرص، لتبقى تلك المأساة حية في نفوس المسلمين يتحدثون بها في كل زمان وتصبح جزءاً من حياتهم تدفعهم إلى الثورة على الباطل والإخلاص للحق والجهاد في سبيل مبادئ القرآن الكريم وسنة نبيه العظيم.

ولقد قال الإمام الصادق لبعض أصحابه أتذكرون ما صنع بجدي الحسين؟ لقد ذبح كما يذبح الكبش وقتل معه سبعة عشر شاباً من أهل بيته وإخوته، ما لهم على وجه الأرض من مثيل، ولم يقصد الإمام بذلك أن يستدر الدموع من العيون ولا أن يثير المشاعر والأحزان، وإنما يريد بذلك أن يغرس

في نفوس الناس عظمة الحق، والاستهانة بكل شيء في سبيله، كما صنع جده الحسين عليه السلام فضحى بكل ما لديه من مال وبنين وأخيراً بنفسه الكريمة وهي نفس رسول الله في سبيل العدل والحرية والمساواة وخير الناس أجمعين.

ويقول الإمام الرضا عليه السلام وهو يحدث أصحابه عما جرى على الحسين وصحبه الطيبين: فقل متى ذكرتهم، يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً. يريد من أصحابه أن يكونوا مع أصحاب الحسين بروحهم وعزيمتهم، وإيمانهم بمبادئ القرآن وسنن الأنبياء والمصلحين العاملين لخير الإنسان، يريد أن يقول الإمام: لكل زمان ظالم كيزيد وجبار كعبيد الله بن مرجانة. فكونوا في زمانكم على الظالم الجبار، كما كان أصحاب الحسين على يزيد وأتباع يزيد. وهكذا يجب أن يقول كل إنسان في كل زمان: يا ليتني أكون مع أصحاب الحسين لأفوز فوزاً عظيماً، ولقد خاطبهم الإمام الصادق بقوله: أشهد أنكم أحياء عند ربكم ترزقون، فهم الأحياء عند الله وعند الناس وما زالت ثورتهم من أنفع الدروس للإنسانية وحينما نحيي الحسين وأنصاره بقلوبنا وأرواحنا نحيي في الوقت ذاته كل ثائر على الظلم والطغيان على المستعمرين المستغلين وبخاصة أولئك الذين اغتصبوا بلاد العرب والمسلمين وشردوا أهلها من ديارهم وأوطانهم وأقاموا دولة من شذاذ الآفاق في بلادهم لتكون قاعدة لهم ينفذون منها للاستغلال والتسلط والقضاء على المثل التي جاء بها الإسلام وبقية الأديان.

وفي عقيدتي أن الحسين بن علي عليه السلام الذي نتمرغ على أعتاب حرمه باعتزاز لو كان في عصرنا هذا لمثَّلَ مع إسرائيل وأعوانها نفس الدور الذي مثله في كربلاء ضد الظلم والطغيان والتسلط على حرية الإنسان وكرامته.

لهذا تهدف الذكريات والزيارات، التي يقوم بها شيعة أهل البيت، ولهذه الغاية أمر أئمتهم بها، وقد اتخذ أعداء الشيعة من هذه الذكريات

وصمة على الشيعة فنسبوا إليهم عبادة القبور والمغالاة في تعظيمها، وذهبوا إلى أن الشيعة يستبدلون الحج بالزيارة، ولم يرجعوا إلى الشيعة أنفسهم ليعلموا أن الشيعة لا يرون الزيارة من الفرائض، وإنما يرونها من الأعمال الراجحة يثاب فاعلها، ولا يأثم من تركها كما لا يضر تركها في التشيع إذا لم يكن من استخفاف بعترة النبي ﷺ.

وليس الأمر في الحج كذلك، فتركه مع الاستطاعة والقدرة على الإتيان به من الكبائر، والإنكار لوجوبه يؤدي إلى الخروج عن الإسلام، لأنه يرجع إلى تكذيب القرآن الكريم والرسول الأعظم، ولقد وردت الأحاديث عن النبي وأوصيائه في فضل الكعبة. وقال الإمام الصادق عليه السلام ما خلق الله بقعة في الأرض أحب إليه من الكعبة، ولا أكرم عليه منها.

وفي كثير من الأخبار من استطاع ولم يحج مات على غير الإسلام. فالحج في دين الإسلام فريضة كالصلاة والصيام وغيرهما من الفرائض، ونص الكتاب الكريم على ذلك بقوله سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وليس الأمر كذلك في زيارة قبور أهل البيت.

وإن من أعظم حقوق الرسول على أمته تعظيم عترته، والتمسك بولائها، وأخذ معالم الدين عنها، وحديث الثقلين، يأمرنا بالرجوع إليها، وإلى القرآن، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً. وفي الحديث المتواتر: مثل أهل بيتي كسفينة نوح من تمسك بها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى.

فهل يعاب على الشيعة بعد ذلك لأنهم اتبعوا سيرة الرسول، وأحبوا عترته ووفوا لنبيهم في ذريته، وقد جعل الله أجر رسالته مودة قرباه، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى.

# مصادر الكتاب


| | |
|---|---|
| مجمع البيان | للطبرسي |
| شرح نهج البلاغة | لابن أبي الحديد |
| مروج الذهب | للمسعودي |
| الكامل | لابن الأثير |
| الحق اليقين | للسيد عبد الله شبر |
| المراجعات | للسيد عبد الحسين شرف الدين |
| كشف الحق ونهج الصدق | للعلامة الحلي |
| شرح التجريد | للعلامة الحلي |
| الحادي عشر | للعلامة الحلي |
| أوائل المقالات | للشيخ المفيد |
| الفصول المختارة | للشيخ المفيد |
| مع الشيعة الإمامية | للشيخ محمد جواد مغنية |
| الوافي | لمحسن الفيض |
| أُصول الكافي | للكليني |
| معالم الفلسفة | للشيخ محمد جواد مغنية |

| | |
|---|---|
| شبهات الملحدين والإجابة عنها | للشيخ محمد جواد مغنية |
| الإرشاد | للشيخ المفيد |
| الغيبة | للشيخ الطوسي |
| الملل والنحل | للشهرستاني |
| فرق الشيعة | للنوبختي |
| العدة | للشيخ الطوسي |
| الاعتقادات | للصدوق |
| الاعتقادت | للمجلسي |
| الشيعة في التاريخ | للشيخ محمد حسين الزين |
| الشيعة | للشيخ محمد حسين المظفري |
| تذكرة الخواص | لإبن الجوزي |
| ينابيع المودة | |
| حقائق الأصول | للسيد محسن الحكيم |
| فرائد الأصول | للشيخ مرتضى الأنصاري |
| الأمالي | للسيد المرتضى |
| المعارف المحمدية | للشيخ محمد الخالصي |
| زيد الشهيد | للسيد عبد الرزاق المكرم |
| غاية المراد | للسيد هاشم البحراني |
| منهج المقال | للاسترابادي |
| الأدب في ظل التشيع | للشيخ عبد الله نعمه |
| الله يتجلى في عصر العلم | لنخبة من العلماء الأمريكيين ترجمة الدكتور عبد المجيد سرحان |
| الله والإنسان | لعبد الكريم الخطيب |

# الفهرس